

العلماء العرب في الإسلام

في المغرب

(العصر الحديث)

الأستاذ الدكتور

مراحم علاوي الشاهري

رئيس قسم الدراسات التاريخية

جامعة لاهي - مكتب الموصل

الحضارة العربية الإسلامية في المغرب (العصر المريني)

الدكتور

مزاحم علاوي الشاهري

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
فهرس المحتويات.....	5
المقدمة.....	11
الفصل الأول	
الأصول الاجتماعية والسياسية لحكم بني مرين	
أولاً: بنو مرين.....	17
1- أصلهم.....	17
2- بيئتهم حتى دخولهم المغرب.....	23
3- صراعهم مع الموحدين.....	25
ثانياً: تولي أبي الحسن علي بن عثمان الحكم المريني.....	31
1- نشأته.....	31
2- ولايته للعهد المريني.....	34
3- بيعته.....	35
ثالثاً: سياسته في توحيد المغرب العربي.....	35
1- ضم سجلماسة.....	35
2- ضم دولة بني عبد الواد في تلمسان.....	37
3- ضم الدولة الحفصية في تونس.....	41
رابعاً: نهاية عهد السلطان أبي الحسن.....	44
الفصل الثاني	
العلاقات السياسية الحضارية بين الدولة المرينية	
والممالك المجاورة	
أولاً: العلاقة مع بني الأحمر في غرناطة.....	51

51	أ- التعاون العسكري
61	ب- مشيخة الغزاة
63	ج- العلاقات السياسية
68	ثانياً: العلاقات مع دولة مالي
69	أ- السفارات
70	1- سفارة دولة مالي الأولى
71	2- سفارة دولة مالي الثانية
71	3- سفارة دولة مالي الثالثة
73	ب- التبادل التجاري
74	1- الذهب
75	2- النحاس
76	3- العبيد
76	4- الملح
78	ج- العلاقات الثقافية والدينية والعمرانية
80	ثالثاً: العلاقة مع الممالك في المشرق
82	أ- السفارات
90	ب- العلاقات الثقافية
91	ج- التبادل التجاري

الفصل الثالث

العلوم النقلية العقلية في المغرب

95	أولاً: العلوم النقلية
96	1- علوم القرآن
96	أ- علم القراءات
98	ب- علم التفسير

100	2 - علم الحديث
104	3- الدراسات الفقهيّة.....
115	4- علوم العربيّة.....
115	- عوامل ازدهارها.....
115	1- عروبة بني مرين.....
116	2- ازدهار العلوم الدينيّة.....
116	3- الهجرات العربيّة إلى المغرب الأقصى.....
117	أ - علم اللغة
119	ب - علم النحو.....
122	ج - الادب.....
122	1- الشعر.....
128	2- النثر.....
132	5- علم التاريخ.....
135	6- الرحلات.....
140	7- التصوف.....
144	ثانياً: العلوم العقلية.....
144	1 - الفلسفة.....
148	2- الطب.....
152	3- علم الفلك.....
155	4- علم الكيمياء.....
158	5- الرياضيات.....
163	6- الموسيقى.....

الفصل الرابع

اماكن التعليم ومراكز الثقافة في المغرب

167	أولاً: أماكن التعليم المرينية.....
167	1- الكتاتيب.....
173	2- المساجد والجامع.....
173	أ- المساجد.....
177	ب- جامع القرويين والاندلس.....
181	3- المدارس.....
186	4- مجالس العلماء.....
188	5- الزوايا.....
191	6- المجلس العلمي للدولة.....
197	7- تعليم المرأة.....
199	ثانياً: مراكز الثقافة في الدول المرينية.....
200	1- فاس.....
202	2- مراكش.....
203	3- تلمسان.....
204	4- سبتة.....
206	5- مكناس.....

الفصل الخامس

النهضة العمرانية في المغرب

209	أولاً: فن العمارة المريني.....
212	ثانياً: المدارس.....
214	1- مدرسة الصهريج.....
215	2- المدرسة المصباحية.....

216	3- مدرسة الوادي
217	4- مدرسة السبعين
218	5- مدرسة الطالعة بسلا
219	6- المدرسة الجديدة في مكناس
220	7- المدرسة الجديدة بسبته
221	8- المدرسة العظمى بمراكش
221	9- مدرسة تازا
222	10- مدرسة ضريح أبي مدين
222	ثالثاً: المساجد
223	1- مسجد أبي مدين في العباد
225	2- جامع القصبة بتلمسان
225	3- الجامع الكبير بتلمسان
226	4- مساجد أخرى
226	رابعاً: الزوايا
227	خامساً: المدن
228	1- المنصورة في تلمسان
230	2- المنصورة في سبته
230	سادساً: القصور
233	سابعاً: المحارس والابراج
234	ثامناً: الأسوار
235	تاسعاً: دور الصناعة
235	عاشراً: القناطر والسقايات
241	المصادر

المقدمة

شهدت بلاد المغرب العربي والأندلس، منذ مطلع القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي تحولات خطيرة، وفي مختلف الميادين، جراء ضعف سلطة الموحدين وانحسار نفوذهم عن أجزاء مهمة من إمبراطوريتهم الواسعة المترامية الأطراف التي كانت تشمل المغرب وأجزاء من الأندلس.

ونتيجة لذلك، أظهرت بعض القبائل في مناطق مختلفة من البلاد كفاءة سياسية مستغلة نفوذها القبلي في تكوين دويلات لها، ففي إفريقية «المغرب الأدنى» أسس الحفصيون دولتهم واتخذوا تونس عاصمة لهم، وتمكن بنو عبد الواد في المغرب الأوسط من تأسيس دولة لهم وجعلوا تلمسان عاصمة لهم، في حين استطاع بنو الأحمر في غرناطة الانفصال عن الموحدين، واتخذوا غرناطة قاعدة لحكمهم.

أما في المغرب الأقصى، فقد تفاقم الصراع - الذي استمر أكثر من نصف قرن - بين الموحدين والمرينيين، وتمكن المرينيون من انتزاع مدن المغرب الأقصى الواحدة تلو الأخرى، وبسقوط مراكش سنة 668هـ - 1269م، سجل المرينيون أول صفحة في تاريخهم السياسي حكاماً للبلاد، ولم يرثوا سلطة الموحدين وإنجازاتهم في المغرب الأقصى فحسب، بل ورثوا أيضاً مسؤوليات جسيمة جراء ضعف الموحدين العسكري وعلى وجه التحديد بعد موقعة العقاب 609هـ - 1212م، تلك الموقعة التي حثت الممالك الإسبانية على تحقيق اطماعها، فلم تكتف ببلاد المسلمين في الأندلس، بل وانتقلت منها إلى المغرب العربي من أجل تكوين مستعمرات لها الأمر الذي فرض على المرينيين مهمة الدفاع عن بلاد المسلمين في العدوتين.

وزيادة على ذلك، فقد ظل هاجس المرينيين متقدماً من أجل تأدية رسالتهم في ميادين العلم والبناء، مستكملين بذلك رسالة الدولة التي سبقتهم من أمثال المرابطين والموحدين.

والواقع ان تاريخ المغرب العربي لم يلق العناية الكافية من قبل المشاركة المهتمين بشؤون التاريخ، إضافة إلى أن الجهود التي بذلها المغاربة في العصر الحالي لإضاءته لم تكن كافية وذلك لأن الكثير من فصوله مازال أرضاً بكر بحاجة إلى الدراسة.

وتأكيداً لروح البحث العلمي وفي إطار النظرة والتوجه القومي حاولت التصدي لدراسة تلك الفترة.

وزيادة على ذلك، فإن الدولة المرينية بما تمثله من صفحة مهمة من التاريخ العربي لاسيما في الفترة التي قمنا بدراستها لما تميزت به من منجزات واحداث كبيرة ولأنها تشكل مرحلة ناضجة لعطاء الدولة المرينية على المستوى الحضاري، كانت حافزاً لي في اختيارها.

ان الدراسات التي كتبها بعض المؤرخين المغاربة من أمثال المنوني ومحمد بن شقرون والتازي، سلطت الأضواء على محاور مهمة من تاريخ الدولة المرينية لكن الموضوع يبقى بحاجة إلى جهود أخرى، لاسيما دراسة فترة تنحصر في حوالي ربع قرن من تاريخها، وفي اتجاهات مختلفة، خاصة إذا عرفنا ان هذه الفترة تمثل ذروة العصر المريني العصر المريني بما قدمه من عطاء حضاري حتى اتفق المؤرخون على تسميتها بعصر الازدهار.

وفي ضوء ذلك، قمت بدراسة المصادر المتوفرة في مكتباتنا، واحصائها فيما وجدت ما يطفئ غلة الباحث على الرغم من شهرته ورواجه عند المهتمين بدراسة تاريخ المغرب.

وتمكنت بعون الله تعالى من تحقيق غايتي في الرحلة إلى المغرب فما وجدت في مكتباته عن المصادر المهمة لي، ونهلت منها ما تطيب له النفس كما التقيت بذوي الشأن ممن لهم علاقة بتاريخ المغرب العربي.

وقد وجدت في المشرفين على مكتباتهم الرسمية خير عون لي في تسجيل وتصوير ما ابتغيه وبخاصة «الخزانة المكية» و«الخزانة العامة» في الرباط على الرغم مما لاقبته من صعوبات في تصوير بعض المخطوطات، بسبب ترميم بعضها أو طلبها من قبل جهات رسمية حالت دون تصويرها، فأثرت تسجيل المعلومات ونقلها مباشرة.

أما آثار المرينيين فقد عازمت على مشاهدة منجزاتهم المادية الباقية على قدر ماستنحت الظروف، ووقفت على بعضها، وقمت بتسجيل ما وجدته، وإن كان الوقت عدوا لي، بسبب انتشارها في معظم مدن المغرب العربي.

ومهما يكن من امر، فقد كانت رحلتي تذكروني ببعض عناء أجدادنا العظيم عندما شدوا رحالهم من أجل كلمة كتبت هنا وهناك في مشارق الأرض ومغاربها وبعد العودة إلى الوطن شرعت بدراسة ما جلبته، وبدأت في كتابة دراستي وجعلتها من خمسة فصول.

اهتم الفصل الأول بدراسة الأصول الاجتماعية والسياسية لحكم بني مرين حتى تولي أبي الحسن علي بن عثمان، وتطرقت في الفقرة الأولى منه لدراسة أصل بني مرين، مستعرضا فيما ورد حولهم، من آراء مبينا قدر الإمكان الجوانب التي تثير جدلا، مناقشا ما أمكن منه.

ودرست في الفقرة الثانية، بيئتهم قبل وبعد دخولهم المغرب والخصائص الاجتماعية والاقتصادية التي تميزوا بها.

وتناولت أيضاً، الصراع المريني - الموحدوي والتحولات التي طرأت على حجم ذلك الصراع، والأساليب التي اتبعها المرينيون في إخضاع مدن المغرب الأقصى.

وعالج الفصل، تولى أبي الحسن الحكم المريني، وقد تناولت سيرته بصورة مكثفة، وولايته للعهد، وبيعته، وتوحيده للمغرب العربي.

وتضمن الفصل الثاني دراسة العلاقات السياسية - الحضارية بين الدولة المرينية والممالك المجاورة، وعالجت في الفقرة الأولى - طبيعة العلاقات القائمة مع بني الأحمر في غرناطة، والاتجاهات البارزة في تلك العلاقة، مستفيداً من السياق التاريخي الذي كان قائماً بين الدولتين.

أما الفقرة الثانية، فقد اهتمت بدراسة العلاقات مع امبراطورية مالي، مشيراً إلى السفارات التي قامت بينهما ودوافعها، والتبادل التجاري في البضائع وكذلك العلاقات الثقافية والدينية والعمرانية، موضحاً الأثر المغربي على بلاد السودان في تلك الميادين.

أما الفقرة الأخيرة من الفصل فقد تناولت العلاقة مع الممالك في المشرق، محيطة ما أمكن بالسفارات السياسية والعلاقات الثقافية والتبادل التجاري بينهما.

واهتم الفصل الثالث بدراسة العلوم النقلية والعقلية على عهد المرينيين، أما النقلية فقد تضمنت دراسة لعلوم القرآن والحديث والفقه والعربية والتاريخ والرحلات والتصوف، بينما تناولت الفقرة الثانية دراسة العلوم العقلية التي شملت الفلسفة والطب والفلك والرياضيات والكيمياء والموسيقى.

وتناولت في الفصل الرابع أماكن التعليم ومراكز الثقافة المغربية، وافردت الفقرة الأولى لدراسة أماكن التعليم في العصر المريني، ساعياً إلى إظهار خصائص تلك الأماكن والعلوم التي درست فيها.

اما الفقرة الثانية فقد عالجتها، مميزات المدن المغربية العلمية، وتخصصاتها في بعض العلوم وأسباب ذلك ولم تقتصر في الفقرة المذكورة على دراسة مدن المغرب الأقصى فحسب، بل قمنا بدراسة تلمسان وهي من المدن التي خضعت لسيطرة المرينيين بوصفها نموذجا لاهتماماتهم العلمية.

وعني الفصل الخامس بالنهضة العمرانية على عهد المرينيين وحاولت في مستهلها، تقديم نبذة عن اهتمام السلاطين المرينيين بتجديد وتأسيس المنشآت العمرانية المختلفة، وبيئت في ضوء ذلك الخصائص العامة الفنية للحضارة المرينية في مجال العمارة مستعرضا فيه أيضاً، المنشآت التي اهتم ببنائها السلطان أبو الحسن مع الوقوف عند بعض النماذج بشيء من التفصيل وبخاصة تلك التي مازالت آثارها باقية حتى الوقت الحاضر.

وفي الختام أمني أن تحظى دراستي هذه باهتمام القارئ الكريم، فإن أصبت فلي أجران، وإن أخطأت فحسبي اجر من اجتهد، والله من وراء القصد.

الفصل الأول

الأصول الاجتماعية والسياسية لحكم بني مرين

أولاً: بنو مرين:

1- أصلهم:

ينحدر نسب بني مرين إلى قبائل زناتة القديمة العهد في بلاد المغرب العربي والتي تفرعت عنها بطون كثير وقبائل جمة⁽¹⁾.

وأرجع بعض المؤرخين قبائل زناتة إلى أصلها العربي وردّها إلى جدّها برّ بن قيس هيلان الذي نزع إلى بلاد البربر⁽²⁾. الذين كانوا يسكنون المناطق التي تطل على البحر الأبيض المتوسط في المنطقة المحصورة ما بين بلام الشام ومصر⁽³⁾.

(1) ومن قبائلها المشهورة: مغراوة ويغرن وزواغة ومغيلة ومطغرة ومديونة وملزوزة ونفوسة وعبدالواد وتوجين وجزقاية، ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، 15.

(2) أشار بعض المؤرخين إلى أن هذه الرواية: كابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 14-15، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: 279، ابن ابن الأحمر: روضة السرين في أخبار دولة بن مرين، 9، مجهول - الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، 171، ابن مرزوق: المسند الصحيح الحسن، 107.

(3) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، 1/ 442، ابن خلدون: بغية الرواد في ذكر بني عبد الواد، 1/ 90. وللمزيد ينظر: ابن عبد الله، الموسوعة المغربية، 4/ 214-215.

أما فيما يتعلق بانتقال بر بن قيس عيلان فقد ذكر ابن أبي زرع أنه تزوج من البهاء بنت دهمان بن عيلان بعد أن وقع خلاف بين إخوته في شأن زواجها من أحدهم، فكان ذلك سبب انتقاله من موطنه الأصلي إلى بلاد أخواله البربر آنذاك.

بعد أن شعرت والدته بالخطر عليه وعلى زوجته، أما عن حالة في أرض أخواله البربر فقد استقر فيها وأنجبت له البهاء ولدين: علوان ومادغيس، مات الأول صغيراً وبقي مادغيس وكان يلقب بالأبتر وهو أبو البتر من البربر⁽¹⁾.

وقد قدم بعض المؤرخين الرواية نفسها بصورة اقتربت من الأسطورة كأن يقول في انتقال بر: «وشردت له ناقة فتبعها ف وقعت في بلاد أخواله من البربر»⁽²⁾.

وعلى الرغم من اجتماع معظم المؤرخين على إرجاع زناقة إلى بر بن قيس، إلا أن ذلك لا يعني خلو الروايات التاريخية ممن ينكر عليهم هذا النسب⁽³⁾، غير أن الذي بين أيدينا شواهد كثيرة نقلتها المصادر التاريخية، مشيرة إلى انتقال بر بن قيس إلى بلاد البربر وما استجد عليه من حال، كما نسبت إلى تهاضر بنت قيس أبياتا من الشعر ترثي أخاها الذي ابتعد عن موطنه، وتغير لسانه، وكأنه لم يعيش بأرضه نجد، ولم ينطق اللغة العربية قبل ذلك⁽⁴⁾.

(1) الذخيرة السنية، 16، الأنيس المطرب 279-280.

(2) ابن الأحمر روضة السرين، 9: ونقل أحدهم أيضاً سبب انتقاله هو خشية من أخيه عمر بن قيس، ابن منصور: قبائل المغرب، 1/ 298.

(3) قال ابن حزم: «ما علم النسابون لقيس بن عيلان ابناً اسمه بر» جمهرة أنساب العرب، 495، وفي ذلك يجاري البلاذري في قوله: «حدثني بكر بن الهيثم قال: سألت عبد الله بن صالح عن البربر فقال: هم يزعمون أنهم ولد بر بن قيس وما جعل الله لقيس ولداً يقال له بر»، فتوح البلدان، 226، مجهول: نبذة تاريخية في أخبار البربر في القرون الوسطى، 78.

(4)

ومن الوثائق المهمة التي قدمت لنا موقفا واضحا، ودليلا قاطعا على إزالة اللبس والغموض في نسبهم ما نقله مؤلف الذخيرة السنية في عروبة قبائل زناتة وهي انه لما فتح القائد حسان بن النعمان ⁽¹⁾ إفريقية والمغرب العربي كانت أكثر جيوشه من قبائل قيس، فلما وصل جبل أوراس وجد أن قبيلة زناتة قد اجتمعت لقتاله، فدعاهم إلى الإسلام وقال لهم «يا معشر زناتة انتم إخواننا في النسب، فلم تخالفونا وتعينون علينا أعداءنا؟ أليس أبوكم بر بن قيس بن عيلان؟ قالوا بلى؟ ولكنكم معشر العرب تنكرون لنا ذلك وتدفعوننا عنه، فإذا أقررتم بالحق ورجعتم إليه فاشهدوا لنا به على أنفسكم» فتم لهم ذلك كتب الحاضرون من وجوه قيس وزناتة هذه الوثيقة ونصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما شهد به أنجاد قيس لإخوانهم زناتة ابن بر بن قيس عيلان أن أقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فأنتم والحمد لله إخواننا نسبا واصلا ترثوننا ونرثكم، نجتمع في جد واحد، وهو قيس عيلان فلكم مالنا، وعليكم ما علينا» ⁽²⁾.

وأزرت بر لكنه أعجمية
كانا وبر لم نغمر بجيادنا
وما كان بر في الحجاز بأعجا
بنجد ولن نقسم نهابا ومغنا

وقالت أيضا:

لبيك كل باكية أخاها
تحمل عن عشيرته فأضحى
كما ابكي على بر بن قيس
ودون لقائه أنضاء عيسى

ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، 19.

(1) حسان بن النعمان الغساني: قائد عربي من بلاد الشام، عين لقيادة الجيش العربي في بلاد المغرب في عهد عبد الملك بن مروان، وتوفي بعد عزله وعوداه إلى المشرق: ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، 200، عبد الحميد سعد زغلول: تاريخ المغرب العربي، 1/ 214-238.

(2) الذخيرة السنية، 17.

ويبدو واضحاً أن هذه الوثيقة لها أهميتها التاريخية، غير أن الذي لا بد من الإشارة إليه هو أن مؤلف الذخيرة لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في نقلها بل اكتفى بالقول و«لم تزل نعرف ذلك ونتوارث علمه وصحته من آبائنا ومشايخنا وأهل العلم بالتاريخ والمعرفة بالأنساب منا، يأخذه كابر عن كابر، وعادل من عادل»⁽¹⁾.

ومما يجدر بالتأمل أن المصادر التاريخية حفلت بالكثير من الروايات التي تشير إلى التأسف بسبب ما طرأ على زناتة، لاسيما تبدل لسانها عن العربية شأنها في ذلك شأن غيرها من أخواتها قبائل المغرب، فالمزوزي في أرجوزته⁽²⁾، وقف مفسراً لهذه الظاهرة، مبيناً ما طرأ على زناتة من تبدل لسانها، نتيجة ابتعادها عن موطنها الأول غير أنه لم يتجاهل واقعها الحياتي الذي كان يعتمد أصوله من منبعه العربي، كما أنه أشار إلى أن قبيلة زناتة كانت تضاهي القبائل العربية في ميادين شتى⁽³⁾.

ومما يلفت الانتباه أن الإحساس بالفرقة ما بين العرب والبربر كان أمر يضجر منه سكان تلك البلاد، بل أنهم يرون فيه مغالطة للحقيقة وأياً ما بعده إيهام، لذلك اندفعوا إلى إظهار اعتزازهم بالعروبة مع الوقوف بوجه من يحاول أن يوجج نار الفرقة ما بين العرب والبربر، وأكد أحدهم عمق الروابط والأصول فيما بينهم،

(1) ابن أبي زرع، 17.

(2) نظم السلوك، 10.

(3) أشار إلى هذه المعاني فقال:

فجاءت زناتة البربرا	فصبروا كإسلامهم كما ترى
ما بدل الدهر سوى أقوالهم	ولم يبدل مقتضى أحلامهم
بل فعلهم أرى على فعل العرب	في الحال والصواب ثم في الأدب
فانظر كلام العرب قد تبدلا	وحالهم عن حاله تحولا

وان منبتهم واحد، وقيمتهم تأتي من خلال وحدتهم التاريخية في الأرض والنسب والتطلع، تلك التي طالما تناساها الكثيرون أو حاولوا إغفالها، وهم يدركون أنه لا يمكن فهم عراها مهما تغيرت الأحوال⁽¹⁾.

وعلى أية حال فإن قبائل زناتة بصورة خاصة والبربر بصورة عامة أدركوا هذه المحاولات في عزلهم عن العرب، فكانوا يظهرون اعتزازا بنسبهم دون نكران للظروف الحياتية التي طرأت عليهم في بلاد المغرب العربي أي بربريتهم، أنهم تعاملوا معها بروح واقعية على مستوى الفكر والممارسة، فذكروها، ولم يتجاهلوها، وكانوا يذكرون الآخرين دوما من أين كانوا ولأي شيء يتمون، وفي قول يزيد بن خالد وهو من شعراء زناتة خير دليل على ذلك:

أيهما السائل عن احسابنا	قيس عيلان بنو العز الاول
وينوبر بن قيس من به	تضرب الامثال في كل اهل
ان نسبنا فبنو بر الندي	طاردا لازمة نحرار الابل
من تردى سالف المجد علا	وبرودا فاكسى منها حلل
ان قيسا يعتزى بر له	ولبر يعتزى كل بطل
حسبك البربر قومي انهم	ملكوا الأرض بأطراف الاسل

(1) ومما يدل على هذه المعاني قول عبدة بن قيس العقيلي أحد شعراء العرب الذين سكنوا الأندلس فقال:

ألا أيها الساعي لفرقة بيننا	توقف هداك الله سبل الأطايب
فاقسم انا والبرابر أخوة	نأما وهم جد كريم المذهب
أبونا أبوهم قيس عيلان في الندى	لهم حرمة تشفي غليل المحارب
فنحن وهم ركن منيع وأخوة	على رغم زرع: لنأما المناقب

ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 18، الأئيس المطرب، 280. ابن منصور، قبائل المغرب، 299-300.

وببيض تضرب الهام بها هام من كان عن الحق نكل⁽¹⁾

وأخيراً فقد ذكر بعض المؤرخين نسباً يرقى إلى علي بن أبي طالب لقبيلة مرين بعد تسلمها زمام الحكم⁽²⁾، وهي برأينا لا تخرج عن محاولة بعض الشخصيات للتقرب من الدولة المرينية لغايات عديدة⁽³⁾، أما موقف الدولة الرسمي إزاء ذلك فقد أوضحه السلطان يوسف بن يعقوب عندما قدمت له شجرة النسب تلك فقال للذي أحضرها «أما هذا فقد شكرنا تهمة بك به وحمدنا لك مسعاك، وهذا شيء إن كان على ما قلته فنرجو النفع به عند الله في العقبى وإن كان غير ذلك، فلا خير لنا في الشك بما فيه مطعن علينا»⁽⁴⁾، وعلى ضوء ذلك نقول أن إظهار الدولة المرينية لنسبها العربي والتأكيد عليه بعد تسلمها الحكم أمر طبيعي لأنهم كذلك، والشيء الذي لا بد أن نذكره أننا لم نلمس ما يفسر استخدامها له ولغرض ما، أو أن هذا الأمر كان حاجة ملحة في ترجيح كفتهم على صعيد الصراع السياسي مع الموحدون أو بعد ذلك، ولا بد أيضاً من أن نشير إلى أنها رعت العربية رعاية خاصة بجعلها اللغة الرسمية في البلاد⁽⁵⁾.

وأخيراً فقد ذكر البعض نسباً لأمرهم عبد الحق بن محيو فهو «ابن أبي بكر حمادة بن محمد بن ورزير بن محوس بن جرماط بن مرين بن ورتاجن بن ماخوخ ابن

(1) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 16.

(2) ابن الأحرر: روضة السرين، 8.

(3) عماد ابن الأحرر مثلاً إلى تيجيد بني مرين والخط من شأن بني عمومته (بني عبد الواد ودار كلامه بالذات حول يغمراسن بن زيان: روضة السرين، 45، بينما حصل العكس لدى يحيى بن خلدون الذي حاول رفع شأن بني عبد الواد والارتقاء بنسبهم إلى إدريس الأول: بغية الرواد، 1/ 101.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 109.

(5) ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 32، كنون: النبوغ المغربي، 1/ 183.

وجديج بن بن فاتن بن نظر بن محبت بن يصيلتين بن مسري بن زاكيا بن ورسىكر بن زانات ابن جانا بن تامزيت ابن خريس بن رجيج بن مادغيس الأبر بن بر بن قيس عيلان ابن مغز بن نزار بن معد بن عدنان»⁽¹⁾.

2- بيئتهم حتى دخولهم المغرب:

انتشر بنو مرين في المنطقة المحصورة ما بين فجيج وسجلماسة وملوية، وربما وصلوا أحيانا إلى منطقة الزاب⁽²⁾، ووصفهم أحد المؤرخين بأنهم «لا يعرفون الحرث ولا التجارات ولا يشتغلون بغير الصيد والغارات جل أموالهم الإبل والخيل»⁽³⁾.

إن الطابع الرعوي الذي اتسمت به حياة بني مرين فرض عليهم البحث والتنقل لإيجاد المراعي الخصبة، إدامة لحياتهم ولماشيتهم التي كانوا يربونها والتي كانت تشكل عنصرا أساسيا من حياتهم، وكانت أيضاً سببا في توجههم سنويا إلى المناطق الشمالية من بلاد المغرب للتزود بما يحتاجون إليه، ولبيع ما في حوزتهم منها، وقد كانت رحلتهم السنوية تتم في فصل الصيف حتى إذا أوشك الخريف على الانتهاء، عادوا للتجمع في منطقة كرسيف⁽⁴⁾، التي عدت قاعدة لهم وقلعة لحفظ أمتعتهم، متجهين إلى جنوب البلاد، استعدادا لقضاء فصل الشتاء هناك⁽⁵⁾.

(1) ابن الأحرر: روضة السرين، 14 النفحة السرينية ورقة 19، ويبدو انه نقله من ابن أبي زرع. ينظر: الأنيس المطرب، 278-279، الذخيرة السنية، 14-15، وقارن عنان - نهاية الأندلس، 95، إسماعيل - تاريخ شالة: 269 وما بعدها.

(2) وكانوا بالزراعة قرب جبل يدعى إيكجان، ينظر ابن الأحرر، النفحة السرينية، ورقة 20، الناصري، الاستقصا، 3/3.

(3) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 25.

(4) كرسيف: قصر قديم شيد فوق جرف نهر الملوية على مسافة 40 كم من تاويرت، ينظر: الوزان: وصف إفريقيا، 354.

(5) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 282، ابن السكاك، نصيح ملوك الإسلام، ورقة 65.

وبحلول سنة 610هـ - 1213م، اضطروا إلى مغادرة موطنهم، حيث سكنوا في المنطقة المطلة على وادي ملوية، بسبب الخلافات القبلية الحادة التي نشبت بينهم وبين أبناء عموماتهم بني عبد الواد⁽¹⁾.

إن الظهور المفاجئ لبني مرين في مطلع القرن السابع الهجري شكل منعطفا كبيرا على صعيد تغير العلاقات السياسية في المغرب العربي بصورة عامة وذلك يثير فينا تساؤلا مهما، هو لماذا لم يكن لبني مرين أثر قبل هذه الفترة على صعيد الأحداث السياسية؟ وفي اعتقادنا أن ذلك يتعلق بأمرين أساسيين أولهما: أن قبيلة بني مرين - وكما هو معروف - كانت تعيش قبل دخولها المغرب الأقصى على نمط من الحياة الاقتصادية الذي يمكنها فقط من توفير حاجاتها الاقتصادية التي كانت تشكل جل اهتمامها، غير أن ذلك الأمر لم يكن ليعزلها عن المشاركة في الأحداث السياسية الكبرى لاسيما في مهمة الجهاد على صعيد بلاد الأندلس⁽²⁾.

وثانيهما: أنها كانت تعيش عزلاً سياسياً من قبل الدولة الموحدية على عكس بعض فروع زناتة كبني عبد الواد الذين شهدوا محاربة ورعاية في علاقتهم مع الدولة الموحدية⁽³⁾.

إن العامل الذاتي الذي كان يكتنف حياة هذه القبيلة والذي عبر عنه كنون بقوله «ولم تكن هذه القبائل في بلادها فوضى لا نظام لها ولا قانون بل كانت خاضعة

(1) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 25-26، ابن مرزوق: المسند الصحيح.

(2) شاركت قبيلة بني مرين في غزوة الأرك التي حدثت في بلاد الأندلس سنة 591هـ - 1194م والتي توفي على أثرها الأمير محيو المريني، وللمزيد عن هذه الواقعة، ينظر المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب 358 وما بعدها. ابن عذاري: البيان المغرب، ق 3/ 193-196، ابن الأثر: الكامل، 12/ 113-116، ابن خلدون، العبر، 6/ 245، عنان عصر المرابطين والموحدين، ق 2/ 196-222.

(3) ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 104-105.

لأحكام الشرع الشريف في معاملاتها وأحوالها الشخصية وكانت تقيم على رأسها زعيما كسائر القبائل، يسمى الأمير تحقيقا لاستقلالها الذاتي⁽¹⁾، والظرف الذي كانت تشهده البلاد في النصف الأول من القرن السابع الهجري في ظل الدولة الموحدية، شجعا هذه القبيلة على الظهور، وأداء دورها في تاريخ المغرب ليس على مستوى الحياة السياسية فحسب بل وفي المستويات كافة.

وأخيرا نقول أن هذه القبيلة، قامت حضارتها بخلاف المرابطين والموحدين الذي قبنوا اتجاها دينيا⁽²⁾، ولذلك كان لإنجازها الحضاري طعم آخر، له شخصيته المميزة في تاريخ دول المغرب الأقصى قاطبة.

3- صراعهم مع الموحدين:

تعاقب على رئاسة بني مرين رؤوسا كثيرون قبل دخولهم المغرب، حيث كانت لمحمد بن ورزير بن فكوس بن كرماط بن مرين، ولما توفي قام بأمرهم أكبر أولاده حمادة بن محمد، ثم خلفه أخوه عسكر، وولده المخضب الذي ظل على زعامة قومه حتى قتل في موقعة قادها ضد الموحدين في مكان يعرف بفحص مسون في سنة 540هـ-1145م⁽³⁾.

تولى عبد الحق بن محيو زعامة قومه بعد أن كانت لأبيه، كما استمرت فيما بعد بأبنائه، وقد اظهر الأمير عبد الحق براعة سياسية، «وكان عالما مشهورا وأميرا مطاعا يقفون عند أمره ونهيه، ويصدرون في جميع أموره عن رأيه»⁽⁴⁾، وفي أيام إمارته على

(1) النبوغ المغربي، 1/ 186-187.

(2) Jamil Abun-Nasr: A History of the Maghrib. (Cambridge, 1978), p 120.

(3) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 20-21، ويجدر بالذكر أن ابن الأحمر قدم المخضب على حمادة في زعامة بني مرين، ينظر روضة السرين، 13، النفحة النصرية، ورقة 11.

(4) ابن الأحمر: روضة السرين، 15.

بني مرين بدأ ضعف الموحدين وزحف المرينيون نحو الشمال، حيث دخلوا أراضي المغرب الأقصى عن طريق وادي تلاغ⁽¹⁾، وأقاموا ببلاد الريف وبطوية⁽²⁾.

أخذ المرينيون يغيرون على النواحي المجاورة لهم ويتصرفون بلا وازع من السلطة الموحدية، لاختلال حالها، فشكا الناس حالهم إلى الخليفة الموحدي وقتئذ يوسف المتصر الذي أمر بتشكيل قوة بقيادة الشيخ الحسن بن واندين، وكلف عامل فاس إسحاق بن يوسف بمساندته، وكانت القوة مكونة من عشرة آلاف مقاتل⁽³⁾.

التقت القوتان عند وادي نكور بفحص الوادي ما بين رباط تازا والمقرمدة سنة 613هـ-1216م فمنيت قوة الموحدين بهزيمة منكرة وأطلق على هذا العام عام المشعلة⁽⁴⁾. وهذا مما حفز قبيلة بني مرين على شن حملة في السنة نفسها على رباط تازا وقتل عامله⁽⁵⁾.

لم تقف الدولة الموحدية مكتوفة الأيدي إزاء الانتصارات المرينية المتلاحقة فعمدت إلى توظيف بني عسكر الذين اغاضهم انتصارات بني حماسة أبناء عمومتهم فتحالفوا مع عرب رباح ضد بني مرين، وتمكن هذا الحلف من تحقيق انتصار عسكري على بني مرين بالقرب من وادي سبو على اميال من تافر طاست بوا

(1) وادي تلاغ: وادي وسهل ملاصق لنهر الملوية من جهة الشرق، غير بعيد عن كرسيف.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 282، الناصري: الاستنصا، 5/3.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 283. الذخيرة السننية، 27، وفي العبر، 169/7، أن الحملة كانت تتكون من عشرين ألف مقاتل.

(4) نبات استر به الجند الموحدي في أثناء وصولهم إلى فاس فارين أمام بني مرين: ابن عذارى: البيان المغرب، ق 3/244، ابن أبي زرع: الذخيرة السننية، 28. ابن خلدون: العبر، 169/7.

(5) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 286 الذخيرة السننية، 32.

جرمان⁽¹⁾، ونتج عن تلك الموقعة مقتل الأمير عبدالحق وولده إدريس اللذين دفنا في تافر طاست في الموضع المعروف بسوق الجمعة⁽²⁾.

عقد بنو مرين لأبي سعيد عثمان بن عبد الحق في سنة (614هـ / 1217م)⁽³⁾. بعد أن خاضوا معركة ثانية ثارا لقتلاهم، لم يهدأ أوراها حتى تمكنوا من إخضاع عرب رباح لطاعتهم وإرغامهم على دفع ضريبة سمرية لهم⁽⁴⁾.

استطاع الأمير عثمان بن عبد الحق أن يخضع عدة قبائل أخرى لنفوذه كهوارة وزكارة وتسول ومكناسة وبطوية وفشتالة وسدراتة ومهلولة ومديونة، كما فرض على أهالي فاس ومكناسة ورباط تازا وقصر عبد الكريم ضريبة سنوية لقاء حمايتهم، كما تمكن أيضاً في سنة (620هـ / 1223م) من إخضاع قبائل جناته والقبائل العربية التي كانت تسكن منطقة ازغار، وعين عمالا عليها⁽⁵⁾، وبحلول سنة (625هـ / 1227م) خضعت كافة القبائل التي سكنت وقتئذ وادي ملوية إلى رباط الفتح، ولم يزل على هذا المنهج حتى اغتاله عالج بوادي رداد سنة (638هـ / 1240م)⁽⁶⁾.

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 286.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 111-112. ابن الأحمر: النقحة النصرية، ورقة 18.

(3) ابن الأحمر: روضة النرين، 16.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 112.

(5) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 289. الناصري: الامتقضا، 3/9-10. وذكر ابن عذاري:

انه اغتيل بتحريض من ابن واندين الوزير الموحيدي وان سنة وفاته كانت (637هـ /

1239م): البيان المغرب، ق3/351.

(6) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 37.

بايع المرينيون أخاه محمد بن عبد الحق الذي «اقتنى سنن أخيه في تدويح بلاد المغرب واخذ الضريبة من أمصاره وجباية المغارم من باديته»⁽¹⁾، إلا أن الدولة الموحدية تمكنت من تحقيق هزيمة كبيرة للمرينين بالقرب من فاس بمنطقة تدعى أغلان سنة (642هـ / 1244م) وولي أخوه الأمير أبو بكر بن عبد الحق⁽²⁾.

تمكن المرينيون في عهد أميرهم أبي بكر من السيطرة على مكناسة سنة (643هـ / 1245م) بعد أن انحاز إليهم واليها على بن أبي العافية، ولما كانت سنة (645هـ / 1247م) تقدم السعيد لاسترجاع فاس فتراجع بنو مرين أمامه باتجاه منطقة تازا والريف، شعورا منهم بعدم القدرة على مواجهة قوته، فعادت مكناسة إلى الموحدين، كما أرسل الأمير أبو بكر ببيعته إلى الخليفة السعيد، وأرسل له خمسمائة مقاتل من بني مرين تأكيذا لولائهم⁽³⁾.

استطاع المرينيون إخضاع فاس في سنة (646هـ / 1248م) أي بعد أن لقي الخليفة السعيد مصرعه على يد بني عبد الواد، ولم تستقر الأوضاع فيها حتى سنة (648هـ / 1250م)، عندما تمكن المرينيون من تصفية العناصر الموالية للموحدين الذين تأمروا عليهم عند فتحها أول الأمر⁽⁴⁾.

(1) الناصري: الاستقصا، 3 / 10.

(2) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 62-63. وذكر في الأنيس المطرب أن هذه الواقعة جرت بالقرب من موضع يدعى صخرة أبي بياش: 290. وجاراه في القول الناصري الذي أضاف إلى أن قوة الموحدين كانت عشرين ألف مقاتل: الاستقصا، 3 / 11.

(3) ابن عذارى: البيان المغرب، 70 وق 3 / 376-378. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 70 و 71 و 292-293.

(4) بعد دخوله في سنة 646هـ - 1248م إلى فاس عين السعود بن خرباش واليا عليها، ثم نهض لفتح مواطن أخرى، وسرعان ما انتقل أهل فاس إلى الموحدين، وقتلوا الوالي المريني: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 294-296. الذخيرة السنية، 74-75، 77-78. وذكر ابن

استطاع الأمير أبو بكر السيطرة على سلا ورباط الفتح في سنة (649هـ/ 1251م)، غير أن الخليفة المرتضى الموحدي عزم على استرجاع المدن التي سقطت بيد المرينين، فجهز خطة عسكرية سنة (653هـ/ 1255م) تقدر بحوالي ثمانين ألف مقاتل فالتقى بالمرينين عند احواز فاس في موضع يدعى بني بهلول وانتهت المعركة بهزيمته، وكانت من المعارك التي شجعت المرينين على السيطرة على بلاد تاوولا وسجلهاصة ودرعة التي سقطت في قبضتهم سنة (655هـ/ 1257م)⁽¹⁾.

توفي الأمير المريني سنة 656هـ/ 1258م فأعطيت البيعة لابنه عمر في حين فضل أشياخ بني مرين عمه يعقوب بن عبد الحق الذي وصل إلى فاس، بعد أن كان في تازا، فتمت له البيعة بعد أن قضى ابن أخيه أشهراً قليلة فيها⁽²⁾.

وعرف عن الأمير يعقوب بن عبد الحق انه «لم تهزم له قط راية ولم يكسر له جيش ولم يغز عدواً إلا قهره ولا لقي جيشاً إلا هزمه ودمره ولا قصد بلداً إلا فتحه»⁽³⁾. وتمكن في سنة 658هـ- 1259م من إخضاع انفا (الدار البيضاء) وتامسنا، وفي السنة نفسها أدرك المرتضى الموحدي تعاضم أمر المرينين فلم يجد بداً من مهادنتهم، فأرسل هدية إلى الأمير يعقوب، وطلب عقد صلح بينهما على أن يكون وادي أم الربيع الحد الفاصل بينهما، إلا أن ذلك كان أشبه بهدنة أرادها المرتضى

عذارى: أن رجوع فاس إلى طاعة المرينين كانت في سنة (647هـ/ 1249م): البيان المغرب ق 3/ 399.

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 296، ابن عذارى، البيان المغرب، ق 3/ 410-413. ابن خلدون: العبر: 6/ 59.

(2) ابن عذارى: البيان المغرب، ق 3/ 420-421. ابن عذارى: العبر، 7/ 177.

(3) ابن زرع: الأنيس المطرب: 298، نقلها عن ابن الأحمر: روضة السرين، 19.

استعدادا لمجابهتهم، وفعلا قامت بينهما في سنة 659هـ - 1250م موقعة أم الرجلين التي انتهت بهزيمة المرتضى⁽¹⁾.

أما في سنة 660هـ - 1261م فقد توجه الأمير يعقوب قاصدا مراكش فتصدت قوات المرتضى بقيادة إدريس الملقب بأبي دبوس، فاشتبكت القوتان، إلا أن القوات المرينية انسحبت على أثر مقتل الأمير عبد الله بن يعقوب، وكان الخليفة المرتضى قد أدرك خطورة هذا الأمر، فأرسل تعزيزة للأمير يعقوب، وتعهد له بدفع ضريبة سنوية، على أن تحل الخلافات بينهم، إلا أن الأمير المريني لم يوافق على ذلك وذلك لأن حلم السيطرة على مراكش مازال يراوده⁽²⁾.

هرب قائد الجند الموحد أبو دبوس إلى الأمير يعقوب بن عبد الحق لوشاية وصلت أسماع المرتضى، وطلب منه أن يعينه على المرتضى مقابل إعطاء الأمير يعقوب نصف الأراضي التي يسيطر عليها، فكتب الأمير يعقوب بن عبد الحق إلى القبائل العربية وهسكورة يطلب منه مؤازرته⁽³⁾.

قام المرتضى باعتقال شيخي قبيلتي بني سفيان وجابر، فأثار ذلك استياء ضده، بينما عزز ذلك من دور أبي دبوس الذي تمكن من اقتحام مراكش، في الوقت الذي هرب فيه المرتضى، والتجأ إلى صهره ابن عطوش والي ازموار الذي أرسله مكبلا إلى أبي دبوس فتمكن من قتله في صفر من سنة 655هـ / تشرين الثاني 1266م⁽⁴⁾.

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، ق/3 / 433. ابن أبي زرع: الأنيس المطرب 301-302. الذخيرة السنية، 95-96. الناصري: الاستقصا، 3/ 24.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 303-304. ابن عذاري: البيان المغرب، ق/3 / 440.

(3) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 109.

(4) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 110. ابن عذاري: البيان المغرب ق/3 / 446-451. ابن خلدون: المعبر، 6/ 260-261.

لم يف أبو دبوس بالعهد الذي قطعه على نفسه للأمير يعقوب فتقدم الأمير إلى مراكش، فاتجه أبو دبوس بأنظاره إلى يغمراس بن زيان طالبا نصرته، فاضطر الأمير يعقوب إلى مواجهة الأخير في وادي تلاغ سنة (666هـ / 1267م) فكانت الدائرة على يغمراس بينما عاد الأمير يعقوب بسحبه بعيدا عن العاصمة مراكش، وما أن وصل إلى وادي غفو حتى كر راجعا، وشعر أبو دبوس بضعفه أمام المرينين فحاول الهرب إلا أنه لم ينج من قبضة المرينين، فقتل في ميدان الحرب، وانتهت به دولة المرينين⁽¹⁾.

ثانياً: تولي أبي الحسن علي بن عثمان الحكم المريني:

1- نشأته:

هو علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، يكنى بأبي الحسن، كما يعرف بـ «أمير المسلمين» وهو اللقب الذي غلب على سلاطين بني مرين، منذ أن تولى مؤسس دولتهم يعقوب بن عبد الحق، كما عرف بالأكحل⁽²⁾.

ولد بتفريديون في صفر عام 697هـ / تشرين الثاني 1297م⁽³⁾، وكان منذ نشأته متميزاً عن أقرانه، ملازماً لمسجد المقدسي بالعباد السلفي يواظب على الصلاة، ويستمتع لمن يقرأ فيه، وقد تربى على مبادئ دينية وأخلاقية سليمة⁽⁴⁾، وقيل عنه أنه كان من شدة تقواه وخوفه من الله يبكي كلما قرأ القرآن بين يديه⁽⁵⁾.

(1) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب، 304-307، الذخيرة السنية، 115-117. مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، 169-171.

(2) ابن الأحمر: النفحة النسرينية، ورقة 32. الناصري: استقصاء، 3/ 11.

(3) ابن مرزوق: روضة النسرین، 25.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 127-128.

(5) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 223 و168.

أما عدله فقد وصفه أحدهم بأنه «عدل من رأى من الملوك في هذه الإغصار»⁽¹⁾، وأضاف آخر أنه «آخر ملوك العدل نشأة»⁽²⁾، وليس أدل من عمق هذا الوصف الذي نعت به ابن مرزوق حيث قال «كان أمامنا.. أشد الأئمة مسارعة لحسنة يديها ولسيئة يمحو أثرها، فقامت السنن في مدته على ساق، وذهبت آثار البدع ولم يبق لها انتظام ولا اتساق»⁽³⁾، وأضاف آخر عن تقاليد يومية اتبعها السلطان في جلوسه للمظالم ووصفه بأنه كان يجلس في قبة معلومة والأشياخ من حوله يتقلدون سيوفهم، فيحضر الشاكي، فيصيح من بعيد: «لا اله إلا الله انصرتي نصرك الله» عندما تؤخذ قصته، فإذا عاد إلى قصره، تدارسها مع كاتب السر، وبت فيها⁽⁴⁾.

ومن دراستنا للبيئة التي عاش فيها السلطان أبو الحسن، يتضح لنا أنه عرف وعاصر مجموعة من العلماء الذين اغنوا الحياة العلمية في المغرب آنذاك، ويكفي أن نتعرف على مجلس أبيه الذي كان يضم أمثال القاضي أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن المليبي، والرحالة أبي عبد الله بن رشيد الفهري، والأديب أبي محمد عبد المهيمن بن الإمام أبي عبد الله الحضرمي، وأبي عبد الله بن مدين⁽⁵⁾، وهذا بطبيعة الحال لا يعني أن السلطان أبا الحسن قد استقى ثقافته من هؤلاء فقط وإنما عنيينا بذكرهم لدورهم في مجالس المرينيين في حكم أبيه، على أن مجلس أبيه كان أيضاً يضم أدباء وعلماء كان لهم - بلا شك - الفضل في بناء شخصية السلطان أبي الحسن الثقافية والدينية.

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 141: وقال ابن الأحرر في حقه: صلاحه وفضله مذكور وفعله بين الوري مذكور النفعة التبرينية، ورقة 12.

(2) نفاضة الجراب، ق 2/49.

(3) المسند الصحيح، 282.

(4) العمري: وصف المغرب أيام السلطان أبي الحسن، 306-307.

(5) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 118-119.

ويكفي لذلك أن نرى مقدار اهتمام والده وأجداده بمراكز العلم والمدارس وتوفير عناصر ديمومتها، خدمة لطالبي العلم، وتشجيعا للعلماء لنعرف بالنتيجة كما هي ثقافة أبي الحسن المتنوعة، التي امتلكها بسبب حضور العلماء الذين قصدوا دولتهم ومن أماكن مختلفة.

ومهما يكن من أمر، فإن المعلومات المتوفرة عن شخصية أبي الحسن فيما يتعلق بالذين أشرفوا على نماء ثقافته قليلة، غير أن بعض المصادر التاريخية تشير إلى أنه كان أحد أطباء أبيه⁽¹⁾، في حين وصفه بعضهم أن له معرفة في الشعر ومن قوله:

وارضي الله في سر وجهري واحمي العرض على دنس ارتياب
وأعطي الوفير من مالي اختيارا واضرب بالسيوف طلي الرقاب⁽²⁾

أما مجلسه فقد كان زاخرا بالعلماء، الذين اصطفاهم لنفسه، وزين حياته بهم، حتى صاروا سمة له، حيث «.. كان.. ابر الناس بأهل العلم واعرفهم بقدرهم، أستخلصهم لنفسه وجمعهم من سائر بلاده في حضرته، وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا»⁽³⁾.

ولتنوع العلماء في اختصاصاتهم، يمكن أن نضع أيدينا على بعض معالم ثقافته من خلال الكتب الدينية والعلوم التي كان يفضل قراءتها في مجلسه، بيد أننا سنكتفي بذكر القليل مما كان يرغب في دراسته، فقد قرأ صحيح البخاري مرات وصحيح مسلم والسير، والاكتفاء لأبي الربيع، وسراج الملوك والفرج بعد الشدة، وفتوح الشام، والحلية لأبي نعيم⁽⁴⁾.

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 396.

(2) ابن الأهر: روضة السرين، 26. الناصري: الاستقصا، 3/ 177.

(3) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 260.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 138.

لم يتجاهل المؤرخون قدر أبي الحسن، وأثره في ازدهار الدولة المرينية في السياسة والعلم والميادين الأخرى، فقد قال أحدهم في معرض حديثه عن دوره بين سلاطين دولته بأنه: «فخرها وواسطة عقدها ومشيد منار مجدها»⁽¹⁾، وتحدث ابن حجر قائلًا بأنه: «كامل السؤدد، شديد المهابة»⁽²⁾، ووصفه أحد المؤرخين الغربيين بأنه «أقوى ملك في القرن الرابع عشر الميلادي»⁽³⁾.

والواقع أن تلك الصفات التي تمتع بها كمقاتل شجاع ورجل سياسة متميز، ورغبته العلمية في أن يكون فقيها متميزا بين الفقهاء وأديبا بين الأدباء، كانت عاملا جوهريا في نجاحه على الأصعدة كافة، وأبرزها سعة دولته التي احتوت حدود الإمبراطورية الموحدية في المغرب العربي وإن كان ذلك لفترة قصيرة⁽⁴⁾.

2- ولايته للعهد المريني:

لم يتسلم ولاية العهد أول حكم أبيه وذلك لأنها كانت لأخيه عمر الذي كان بالنسبة لأبيه «أثرها لديه، وأعلقها بقلبه منذ نشأ» وحدث في سنة (714هـ/ 1314م) أن استقرار والده في تازا بعد الحملة التي أرسلها إلى عاصمة بني عبد الواد، فأرسل ولديه علي وعمر إلى فاس، إلا أن الأمير عمر فكر بالاستبداد فأعلن ذلك، مما أدى إلى نشوب معركة بينهما انتهت بهزيمة والده، وترتب عليها، إرغام والده أن يكون واليا على تازا وجهاتها في حين ظل هو سلطانا على فاس بعد أن بايعه المرينيون، إلا أنه لم يوفق بها وذلك لمرضه، فبايع المرينيون والده، وعفا عنه، وأرسله

(1) ابن زيدان: إتحاف إعلام الناس بجمال حاضره مكناس، 1/ 119.

(2) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 3/ 157.

(3) Charles - Ander Julieh , History of North Africa , (London, 1970), p., 188.

(4) B.A. Benche Kroun, La Via Intellectuelle Marocaine (Rapap). (1974). P.P. 37-38

واليا على سجلهامة، ولقب الأمير أبا الحسن وليا للعهد بدله، ومنحه ما كان يتمتع به أخوه الأمير عمر قبله من «تفويض الاستقلال واذن له في اتخاذ الوزراء والكتاب ووضع له العلامة على كتبه وسائر ما كان لأخيه»⁽¹⁾.

3- بيعته:

واستمر الأمير أبو الحسن وليا للعهد حتى وفاة أبيه في وادي سبو ليلة الجمعة الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة 731هـ / 30 آب 1331م⁽²⁾، فبيع بعد الانتهاء من مراسيم دفن والده⁽³⁾.

ثالثاً: سياسته في توحيد المغرب العربي:

1- ضم سجلهامة:

اتبع السلطان أبو الحسن المريني في بناء دولته على عدد من المحاور التي كان في مقدماتها، توحيد أجزاء المغرب العربي، وعلى الرغم من جسامه هذا الأمر إلا أن ذلك لم يتنه من الجوانب الأخرى التي كانت قد تشكلت في العهد الذي سبقه وإنما كان عهده يمثل عطاءها، وثمار حركتها الدؤوبة التي تزايدت في عهده، حتى صارت نموذجاً لازدهار المريني على مختلف المستويات.

(1) ابن خلدون: العبر، 7/ 243-244. الناصري: الاستقصا، 3/ 105-107، وللمزيد ينظر: ابن حجر، الدرر الكامنة، 3/ 251، ويجدر بالإشارة إلى أن مؤلف الأنيس المطرب تجاهل الأحداث التي جرت بين السلطان أبي سعيد وولده عمر، على الرغم من أنه انتهى بحوادثه إلى سنة 726هـ-1325م.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 123. ابن الأحرر: روضة السرين، 24. الناصري: الاستقصا، 3/ 118.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 252-253. المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، ج 20 ق 2 327. الذهبي: الذيل على العبر، 1/ 168.

وكان أول الخطوات في توحيد المغرب العربي، ضمه لسجلماسة التي كان قد استقل بها أخوه الأمير عمر في عهد أبيه، وتجاوز على البلاد المجاورة له وعيث بها في عهد أخيه السلطان أبي الحسن، وزيادة في الإساءة قام بعقد الاتفاق السياسي مع أبي تاشفين⁽¹⁾. في تلمسان للقضاء على السلطان أبي الحسن⁽²⁾.

وبينما كان أبو الحسن ينتظر السلطان الحفصي، استغل الأمير عمر انشغاله ذلك فاتجه إلى درعة⁽³⁾. وقتل عاملها، متقدماً إلى مراکش، الأمر الذي أغضب السلطان ابن الحسن، فقرر معاقبته، وخاصة بعد أن تأكد من أمر تحالفه مع حاكم تلمسان، ولأنه أيضاً نكث بالعهد الذي أعطاه للسلطان أبي الحسن عند توليه على سجلماسة⁽⁴⁾.

فضل السلطان إزاء هذا العمل أن يسوى أمره مع أخيه، فأرسل ولده تاشفين الذي استقر في تاويرت⁽⁵⁾، مع قواه، بينما توجه أبو الحسن إلى سجلماسة وفي محاولة من السلطان أبي تاشفين لإنقاذ الأمير عمر، تقدم من تلمسان باتجاه سجلماسة، إلا

(1) هو عبد الرحمن بن موسى بن عثمان بن يعمراس بن زيان يلقب بابي تاشفين حكم دولة بني عبد الواد في تلمسان منذ سنة (718هـ / 1318م) ولغاية (737هـ / 1336م) للمزيد ينظر المقرئزي: السلوك، ح 2/ 424. ابن حجر: الدرر الكامنة، 2/ 457. ابن الخطيب: اللوحة البدرية في أخبار الدولة النصرية، 106. الياقعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان، 4/ 296.

(2) الناصري: الاستقصا، 3/ 119. البزوي: دول الإسلام بالمغرب الأقصى، ورقة 94.

(3) درعة: مدينة تجارية مهمة، عرفت بواديهما الذي يجري فيه نهر يصب من الشرق إلى الغرب، للمزيد ينظر: الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، 175.

(4) ابن خلدون: العبر، 7/ 253.

(5) تاويرت: مدينة قديمة بناها الأفارقة فوق نهر على زاع، كانت محط أنظار الدولتين المرينية والعبداوية لوقوعها بينهما، وقد تعاقبا على حكمها عشر مرات في خمسين سنة حتى خرجت في سنة 780هـ / 1378م للمزيد ينظر الوزان: وصف إفريقيا، 352-353.

انه فوجئ بالقوات المرينية المتحصنة في حصن تاويريرت، حيث تمكنت من إفشال هجومه، وأجبرته على مغادرة الأراضي المرينية، بينما تمكنت الجيوش المرينية المحاصرة لسجلماسة من اقتحامها بعد سنة كاملة، فدخلها السلطان أبو الحسن في 19 محرم سنة 734هـ / 30 ايلول 1331م، أما الأمير عمر فقد لقي مصرعه بعد أشهر من سجنه، وبذلك يضع السلطان أبو الحسن يده على أول مرحلة في توحيد المغرب العربي، على أن الذي لا بد من ذكره أن هذه المدينة ظلت مستقلة ولفترة تقارب العشرين سنة عن الدولة المرينية في المغرب الأقصى قبل ضمها من قبل السلطان أبي الحسن المريني⁽¹⁾.

2- ضم دولة بني عبد الواد في تلمسان:

ظلت حدود دولة بني عبد الواد بين مد وجزر، نتيجة لتوسطها ما بين الدولتين المرينية والحفصية، إذ أن توسعها في جهة ما أو انحسارها يعتمد بالدرجة الأساسية على ضعف أو قوة الدولة المجاورة، لذلك بقيت حدودها السياسية غير ثابتة، وعلى كل حال فقد كان البحر الأبيض المتوسط يحدها من الشمال إلى صحراء الجزائر جنوبا أو من الشرق جبال سعيدة ووادي منية إلى وادي ملوية ومدينة وجدة غربا⁽²⁾.

ولم تكن العلاقة بين الدولة المرينية وبني عبد الواد في تلمسان منذ قيام الأخيرة في سنة 633هـ - 1235م سليمة⁽³⁾، وذلك بسبب نيات التوسع التي تسيطر على

(1) ابن خلدون: العبر، 7/ 254. الناصري: الاستقصا، 3/ 120.

(2) ابن خلدون: العبر، 7/ 27 وما بعدها. الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء،

5/ 149. الفردبيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي 310. العبادي: دراسات في تاريخ

المغرب والأندلس، 198. أبو ضيف: أثر القبائل العربية في الحياة المغربية، 145.

(3) بويج في شهر ذي القعدة، عدة سنة 633هـ - حزيران 1236م يغمراسن بن زيان على أثر

وفاة أخيه، وعدت هذه السنة بداية لتأسيس دولة بني زيان في تلمسان، للمزيد ينظر: ابن

زعماء الدولتين، أما الذي يمكن ذكره وخاصة على صعيد أبرز المعارك التي اشتعلت بينهما، فموقعة وادي تلاغ سنة 666هـ - 1227م⁽¹⁾، وإيسلي (قرب وجدة) سنة 670هـ - 1271م⁽²⁾، التي تمكن من خلالها المرينيون تحطيم وجدة ومحاصرة تلمسان، وكذلك موقعة خروونة في سنة 679هـ - 1280م⁽³⁾، والحصار⁽⁴⁾، الذي فرضه السلطان يوسف بن يعقوب المريني واستمر على عاصمتهم تلمسان مدة ثمان سنين وثلاثة أشهر وخمسة أيام⁽⁵⁾.

وإزاء هذا العداء القديم صارت تلمسان مقرا للهاربين من طاعة المرينيين بل أن حكامها اذكوا في نفوس البعض حب الثورة والتمرد على الدولة المرينية، ففي العهد الذي تولى فيه السلطان المريني عثمان بن يعقوب (710-731هـ / 1310-1331م) هرب أخوه يعيش إلى تلمسان، ولما طلب منهم إرجاعه، رفضوا طلبه فجهز حملة عسكرية في سنة 714هـ - 1314م فاجتاح أراضيهم حتى وصل إلى

خلدون: بغية الرواد، 1/ 110-111.

(1) ابن خلدون: العبر، 7/ 180.

(2) ابن خلدون: العبر، 7/ 184-185. الناصري: الاستقصا، 3/ 31-33.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 204.

(4) وصف ابن خلدون الحال الذي كان عليه أهالي تلمسان في أثناء الحصار الذي فرضه السلطان يوسف المريني، وذكر بأنهم من شدة الجوع أكلوا القلط والفران وأجساد الموتى، أما الأسعار فقد ارتفعت فمثلا بلغ مكيال القمح «البرشالة» اثني عشر رطلا ونصفا من الذهب وكان الرأس الواحد من البقر بستين مثقالا ومن الضأن بسبعة مثاقيل، أما الفار والحية فب عشرة دراهم والدجاجة بثلاثين درهم، وللمزيد عن هذا الحصار وظروف أهالي تلمسان ينظر العبر: 7/ 95-196.

(5) ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 124، وأضاف إلى أن عدد الموتى في هذا الحصار بلغ من القتل والجوع زهاء مائة وعشرين ألفا: 1/ 125.

أسوار العاصمة بعد أن أباد قراها ومزارعها⁽¹⁾، وتكرر اللجوء ثانية إلى تلمسان عندما قام أولاد الأمير عمر بن عثمان المريني في سنة 722هـ - 1322م يطلبون نصرة والدهم على أبيه فاستجاب السلطان العبد وادي إلى دعوتهم، وأرسل جيشا اجتاح قسما من مدن المرينين وفي مقدمتها مدينة جارت.

وعلى أية حال فإن مناصرة الخارجيين عن طاعة دولهم من قبل دولة بني عبد الواد كانت وراءه رغبة الأخيرة في إيجاد الفرصة المناسبة للتوسع على الدولتين⁽²⁾. ولم يكن الانتصار العسكري الذي حققه العبد واديون على الحفصيين حلفاء المرينين في سنة 729هـ - 1328م إلا تعميقا في إثارة النفوس وإشعالا لنار الحرب والوعيد بين بني عبد الواد والمرينين، وهذا ما دفع السلطان أبو سعيد عثمان إلى تقديم الرجاء لبني عبد الواد من أجل إعادة المدن الحفصية إلى أصحابها تلك التي سيطروا عليها في المعارك الأخيرة التي جرت فيما بينهما⁽³⁾.

وسار السلطان أبو الحسن على نهج أبيه في إغاثة بني حفص، وجدد إليهم رسوله، طالبا من السلطان أبي تاشفين، التوقف عن قتال الحفصيين، وإرجاع مدتهم ولو مدة عام، غير أن جواب السلطان العبد وادي كان قاسيا، بل انه سمح لخدمه، بالتجاوز على سفير السلطان أبي الحسن⁽⁴⁾، بينما أشار مؤلف المسند الصحيح إلى أن السلطان المريني أبا الحسن كان قد توعد أبا تاشفين شرا في حالة عدم استجابته لرغبة السلطان أبي الحسن، وبالتالي سيتهي الأمر إلى الحركة إلى بلاده⁽⁵⁾.

(1) ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 128. ابن خلدون: العبر، 7/ 242. حركات: المغرب عبر التاريخ، 1/ 40.

(2) للمزيد عن هذا الموضوع، ينظر ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 136-139.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 251. الجليلي: تاريخ الجزائر العام، 2/ 161.

(4) ابن خلدون: العبر، 7/ 251.

(5) ابن مرزوق، 12.

وبرأينا أن طلبه من بني عبد الواد بالكف عن الحفصيين ولو مدة عام، إنما كان ذلك هدنة أرادها السلطان أبو الحسن لإنجاز مهمات ليست باليسيرة، ولا سيما تحرير جبل طارق، وضم سجلماسة وهذا هو ما حدث فعلا فإنه لم يقدم على ضم تلمسان إلا بعد أن أنجز هاتين المهمتين الجسيمتين⁽¹⁾.

أمر السلطان أبو الحسن أسطوله البحري بالتوجه إلى بجاية لمضايقة بني عبد الواد بعد أن عقد قيادته للقائد محمد البطوي، ثم تحرك في سنة 735 هـ - 1334 م إلى تلمسان فافتتح وجدة وندرومة وهنين وتاسالة ووهران ثم توجه إلى تلمسان، حيث أعاد بناء المنصورة التي خربها العبدواديون⁽²⁾، وكى يسهل على جنده مهمة الوصول إلى العاصمة صنع أبراجا متدرجة للتقرب من أسوارها، كما استخدم المجانيق لدكها، وبحلول يوم 27 رمضان سنة 737 هـ / 29 نيسان 1337 م دخلت القوات المرينية إلى تلمسان عنوة بعد أن دام الحصار أكثر من ستين⁽³⁾.

وهكذا سقطت عاصمة بني عبد الواد التي عجز عنها سلاطين الدولة المرينية وفي ذلك يقول ابن الخطيب «واستولى السلطان صاحب المغرب الأقصى على تلك الإمارة المؤتلة بما اشتملت عليه من نفيس الحلي، وثمان الذخيرة، وفاخر المتاع، وخطير العدة، وبديع الآنية، وضروب الرقيق⁽⁴⁾، وأصلح السلطان أبو الحسن أحوال المدينة بعد دخوله، وأوقف أعمال النهب والسرقة التي نتجت بسبب المعارك

(1) ابن خلدون: العبر، 7/ 256. الناصري: الاستقصا، 3/ 123-124.

(2) المنصورة: المدينة التي بناها عمه يوسف بن يعقوب في أثناء حصاره لتلمسان: ينظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 387.

(3) تعرض: السلطان أبو الحسن في فترة الحصار إلى محاولة اغتيال من قبل بني عبد الواد لولا تدارك الأمر من قبل فرسان بني مرين، للمزيد ينظر ابن خلدون: العبر، 7/ 257. ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 141-143. البزوي: دول الإسلام، ورقة 95.

(4) الحيلالي: تاريخ الجزائر العام، 2/ 162.

وفقدان الأمن، ورعى أحوال بني عبد الواد، قال ابن خلدون «وفرض لهم العطاء واستبعمهم على راياتهم ومراكزهم» و«فرق بعض أمرائهم في أماكن مختلفة من البلاد، وأضاف «واتسع نطاق ملكه وأصبح ملك زنانة بعد أن كان ملك بني مرين وسلطان العدوتين بعد أن كان سلطان المغرب»⁽¹⁾.

3- ضم الدولة الحفصية في تونس:

منذ أن قامت الدولة المرينية وعلاقتها تزداد، بل وتعمق مع الحفصيين لأسباب عديدة في مقدمتها الخطر المستمر على الدولتين من قبل حكام المغرب الأوسط، وبطبيعة الحال فقد اتسمت هذه العلاقة بالحرص على مساندة بعضهما، بغية إضعاف بني عبد الواد.

وعلى ضوء ذلك، استمرت السفارات بينهما، وتبادلا الهدايا في مختلف المناسبات⁽²⁾، وشهدت العلاقات المرينية - الحفصية تطورا واضحا، بل انتقلت إلى مرحلة مهمة تمثلت بالمصاهرة فيما بينهما، فبعد أن حضرت السفارة الحفصية العاصمة فاس - بعد موقعة الرياس -⁽³⁾، التي ترأسها الأمير أبو زكريا ووزير

(1) العبر، 7/ 258. الناصري: الاستقصا، 3/ 126، ويجدر بالذكر أن عدد الجيش المريني بلغ على ضوء ما ورد نقلا عن مسالك الأبصار للعمري مائة وأربعين ألفا، وهذه رواية ابن جزار، أما اعتماد العمري على ما ثبت في سجل الجند فهو لا يزيد عن أربعين ألف فارس، من غير الجند المسئولين عن المدن والسواحل، ينظر القلقشندي: صبح الأعشى، 5/ 209. أما عن تكوين الجند المريني فقد كانت عناصره النظامية من بني مرين: القبائل العربية، الغز، الأتراك، الأندلسيين، الماليك من أصل سوداني، الأعلاج، القشتاليين، وللمزيد عن هؤلاء ينظر المنوي ورفقات عن الحضارة المغربية، 70-76.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 386-387 و403.

(3) الرياس: موضع بالقرب من هواة، قامت فيه معركة في سنة 729هـ - 1328م بين الحفصيين وبين عبد الواد، انتصر البدواويون فيها. للمزيد ينظر: ابن خلدون: العبر،

الدولة الحفصية أبو محمد عبدالله بن تافراجين حيث وقعوا معاهدة ضد آل زيان مع السلطان المريني فبادر السلطان الحفصي في خطبة ابنته الحرة فاطمة لولي عهده آنذاك ابنه أبي الحسن، على أن المؤرخ ابن خلدون يشير إلى أن الرغبة المرينية في المصاهرة مع الحفصيين قد سبقت سنة 730هـ - 1329م عندما أرسل السلطان أبو سعيد قائده البحري يحيى الرنداحي إلى تونس في سنة 721هـ - 1321م ولكن انشغال الدولة المرينية بأوضاعها الداخلية أعاقها عن تحقيق ذلك، حتى كانت سنة 731هـ - 1330م عندما وصلت إلى الدولة المرينية شخصيات مهمة من كبار الدولة الحفصية يرافقون ابنة السلطان الحفصي⁽¹⁾.

وتجدد المصاهرة ثانية بين السلطان الحفصي أبي بكر والسلطان المريني أبي الحسن، وذلك لمقتل الأميرة فاطمة في واقعة طريف، وكانت أيضاً هذه السفارة المرينية قد وصلت العاصمة تونس في سنة 746هـ - 1345م وتم عقد القران على عزونة ابنة السلطان أبي بكر الحفصي أيضاً، وتقديراً لهذا توجهت سفارة حفصية كان فيها الأمير الفضل صاحب بونة ابن السلطان الحفصي عن طريق البر في جمادى الثاني من سنة 747هـ - أيلول 1346م⁽²⁾.

على أن العلاقات المرينية - الحفصية تغير حالها، وسادها التوتر على أثر وفاة السلطان الحفصي أبي بكر في رجب سنة 747هـ تشرين الأول 1346م⁽³⁾، والسبب

340 / 6.

(1) العبر، 340 / 6 - 341. الناصري: الاستقصا، 3 / 117، وتجدر الإشارة إلى أن مؤلف بغية الرواديشير أن سفارة الحفصيين سنة 730هـ عرضت على السلطان المريني المصاهرة،

139 / 1.

(2) الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، 78.

(3) ابن قنط: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، 968. ابن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان،

1973 / 1.

في ذلك يعود إلى مؤامرة الأمير عمر بن السلطان الحفصي الذي أعلن البيعة لنفسه وتجاهل أخاه ولي العهد ولقب نفسه بالناصر، بعد أن قتل أخاه الآخر في العاصمة⁽¹⁾.

علم ولي العهد الحفصي بما حصل بعد وفاة أبيه، فاتجه في شعبان من السنة نفسها لاسترداد مركزه، وقبل أن تشتبك القوتان، هرب الوزير الحفصي ابن تافراجين⁽²⁾، وتخلّى عن الأمير عمر، بينما لحق القسم الأكبر من قوات الأمير عمر بأخيه أحمد ولي العهد، فشعر الأمير عمر بعدم قدرته على المواجهة، فهرب إلى مدينة باجة، بينما دخل الأمير أحمد إلى العاصمة، وأعلن نفسه سلطانا على البلاد، غير أن فوجي في اليوم الثامن من دخوله، بعودة الأمير عمر الذي تمكن من السيطرة على العاصمة، وقتل أخيه مع جملة من المقربين، ونصب نفسه سلطانا على البلاد⁽³⁾.

أن الاضطرابات السياسية التي عاشتها البلاد الحفصية كانت فرصة ثمينة ومناسبة لتحقيق حلم أبي الحسن في ضم الدولة الحفصية إلى دولته، فضلا عن وجود الوزير الحفصي ابن تافراجين الهارب إلى المرينين والذي كان بدوره يبحث على ضمها⁽⁴⁾.

(1) الزركشي: تاريخ الدولتين، 80. السراج: الحلل السندسية في الأخبار التونسية، ح1 ق4/1052.

(2) الوزير الحفصي الذي كان سببا في حدوث الفتنة بين أولاد السلطان أبي بكر، حيث أنه أعلن البيعة للأمير عمر مباشرة وقبل دفن والده، بينما كان السلطان قد منحها لولده أحمد، إضافة إلى ذلك فقد كان الوزير الحفصي ابن تافراجين من المرغين لأبي الحسن في ضم تونس إلى الدولة المرينية للمزيد، ينظر ابن خلدون: العبر، 6/255-256. ابن قنفذ: الفارسية، 168-169.

(3) الزركشي: تاريخ الدولتين، 81. ابن أبي الدينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، 144-145.

(4) كان السلطان أبو الحسن قد وقع وشهد على بيعة الأمير أحمد، ولما اغتصبها الأمير عمر وقتله عد ذلك إساءة له، للمزيد ينظر، ابن خلدون: العبر، 6/356-357.

انطلق الجيش المريني في صفر سنة 748هـ - أيار 1347م معتمداً في تقدمه على أرضاء من بايعه عن طريق منح الولاية التي كان يحكمها أو تعويضه بأخرى، كما تسلم مدينتي بجاية وقسنطينة، وفي باجة تسلم رأس الأمير عمر الحفصي، كما تم السيطرة على الشخصيات السياسية البارزة في الدولة الحفصية، ثم دخل سنة 748هـ - 1347م العاصمة تونس في موكب رسمي رائع، واستقبل بحفاوة وتكريم⁽¹⁾.

وهكذا تمكنت الدولة المرينية أن تعيد للمغرب العربي وحدته، فكانت حدودها من مصراته⁽²⁾، إلى السوس الأقصى في المغرب الأقصى وإلى رندة في الأندلس، وذكر ابن مرزوق أن دولة أبي الحسن امتدت من «آخر المعمور بالمغرب إلى حدود برقة»⁽³⁾.

رابعاً: نهاية عهد السلطان أبي الحسن:

سعى السلطان أبو الحسن إلى تنظيم شؤون البلاد وتحسين أحوالها، وسيادة الأمن في أرجائها، بخاصة وإن البلاد تعيش أوضاعاً سيئة وبالذات في تصرف قبيلة سليم وبقايا الهلالين القاطنين في القيروان، وما فيما يتعلق بقطاعات الضواحي والأمصار التي يمكن أن تساهم في إنجاح مقاصد الاستقلال الذاتي أو تأسيس دويلات منافسة للدولة المركزية، فقد أخذها منهم وعوض لهم بدلا عنها برواتب

(1) ابن قنفذ: الفارسية، 169 و 170 الزركشي: تاريخ الدولتين، 81-82. ابن الأحرار: النسخة السرينية ورقة 12. ويسعى بعض المؤرخين إلى وصف المرينين في ضمهم لتونس بالغزاة، ينظر:

Terrasse, Histoire du aroe. (Uasablabce, 194959).

(2) مصراته: إقليم على ساحل البحر المتوسط، يبعد عن طرابلس الغرب في ليبيا زهاء 200 كم، للمزيد ينظر الوزان: وصف إفريقيا، 483.

(3) المسند الصحيح، 447.

تصرف لهم كحال جنده، وأمرهم أيضاً بالكف عن الأتاوات التي كانوا يفرضونها على المدن الإفريقية والتي تعرف بالحقارة⁽¹⁾.

وكانت هذه الإصلاحات التي قام بها السلطان أبو الحسن سبباً في تدمير القبائل العربية التي أغارت على القطعات المرينية ومعسكراتها، حتى بلغت في اعتداءاتها ضواحي العاصمة، وفيها السلطان أبو الحسن، بل أنها تحالفت فيما بينها على تدبير مؤامرة مع بعض الحفصيين لطرده من إفريقية، فاعتقل وفدهم الذي حضر إلى مجلسه في عيد الفطر لتقديم التهنتة، فتحزبت ضده بطون هذه القبائل من أولاد أبي الليل والقوس وبني مسكين وأولاد مهلهل الفارين إلى الصحراء وبني كعب وحكيم، والتقت جموعهم بمنطقة توزر من بلاد الجريد⁽²⁾، ونصبوا ملكاً عليهم يدعى أحمد بن عثمان بن أبي دبوس⁽³⁾.

وتمكن السلطان أبو الحسن أن يلحق بهم هزيمة في الثانية⁽⁴⁾، إلا أنهم تمكنوا في المعركة الثانية من هزيمته، بعد أن تحلى عنه جنده من بني عبد الواد ومغراوة وتوجين، فاضطر إلى الانسحاب والاحتماء بمدينة القيروان في 8 محرم سنة 749 هـ - 9 نيسان 1348 م⁽⁵⁾.

(1) ابن خلدون: العبر، 7 / 273-274. الناصري: الاستقصا، 3 / 158-159.

(2) ابن خلدون: العبر، 7 / 275.

(3) أحمد بن عثمان بن أبي دبوس: هو حفيد آخر الملوك من بني عبد المؤمن بالمغرب، كان قد ولد في مصر سنة 722 هـ - 1322 م وعاد إلى المغرب للمزيد عن شخصيته. ينظر: ابن حجر: الدرر الكامنة، 1 / 211-212.

(4) سهل واقع بين العاصمة ومدنية القيروان.

(5) ابن خلدون: العبر، 7 / 275-276 ابن قنفذ: الفارسية، 170. الزركشي: تاريخ الدولتين، 84. ابن الخطيب: رقم الحلل، ورقة 287. العاضيف: تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون، 100-102. أبو ضيف: أثر القبائل العربية، 180-18.

ووصف بعضهم الحالة التي كان عليها بنو عبد الواد تحت جناح الدولة المرينية قائلا «فمضت الأيام وهي بين بني مرين لب نحمود وصارم مغمود والأكباد تنفطر غيرة والقلوب تحترق حنقا فالعيون شازرة والألسن هامسة إلا أن الصبر مستشعر والخضوع والتسليم مستظهران للظفر»⁽¹⁾.

وعلى كل حال، فما أن شاع خبر هزيمته حتى بدت الأمور، وكأن الأوضاع كلها قد أصبحت ضده، فعلى صعيد البلاد الحفصية، هرب الوزير ابن تافراجين إلى صفوف القبائل التي كانت تحاصره في القيروان⁽²⁾، بينما ثارت قسنطينة بوجه القوة الموجودة فيها وتمكن الفضل من دخولها في محرم سنة 749هـ / نيسان 1348م وكذلك الحال في بجاية التي رجعت إليه بعد ثلاثة أشهر من أقامته في قسنطينة، أما العاصمة الحفصية فقد أظهرت رغبتها في استقبال الفضل بعد أن حاصرت القوة المرينية الموجودة فيها، تلك التي كان قد تركها أبو الحسن حين قصد المغرب الأقصى⁽³⁾.

أما حال القبائل النائرة بوجه السلطان أبي الحسن فقد استجاب أولاد مهلهل وحكيم لعقد صلح مع السلطان لقاء مبلغ كبير من المال، في حين سارع قتيبة بن حمزة مؤكدا الطاعة له، مقابل إطلاق سراح أخويه بل تحسن حال أبي الحسن مع بني حمزة عندما اعتقلوا السلطان الجديد أحمد بن أبي دهبوس وقدموه له⁽⁴⁾، فعفا عنه وأرسل إلى الأندلس⁽⁵⁾.

(1) ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 143-144.

(2) ابن خلدون: العبر، 6/ 360.

(3) ابن خلدون: العبر، 6/ 361-363. ابن قنفذ: القارسية، 171-173.

(4) قامت مصاهرة بين السلطان أبي الحسن وعمر بن حمزة، للمزيد ينظر: ابن خلدون، العبر،

7/ 276. الناصري: الاستقصا، 3/ 160-161.

(5) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 204-205.

من جانب آخر، فقد اضطربت أوضاع الدولة المرينية بغياب أبي الحسن، حيث أعلن ابنه الأمير أبو عنان (ت 759هـ / 1358م) نفسه سلطاناً على البلاد بعد إغرائه من قبل بني عبد الواد، ولاعتقاده بأن الأمير منصور ابن أخيه قام في المغرب الأقصى لتنصيب نفسه أيضاً، على أن هذه المأساة انتهت بمقتل الأخير بعد أن حاصره عمه في العاصمة فاس⁽¹⁾. وهذا مما سهل عودة الحكم لبني عبد الواد في المغرب الأوسط بعد انسحاب الأمير أبي عنان عنه وهزيمة أخيه الناصر في موقعة وادي ورك التي أرادها حركة تأديبية لقبائل بني عبد الواد⁽²⁾.

وعلى أية حال، فقد شعر السلطان أبو الحسن بضرورة العودة إلى المغرب، بعد أن شعر باللاجدوى من بقاءه في تونس، فركب البحر في أسطول مريني من ستمائة سفينة⁽³⁾. واتجه إلى بجاية فوجد مقاومة من أهلها ثم واصل سيره حيث هبت عاصفة هوجاء حطمت أسطوله، وقدر له أن ينجو بعد أن شاهد بعض العلماء الذين كانوا معه يحطفهم البحر وأخيراً وصل إلى مدينة الجزائر⁽⁴⁾.

وهناك في الجزائر تنفس الصعداء عندما تمكن من تشكيل قوة له من أعوانه فهاجم بني عبد الواد - الذين تمكنوا من إعادة سلطتهم في تلمسان - قرب شذبونة، فهزمت قواته، وقتل ولده الناصر، ففر إلى الصحراء حتى وصل سجلماسة وقد عزم على استرداد ملكه⁽⁵⁾.

(1) ابن خلدون: العبر، 7 / 278-280.

(2) ابن خلدون: العبر، 7 / 280-283.

(3) المقرئ: نفع الطيب، 4 / 214.

(4) الزركشي: تاريخ الدولتين، 89. البريوي: دول الإسلام، ورقة 98.

(5) ابن خلدون: العبر، 7 / 285 و286.

واصل الأمير أبو عنان ملاحقته لأبيه، واستعد الطرفان للمعركة التي قدر لها أن تجري قرب وادي أم الربيع⁽¹⁾. في موضع يعرف بتامرغوست في صفر سنة 751هـ/ نيسان 1350م وانتهت بهزيمة أبي الحسن ولولا حياء فرسان بني مرين ودفاع أمير الزواودة أبو دينار عنه لقتل في هذه المعركة، وعلى كل حال فقد توجه السلطان إلى جبل هنتانة، واستقر عدد كبير قومهم عبد العزيز بن محمد بن علي، غير أن الأمير أبا عنان، رتب المسالحي، وحاصر الجبل، وإزاء هذا الأمر لم يتحمل السلطان أبو الحسن هذه الكوارث فأرسل إلى ابنه أبي عنان يرجوه الكف وكتب له بالبيعة⁽²⁾ ولم يستغرق طويلاً حتى اعتل ومات حزينا في السابع والعشرين من ربيع الأول سنة 752هـ/ 24 مايس 1351م، وبعث أولياؤه إلى ابنه وهو في معسكره بالخبر فبكى وخرج فتلقيه حافيا وقبل اعواده، ثم نقله إلى مراکش، ودفنه في مقبرتهم في شالة⁽³⁾.

- (1) وادي أم الربيع: يبلغ طوله 500 كم، ينحدر من جبال الأطلس للمتوسط فيمر ببلاد تادلة ودكالة ويصب في المحيط الأطلسي عند مدينة أزموور، محمد الفاسي: التعريف بالمغرب، 14.
- (2) ابن خلدون: العبر، 286-287. الزركشي: تاريخ الدولتين، 190.
- (3) اختلف المؤرخون حول تاريخ وفاته، فذكروا تاريخ 13 ربيع الثاني 752هـ - 9 حزيران 1351م، المقرئزي: السلوك، ح 2 ق 3/ 858، في حين أشار آخر إلى أن وفاته كانت 23 ربيع الثاني - 19 حزيران. ابن القاضي: العبر، 7/ 287، بينما أرخ ثالث إلى أن وفاته في 27 ربيع الأول سنة 752/ 24 مايس 1351م. ابن الأحرر: روضة السرين، 25. النقحة السرينية، ورقة 32. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، ق 2/ 462. الناصري: الاستقصا، 3/ 174. ابن زيدان: إتحاف اعلام الناس، 1/ 118. وقد وجدنا أيضاً أبان زيارتنا لضريحه في شالة ما يؤيد التاريخ الثالث ونقلنا نصيح «توفي... بجبل هنتانة في ليلة الثلاثاء السابع والعشرين لشهر ربيع الأول المبارك في عام اثنين وخمسين وسبع مائة وقبر في قبلة جامع المنصور من مراکش... ثم نقل من هنالك إلى هذا الضريح المبارك من شالة».

ومهما يكن من أمر فإن عهد السلطان لم يكن مليثا بالأحداث السياسية التي جعلته يغفل عن الأنشطة العلمية والعمرانية الميادين الأخرى، بل أن هذه الأحداث وعلى الرغم من ضخامتها لم تأخذ فترات طويلة من عهده ولم تشمل مساحات واسعة من دولته وهذا يعني بطبيعة الحال أن الميادين الأخرى كانت تسير باطراد، لذلك ظل عصره يمثل مرحلة مهمة من تاريخ المغرب بصورة عامة والمريني بشكل خاص.

الفصل الثاني

الصلات السياسية الحضارية بين الدولة المرينية والممالك المجاورة

العلاقة مع بني الأحمر في غرناطة:

أ- التعاون العسكري:

شهدت العلاقات المرينية مع بني الأحمر في غرناطة⁽¹⁾، في ظل عهد السلطان أبي الحسن صلات وثيقة، واتسمت بروحية عالية في الجهاد ضد الممالك الإسبانية وخاصة قشتالة وأرغون⁽²⁾.

(1) عند قيامها في القرن السابع الهجري، كانت تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة يحدها من الشمال ولايات جيان وقرطبة واشبيلية، ومن الجنوب نهر الوادي الكبير وشاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق ومن الشرق ولاية مرسية والبحر الأبيض المتوسط ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة، أما بخصوص تسميتها فقد اختلف المؤرخون في أصلها وقد ذكرها ابن الخطيب وقدم لها شرحا وافيا، ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 99-111، الحميري: صفة جزيرة الأندلس، 23-24. عنان: نهاية الأندلس، 17-22 و37.

(2) بوفاة سانشو الأول الملقب «بالكبير» ملك نافار سنة 427هـ-1035م، تجزأت مملكته بين أولاده الأربعة فاخص ولد فرديناند بقشتالة وغرسة بناقار وراميرو باراغون، وأربعهم بولاية سويرابي في أواسط البرنية أماليون وجليقية فحكمها صهره برمود الثالث، وظهرت هذه الممالك في القرن الثاني عشر الميلادي بقشتالة وليون واراغون ونافار والبرتغال وفي سنة 628هـ-1230م، اتحدت مملكتا قشتالة وليون، وفي مطلع القرن الثالث عشر عرفت

وكان حرص أبي الحسن على أداء هذا الواجب المقدس، يستوحي من قاعدتين أساسيتين ارتكز عليهما، الأولى: عقيدته الدينية التي فرضت عليه حماية المسلمين والدفاع عنهم، في وقت ازدادت فيه ضراوة الممالك الإسبانية في ضم واجتياح مدن المسلمين، وتعاضدت بطاقتها العسكرية من أجل إنهاء الوجود العربي الإسلامي، ويكفي أن نعرف أن الدولتين الأراغونية والقشتالية توصلتا في كانون الأول سنة 691هـ - 1291م إلى عقد معاهدة مونتي كودو (Montea Gudo) والتي تنص على أن تكون الدولتان الزبانية والحفصية من حصة اراغون والمرينيون من حصة قشتالة⁽¹⁾.

ولا يحفى أيضاً المصالح الاقتصادية للممالك الإسبانية وغيرها والتي كانت في مقدمة المطامع التي سعت إليها تلك الدول⁽²⁾.

فلم تتوقف سفنهم البحرية وقوافلهم البرية عن الحركة في أراضي المغرب العربي رغم الحروب والمخاطر التي كانت تحدث بين الحين والآخر وخاصة بين الدول المغربية نفسها⁽³⁾.

إزاء ذلك لم يدخر السلطان جهدا في سني حكمه من أجل نصرتهم، فكان يجهز قواته، ويهيئها على أحسن وجه في أوقات السلم استعدادا للمعارك المقدسة التي يروم خوضها في بلاد الأندلس بالإضافة إلى المساعدات المالية التي كان يرسلها

بقشتالة واراغون والبرتغال، للمزيد ينظر: عنان نهاية الأندلس، 76-84.

(1) mail.M. Abun-Nasr, P.126.

(2) C. E. Du. Fourcq: Lespace Cetalane_ Le Meghirb (Paris), P.369.

(3) اتخذت الدولة المرينية منذ عهد يعقوب بن عبد الحق قسما من المدن المطلة على المضيق فيما بين المغرب والأندلس قواعد عسكرية للانتقال إلى الأندلس وأعادتها بعضها في سنة 685 واحتفظت بالجزيرة الخضراء، ورندة وطريف ووادي اش، للمزيد ينظر ابن أبي زرع: الأتيس المطرب، 376.

إلى غرناطة والتي بلغت خمسين ألف دينار من الذهب شهريا، ما عدا الأموال التي أنفقها في المعارك التي خاضها أو في تقوية الثغور العسكرية التي كانت خاضعة لدائرة نفوذه مثل الجزيرة الخضراء⁽¹⁾، وقيل أن «أكثر أمواله التي جمعها وصارت له.. في سبيل الجهاد أنفقها وفي أعماله أنفذه»⁽²⁾.

أما القاعدة الثانية فهي ارثة الذي نشأ عليه من خلال سلاطين الدولة المرينية الذين سبقوه وبشكل خاص جده السلطان يعقوب بن عبد الحق⁽³⁾، الذي يمكن أن نعرف موقفه من ذلك في الخطبة التي قالمها بجموع الجند من دولته في المعركة الشهيرة التي خاضها في ربيع الأول سنة 674هـ - أيلول 1275م بالقرب من مدينة اشتجة⁽⁴⁾، أمام القائد القشتالي الدون تونيودي لارا والذي يعرف في مصادرها بذنوته⁽⁵⁾.

وعندما خطب في قومه وقال «يا معشر المسلمين، وعصابة المجاهدين انتم أنصار الدين، والذابون عن حماه والمقاتلون عداه، وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم، له ما بعده إلا وان الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها فبادروا إليها وجدوا في طلابها، وابدلوا النفوس في أثمانها، إلا وان الجنة تحت ظلال السيوف ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾⁽⁶⁾، فاغتنموا

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 388-390.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 395.

(3) عن جهاده ينظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 313 وما بعدها، الذخيرة السنية، 143 وما بعدها. مجهول: الحلل الموشية، 176-177.

(4) مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر شتيل، فرع الوادي الكبير، للمزيد عنها ينظر: الحميري: صفة جزيرة الأندلس، 14 و15. عنان: الآثار الأندلسية الباقية، 76-79.

(5) ابن خلدون: العبر، 4/370، 393. المقرئ: نفح الطيب، 4/385.

(6) سورة التوبة: الآية، 111.

هذه التجارة الربحية، وسارعوا إلى الجثة بالأعمال الصالحة وشمروا عن ساعد الجَد في جهاد أعداء الله الكفرة، وقتال المشركين الفجرة، فمن مات منكم مات شهيداً، ومن عاش رجع إلى أهله سالماً غانماً مأجوراً حميداً، ﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽¹⁾، وما أن سمعت قواته هذه الخطبة حتى هبت على الأعداء⁽²⁾.

وقوله أيضاً: «يكون خط بني مرين من هذه الغزاة الأجر والثواب مثل ما فعل يوسف بن تاشفين - رحمه الله - مع أهل الأندلس يوم الزلاقة»⁽³⁾.

وللإحاطة بعلاقة السلطان أبي الحسن مع الدولة النصرية في غرناطة ينبغي ملاحظة أمرين مهمين أولهما أن السلطان النصري محمد الرابع⁽⁴⁾، عبر إلى المغرب في سنة 732 هـ - 1331 م، وقد لأبي الحسن شرحاً وافياً عن ظروف دولته والمضايقات العسكرية التي تعاني منها غرناطة من قبل القوات الإسبانية، وثانيهما الاعتداءات المتكررة التي كانت تشنها السفن الإسبانية على الأسطول المريني حيث كانت السفن الأراغوانية والقشتالية تطارد وتأسر سفن المرينين بصورة مستمرة، فعلى سبيل المثال لا الحصر، في سنة 722 هـ - 1322 م، قاد الكابتن كيلوم بيكاد (Guillem sea pajades) سفن أراغون التي استولت على مجموعة من سفن سبتة، بينما قاد الفونسو جوفري نينوريو (Ounso Jofre Tenorio -) في سنة 726 هـ - 1325 م وحدة بحرية تمكنت من تحقيق انتصار في مياه مالقة والمرينية واستولت أيضاً على سفن تلمسانية وطنجية⁽⁵⁾.

(1) سورة آل عمران: الآية، 200.

(2) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 149، الأنيس المطرب، 317.

(3) النصري: الاستقصا، 3 / 48.

(4) DuFourcq , P 468.

(5) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، خلف والده في 26 رجب سنة 725 هـ - 1326 م، وهو فتى

وزيادة على ذلك فإن الخطر الحقيقي الذي بات يهدد المسلمين هو سقوط جبل طارق في أيدي القوات الإسبانية⁽¹⁾، وعواقب ذلك لا تنعكس على الوضع العسكري فحسب بل يشكل ذلك تردباً للأوضاع النفسية التي يعيشها المسلمون في المغرب والأندلس على السواء، فاستجاب أبو الحسن للسلطان النصري وأرسل معه قوة من الدولة بلغت خمسة آلاف فارس بقيادة ولده الأمير أبي مالك الذي تمكن بالتعاون مع جند بني الأحمر على تطويق الجبل وتمكن الأسطول المغربي من إعاقة وصول أسطول العدو إلى بحر الزقاق⁽²⁾، ومنعه من تقديم العون والمساعدة للحامية الإسبانية المحاصرة، وظل المسلمون يفرضون الحصار عليها حتى اضطرت إلى الاستسلام، وبذلك تمكن المرينيون من استرجاع جبل طارق سنة 733هـ - 1332م⁽³⁾.

كان لهذا الانتصار وقع طيب في نفوس المسلمين، بينما ثبط من عزيمة الممالك الإسبانية وخاصة قشتالة التي اضطرت إلى عقد معاهدة صلح مع السلطان النصري الذي لم يتمتع بحلاوة هذا الانتصار وذلك لاغتياله في طريق عودته بالقرب من وادي السقائين على طريق مالقة ومن ثم نصب أخوه يوسف الأول⁽⁴⁾، الملقب بأبي الحجاج بدلا عنه⁽¹⁾.

لم يتجاوز الحادية عشرة من عمره، للمزيد ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 395-401.

(1) ابن خلدون: العبر، 7/ 430، أي في أوائل سنة 709هـ - 1309م.

(2) بحر الزقاق: يطلق على جهة المضيق من سبتة، ينظر: الحميري: الروض المعطار، 83.

المقري: نفح الطيب، 1/ 127-129، وأضاف محمد بن تاووت فقال: «ظل ساحل الزقاق

الممتد من سبتة فجبل موسى فقصر مصموده بطنجة ساحلا استراتيجيا» تاريخ سبتة، 20.

قال ابن خلدون، ثم يضيق الزقاق بين بر العدو وبر الأندلس فيكون قدر ثمانية عشر ميلا

«وطوله إلى جبل الميناء الذي على سبتة أربعة وأربعون ميلا»، الجغرافية، 138.

(3) ابن خلدون، العبر، 7/ 255.

(4) هو أبو الحجاج يوسف بن أبي الوليد، بويع وهو في السادسة عشرة من عمره واغتيل في سنة

لم يكن الصلح الذي أبرم مع قشتالة إلا فرصة لها، حيث عاودت نشاطها في اجتياح أراضي الدولة النصرية بقيادة ملكها الفونسو الحادي عشر، مما دفع سلطان غرناطة أبا الحجاج إلى طلب المساعدة من السلطان أبي الحسن الذي استجاب لطلبه فأرسل قوة مرينية بقيادة ولده الأمير أبي مالك، إذ تمكن الأخير من اختراق سهول الجزيرة الخضراء ومنها لتقدمه توجه الأسطول الإسباني المكون من السفن القشتالية والاراغونية والبرتغالية وبقيادة الدون جوفري تنوريو⁽²⁾، إلى مياه جبل طارق لقطع الإمدادات عن قوة أبي مالك الذي توغل في الأراضي القشتالية ووصل إلى سهل البجانة، وكان الأمير أبو مالك متصلبا في رأيه حيث رفض الانسحاب بعد توغله العميق في الأراضي القشتالية، وفي اليوم التالي فاجأته القوات المتحالفة واشتبك الطرفان في معركة شديدة، تمكن الإسبان فيها من تحقيق انتصار على القوات المرينية وقتل الأمير أبي مالك في أواسط سنة 740هـ - 1339م⁽³⁾.

كان نبأ مقتل الأمير أبي مالك فجيحة للدولة المرينية، وحشا لها للأخذ بثأره، فأمر أبوه بتهيئة الأساطيل⁽⁴⁾، وفتح العطاء للجند، كما أرسل إلى الحفصيين في

755هـ. ابن الخطيب: اللوحة البدرية، 102 وما بعدها. ابن الخطيب، أعمال الأعلام،

204-206. المقرئ، 1/ 541. المقرئ، نفح الطيب، 5/ 80-81.

(1) ابن خلدون، العبر، 7/ 263-264. ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 296-297. اللوحة

البدرية، 102-103، 110-111. البربوسي: دول الإسلام بالمغرب الأقصى، ورقة، 96.

(2) وكان النصر في بدء الأمر حليف الأمير أبي مالك الذي تمكن من قتل الدون في موقعة

(استريشو)، للمزيد ينظر، شبانة: يوسف الأول، 123. عنان: الإثارة الأندلسية الباقية،

284-296. العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، 23-25.

(3) ابن خلدون: العبر 7/ 260. الناصري: الاستقصا، 3/ 134-135. عنان: نهاية الأندلس،

116-117، ويذكر أن مدينة رندة لا زالت تحفظ لنا قصر الأمير أبي مالك، للمزيد ينظر:

عنان: الآثار الأندلسية الباقية، 274-276.

(4) كان الأسطول المريني فيه أنواع من السفن مثل القرقورة، الشيني، الغراب، الطريدة،

تونس يطلب إمدادا بقطع من أسطولهم، فاستجابوا لطلبه وأرسلوا له ست عشرة سفينة من مدنها طرابلس وقابس وجربة وتونس وبونة وبجاية تحت إمرة قائد بجاية يزيد بن فرحون، واستقرت هذه السفن مع الأسطول المريني في مرسى سبتة، وبلغت مائة سفينة ووضعت تحت قيادة محمد بن علي العزفي⁽¹⁾.

تمكنت القوات المرينية - النصرية من تحقيق انتصار على أسطول الإسبان الذي كان مرابطا في بحر الزقاق وقتل قائده الملند، وغنم المسلمون بقايا سفنهم التي سبقت أيضاً إلى مرسى سبتة، ويصف لنا ابن خلدون هذه الموقعة بقوله «ونظمت أصفاد الأسرى بدار الإنشاء، وعظم الفتح، وجلس السلطان للتهنئة، وأنشد الشعراء بين يديه»⁽²⁾.

وزيادة في تعظيم الانتصار، وكسر شوكة القوات الإسبانية، عبر السلطان أبو الحسن بقواته التي بلغت أكثر من ستين ألف مقاتل، وأسطوله المكون من مائة وأربعين سفينة تساندتهم الأسلحة الأخرى ومن ضمنها المدافع التي يطلق عليها «النفاطة»⁽³⁾، في أوائل محرم 741هـ حزيران 1340م، ونزل شمال غربي جزيرة طريف⁽⁴⁾. وعلى مقربة من نهر سالاده كما تحرك أيضاً السلطان أبو الحجاج الذي

القارب، الشبطي، للمزيد ينظر، المتوفي: ورقات عن الحضارة المغربية، 76-80.

(1) جاء بعد يحيى الرنداحي إلى قيادة أسطول سبتة، ثم صار القائد الأعلى للأسطول المريني حتى قتل في موقعة القيروان في تونس، الناصري: الاستقصا 3/ 115 و 135.

(2) العبر، 7/ 261، ابن تاووت: تاريخ سبتة، 140-141.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 188، ويقصد بها الآلات النارية التي ترشق بها الحصون والأسوار أي أنها كالمدافع، للمزيد عنها ينظر، لوبون: حضارة العرب، 477-481.

(4) وسميت بطريف نسبة إلى السرية التي قادها طريف بن مالك في عهد موسى ابن نصير في سنة 91هـ وهي تقابل الجزيرة الخضراء، للمزيد ينظر: ابن عذاري: البيان المغرب، 2/ 5، الحميري: الروض المعطار، 8 و 127. المقرئ: نفع الطيب، 1/ 253، 160 فروخ: العرب والإسلام، 82-83.

وقفت قواته بمحاذاة قوات أبي الحسن فحاصروا مدينة طريف التي تمكنت القوات الإسبانية من محاصرتها والسيطرة على حاميتها بعد الموقعة التي حدثت في سنة 740هـ - 1339م، وظلت القوتان تتربص الواحدة منهما بالأخرى حتى كان اللقاء في جمادى الأولى سنة 741هـ تشرين الأول 1340م، بين الفريقين، وحدث أن تسللت قوة من الإسبان إلى طريق من الجهة التي تقع قرب فسطاط السلطان أبي الحسن، ولم تشعر القوات المرينية إلا بعد حين، وخشية من غضب السلطان أبي الحسن، واكتفوا بمقتل تلك الفئة القليلة التي وقعت تحت أيديهم فقط دون أن يجبروا أبا الحسن بما حدث، بينما اختفى الآخرون، وعند نشوب المعركة ظهرت تلك القوة المتسللة فاضطربت قوات المسلمين وذلك لأنهم تمكنوا من قتل عائلة السلطان الموجودة في فسطاطة، ومن ضمنهم نساؤه ومثلوا بجثثهن، ومن عائشة بنت أبي يحيى وفاطمة بنت السلطان أبي بكر الحفصي، وهكذا اضطربت القوات المرينية، بل أن السلطان المريني اضطر إلى الانسحاب ببقايا قواته الخاسرة متجها إلى الجزيرة الخضراء، ثم جبل طارق باتجاه سبتة⁽¹⁾.

تركت تلك المعركة تأثيرا قاسيا في نفوس المسلمين ورفعت من معنويات السلطان خاصة وإن المعركة لقيت دعما من قبل المرينيين بشكل عام، إذ اشترك فيها حوالي خمس وثلاثين ألف رجل من الإسبان، معززين بنخبة من الفرسان الإيطاليين والفرنسيين والانكليز⁽²⁾.

(1) ابن خلدون: العبر، 7/ 261-262. المقري: نفع الطيب، 5/ 14-15. الحججي: التاريخ الأندلسي، 543-544. ومن المفيد أن نذكر أن كنسية طليطلة زالت تحفظ من بين ذخائرها علمين للسلطان أبي الحسن، رمزا لانتصار القوات الإسبانية عليه، عنان: الآثار الأندلسية الباقية، 85-86.

(2) Charles- Ajulien, p. 190.

ومن نتائجها المباشرة، استعادت الممالك الإسبانية ثقتها بنفسها، فواصلت زحفها، وتمكنت من الاستيلاء على قلعة بني سعيد⁽¹⁾. التي لم تقاوم حصارهم فاضطر أهلها إلى مغادرتها في سنة 742هـ-1341م، أما من جهة أبي الحسن، فقد عزم على الجهاد ثانية، فأعاد تنظيم أسطوله، وأمر وزيره عسكر بن تاحضرين لقيادته واتجه الأسطول من مرسى سبتة، فواجه الأسطول النصري المتحالف ببحر الزقاق ودارت معركة بحرية، لم يحن منها المرينيون غير الهزيمة أيضاً، على الرغم من الجهود التي قدمها السلطان النصري أبو الحجاج لمنع ذلك، فكان من نتائج هذه الموقعة خسارة المسلمين للجزيرة الخضراء، وبذلك لم يبق بين المرينين والنصرين غير الجبل حلقة وصل⁽²⁾.

أن توالي الهزائم العسكرية على قوات أبي الحسن كانت نهاية فعلية للحملات العسكرية المرينية في بلاد الأندلس، وإن كانت نيات السلطان أبي الحسن غير ذلك حيث كشفت الرسالة التي بعثها مع سفارته المرينية سنة 745هـ-1344م إلى أبي القدا إسماعيل⁽³⁾، بن الملك الناصر قلاوون والمؤرخة في 26 صفر-9 تموز من السنة نفسها عن رغبته في الجهاد، وأنه عازم على تهيئة قواته البرية والبحرية بغية ملاقات القوات الإسبانية وفي ذلك يقول: «وعدنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من

(1) قلعة بني سعيد: أو قلعة يحصب، تقع شمال غرناطة، كانت منزلاً لأسرة بني سعيد الكتاب أصحاب المغرب، للمزيد ينظر: المقرئ: نفع الطيب، 3/ 61. المنوي: ورقات عن الحضارة المغربية، 81.

(2) ابن خلدون: العبر، 7/ 262-263. الناصري: الاستقصا، 3/ 133-138. عنان: نهاية الأندلس، 118. العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، 420.

(3) هو عماد الدين أبو القدا إسماعيل بن السلطان الملك الناصر ناصر الدين بن المنصور قلاوون. السلطان السادس عشر من الزاهرة، بالدبار المصرية والرابع من بني محمد بن قلاوون، بويع في 22 محرم من سنة 743هـ - 27 حزيران 1342م، بعد أخيه الناصر أحمد. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 10/ 78.

وعناء السفر، وترتبط الجياد وتنتخب العدد لوقت الظهور المنتظر، وتكون على أهبة الجهاد، وعلى مراقبة الفرصة عند تمكنها في الاعاد...».

إضافة إلى أن تلك الرسالة تضمنت شرحا وافيا لظروف احتلال الجزيرة الخضراء، زيادة على أنها أبرزت موقف أبي الحسن من الجهاد، والخسائر التي فقدها وخاصة في السفن الحربية⁽¹⁾.

أما العهد الأخير الذي عاصره السلطان أبو الحسن فيما يتعلق بالعمليات العسكرية على صعيد الأندلس، فتمثل في المحاولات المستمرة التي قامت بها مملكة قشتالة من أجل استرداد جبل طارق لمنع وصول الإمدادات المغربية إلى بلاد الأندلس، ومن ثم القضاء على مملكة غرناطة.

إذ قاد الفونسو الحادي عشر ملك قشتالة سنة 750 هـ - 1349م الحملة بنفسه واخترق سهول الجزيرة الخضراء، متجها صوب الجبل، وعندما شعر بعدم إمكانية استعادته، فرض الحصار عليه مدة عشرة شهور على رأي ابن بطوطة⁽²⁾، في حين لم تتمكن القوات النصرانية بقيادة أبي الحجاج من فعل أي شيء، واكتفت فقط بالوقوف وراء القوات القشتالية، وظل الموقف على هذا الحال حتى انتشر الطاعون⁽³⁾، بين صفوف الإسبان وهلك ملكهم فيه، فانسحبت قواته بعد أن أنهت حصارها، وغادرته في عاشوراء سنة 751 هـ 20 آذار 1350م⁽⁴⁾.

(1) المقرئ: نفح الطيب، 4/ 386-394. الناصري: الاستقصا، 3/ 147-151.

(2) تحفة النظار: 665.

(3) ابن خلدون: العبر، 4/ 394، 7/ 679، 776. ابن القاضي: درة البحال 1/ 45، 83، 3/ 276، 292، 295، 331. فرحات: غرناطة في ظل بني نصر، 133-134.

(4) ابن خلدون: العبر، 7/ 183. المقرئ: نفح الطيب، 4/ 442-444 وللمزيد بنظر نص رسالة أبي الحجاج إلى أهل المرية بخصوص هلاك قشتالة. ابن الخطيب: ربحانة الكتاب ونجعة المتأب، 2/ 38-42.

ب - مشيخة الغزاة:

ترتب على التعاون الذي جرى بين الدولة المرينية والنصرية وخاصة فيما يتعلق بالجهاد، دفاعاً عن بلاد المسلمين في الأندلس، استحداث منصب عسكري أطلق عليه منصب شيخ الغزاة وعن ذلك، قال المقرئ: «ولم يزل ملوك بني مرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشهورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغرناطة، وعليهم رئيس من بيت ملك بني مرين يسمونه شيخ الغزاة»⁽¹⁾.

قسم ابن الخطيب الجيش النصري إلى قسمين الأول أندلسي والثاني مغربي ويتكون الأخير من المتطوعين والمجاهدين من قبائل المغرب، ويخضع لقائد أعلى يمت بصلة قرابة إلى السلطان المريني⁽²⁾.

يعود تاريخ المنصب إلى السلطان يعقوب بن عبد الحق عندما أرسل في سنة 660هـ / 1261م قوة مرينية قوامها ثلاثة آلاف فارس قادها عامر بن إدريس فعبرت إلى الأندلس وبذلك كانت «أول جيش عبر البحر إلى الأندلس من بني مرين»⁽³⁾.

استمر هذا المنصب في عائلة بني مرين، وكان منهم الشيخ أبو ثابت عامر بن عثمان بن إدريس بن عبد الحق الذي وصفه ابن الخطيب بأنه «قريع دهره في النكراء والدهاء المسلم في الرتبة عتاقة ورأيا وثباتا»⁽⁴⁾.

(1) نفح الطيب، 4/ 385، 1/ 452-454.

(2) اللوحة البدرية، 34.

(3) النصري: الاستقصا، 3/ 23.

(4) اللوحة البدرية، 105.

ومما هو جدير بالاعتراف به: أن منصب شيخ الغزاة في أول أمره ظل بعيدا عن التقلبات السياسية ما بين العرشين النصري والمريني، وعوض عن الحملات المرينية والنصرية في بعض الأوقات، ويكفي أن نشير إلى الموقف البطولي الذي قام به الشيخ عثمان بن أبي العلاء في 20 ربيع الثاني سنة 718هـ - 20 حزيران 1318م، عندما تصدى للحملة الصليبية التي قادتها قشتالة وبمساعدة قوات من المتطوعين من بينهم نخبة من الانجليز وأفشلها⁽¹⁾.

وفي عهد السلطان أبي الحسن، تناوب على هذا المنصب شيخان مرينيان هما عثمان بن أبي العلاء ويحيى بن عمر بن زحو الذي تسلمه في سنة 741هـ - 1340م⁽²⁾.

والشيء الذي لا بد من ذكره: أن هذا المنصب تسلمه ومنذ قيام الدولة المرينية أشخاص اعتقدوا أحقيتهم في العرش المريني، وأحدثوا المضايقات له، كما فعل الشيخ عثمان بن أبي العلاء عندما ثار بيلاده غماره، وسيطر على العديد من المدن المرينية وأعلن البيعة لنفسه⁽³⁾.

(1) للمزيد بنظر، ابن خلدون: العبر، 4/ 373، 7/ 520. المقري: نفح الطيب، 1/ 449-450، 5/ 510. الناصري: الاستقصا، 3/ 108-110. ويجدر بالملاحظة إلى أن هذه الواقعة تذكر أحيانا بتاريخ 719هـ 1319م، وكما حصل في الإحاطة، 1/ 389. المقريزي: السلوك، ج 2 ق 1/ 198-199.

(2) استلم هذا المنصب في المرة الأولى لمدة سنتين من سنة 727هـ ولغاية 729هـ وذلك بسبب الأحداث التي جرت على صعيد العرش النصري والتي أسهم فيها عثمان بن أبي العلاء: ابن الخطيب: اللوحة البدرية، 93 و 96-97 و 105 و 116.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 393. ابن خلدون: العبر، 7/ 237.

كما أنهم في الوقت نفسه تحكموا أحياناً بالعرش النصري، بل وأسهموا في المؤامرات التي أطاحت بقسم من سلاطينه، وقتلوههم كما فعلوا بالسلطان محمد الرابع ونصبوا أخاه السلطان أبا الحجاج بعده⁽¹⁾.

ورأينا في الموقفين الأخيرين أن ذلك لا يخرج عن نطاق السياسة التي انتهجها سلاطين الدولة النصرية في العلاقة مع الدولة المرينية ضماناً لدولتهم، مع علمهم بأن ذلك كان على حساب حياة بعض سلاطين الحمراء.

ج - العلاقات السياسية:

لم تقتصر العلاقات المرينية - النصرية على المحورين السالفين فحسب بل اشتملت على محور ثالث هو العلاقات السياسية، وما يهمننا من ذلك دراسة نمط العلاقات السياسية التي قامت مع الممالك الإسبانية، فعلى أثر استرجاع المرينين لجبل طارق، عقدت معاهدة صلح في 20 جمادى الثاني من سنة 734هـ 26 شباط 1333م بين مملكتي غرناطة وبنو مرين من جهة ومملكة قشتالة من جهة أخرى، إذ فوض السلطان يوسف لأبي الحسن أمر إبرام هذه المعاهدة التي يسري مفعولها في شعبان 735هـ آذار سنة 1334م. وانظمت إليها فيما بعد مملكة أراغون فيما يتعلق بالدولة المرينية مع احتفاظها بالتفاوض بصورة مباشرة مع غرناطة⁽²⁾.

وفي أواسط سنة 736هـ - 1335م قام يوسف الأول وملك أراغون «الفونسو العاشر» بعقد اتفاق ينضم به إلى معاهدة أبي الحسن والفونسو الحادي عشر ملك قشتالة⁽³⁾.

(1) ابن خلدون، العبر، 7/ 263-264. ابن الخطيب: الإحاطة 1/ 540-541.

(2) شبانة: يوسف الأول، 122، بالاو: بنو مرين في الاتفاقات، 196.

(3) بالاو: بنو مرين في الاتفاقات، 196.

وبينما كان الفونسو الحادي عشر يحاصر الجزيرة الخضراء في صفر 743هـ تموز لسنة 1342م وبمساعدة الأسطول الاراغوني، طلب المغرب وغرناطة العودة إلى المفاوضات، إلا أن طلبهما رفض من قبل مملكة قشتالة وحصل ذلك في جمادى الثاني 744هـ تشرين أول سنة 1343م⁽¹⁾.

أما في ذي الحجة 745هـ نيسان سنة 1344م فقد عقدت قشتالة معاهدة مع غرناطة في حين لم يشترك المغرب بها⁽²⁾، بل أن السلطان يوسف الأول أبرمها نيابة على السلطان أبي الحسن تحذف فيما يتعلق بأراضي ومستوطنات المرينيين⁽³⁾.

وأهدر السلطان أبو الحسن في منتصف صفر من سنة 746هـ حزيران 1345م، وثيقة بمناسبة حضور القائد النصري علي بن كماشة إلى فاس لغرض تحديد الموافقة على الصلح الذي أبرم بين النصريين والاراغونيين في سنة 745هـ 1344م والذي شمل أيضاً الأراضي المرينية ولمدة عشرة أعوام في البر والبحر⁽⁴⁾.

وعلى أية حال فقد اتسمت العلاقات المرينية الأراغونية بشكل عام بطابع سلمى⁽⁵⁾، حيث بذل الاراغونيون جهوداً واسعة من أجل كسب خطوة لهم في البلاطين المريني والتلمساني، كتعيين سفراء لهم في تلك الأراضي يقومون بمهمة نقل

(1) بالاول: بنو مرين في الاتفاقات، 196، التي انتهت بالموقعة الحربية التي يسمونها بـ «المونيس» والتي اندحرت فيها القوات الإسلامية.

(2) شبانة: يوسف الأول، 124.

(3) المقرئ: نفع الطيب، 4/ 392.

(4) Los Loeu Mentos. Arabes Diplomaticos Del Archive Delacorons De Aragon – Al Areen Lesnios. Romoa De Liars (MAIRT: 1940) p.1401.

(5) Alercon , Ye reis: p. 169-170, 151 , 192, 194, 195.

البضائع التجارية إلى أراضيهم وكذلك من خلال التقرب إلى البلاط المغربي توثيقا لمكانة اراغون وحماية لمواطنيها⁽¹⁾.

كما لم تنعدم الفترات السلمية بين الدولتين المرينية والقشتالية فقد تم العثور على وثيقة صادرة من قبل السلطان أبي الحسن المريني في 29 رجب سنة 751هـ 2 تشرين الأول 1350م تشير إلى حسن العلاقة القائمة مع ملك قشتالة، ومكانة التجار القشتاليين والقرض المتاح لهم⁽²⁾، فضلا عن الهدايا المتبادلة بين الطرفين⁽³⁾.

غير أن تلك المعاهدات لم تحدد من المطامع الإسبانية إزاء بلاد المسلمين أن كان في الأندلس أو في المغرب العربي، إذ أن قشتالة كانت تحرص وبشدة على أن تكون لها إمبراطورية على حساب الشعوب الأخرى⁽⁴⁾.

أما العلاقات المرينية مع بني نصر على عهد السلطان أبي الحسن فقد اتسمت بحسن التفاهم وحرص المرينيين على أداء الواجبات الملقاة على عاتقهم، فقد أشادت معظم الرسائل التي بعث بها السلطان يوسف الأول بمكانة أبي الحسن⁽⁵⁾، فورد في أحدها ما نصه: «فأحوال المسلمين في هذا القطر على جميل نظركم معتمدة، وعنايتكم بها في كل يوم متجددة، فكلما توقع في لباب هديتها مرض عرض منكم على الاسئ الطيب، أو حذر من عدوها مكروه صرفت الوجوه منكم إلى الولي الحبيب، فوجوه لحظكم سافرة على حال المنيب»⁽⁶⁾.

(1) Du fourcq. 16. 369. 461.

(2) Alercon , Yearcie: p. 196-197.

(3) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 392 و454.

(4) يلاحظ الرسائل التي وردت في كتاب ربحانة الكتاب لابن الخطيب.

(5) شبانة: يوسف الأول، رسالة رقم 1.

(6) شبانة: يوسف الأول، رسالة رقم 6.

وحرص السلطان يوسف الأول على نقل الوقائع العسكرية التي تخوضها القوات النصرية إلى العرش المريني، كما حصل في موقعتي الكرس واستجة⁽¹⁾.

وزيادة في المحابة والتودد للعرش المريني قام السلطان يوسف الأول باعتقال بني العلاء شيوخ الغزاة في الأندلس، وأرسلهم إلى تونس، ثم أرسلوا إلى السلطان أبي الحسن بصحبة الوزير ابن تافراجين سنة 741هـ 1340م⁽²⁾، في حين رفض طلب السلطان أبي سعيد والد أبي الحسن من قبل الدولة النصرية آنذاك متذرة بالخدمات الجليلة التي قام بها بنو العلاء في الأندلس⁽³⁾.

وتم اختيار شيخ جديد هو يحيى بن عمر بن رحو الذي كان يتمتع بعلاقات طيبة مع السلطان أبي الحسن، ويحظى باحترام العرش المريني⁽⁴⁾.

كما شهدت الفترة التي حكم بها السلطان أبو الحسن تبادل سفارات ووفود يتعذر حصرها على مدار أشهر السنة أحيانا⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من طابع الود الذي اتسمت به هذه الفترة، إلا أننا نستطيع أن نميز حالتين عاشتها الدولة المرينية في ظل عهد السلطان أبي الحسن فعندما تمكن من استرجاع جبل طارق، رأينا كيف فوض السلطان يوسف الأول لأبي الحسن أمر عقد الاتفاقية، على الرغم من أنه يمثل طرفا أساسيا بها، أما عندما ضعفت قوة السلطان أبي الحسن فإنه أبرم المعاهدة مع قشتالة وعلى الأراضي التابعة للسلطان أبي

(1) ابن خلدون: العبر، 4/ 172، 7/ 250. ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 397.

(2) ابن خلدون: العبر، 7/ 264.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 249.

(4) ابن خلدون: العبر، 7. ابن الخطيب: اللمحة البدرية 105 و116. الإحاطة، 2/ 16. شبانة: يوسف الأول، 249-254.

(5) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 486.

الحسن مكتفيا بمخاطبة السلطان المريني، يطلب تفويضه بعقد الصلح مع قشتالة قائلا «فإننا أن عقدنا سلما عقدناه برمحكم التي يحذر العدو هبوبها وإن شتتنا حربا استعنا بعزما تمكم التي تنال بها الملة مطلوبها وإن ضمنا عنكم أمرا صدق الضمان، وإن وثقنا بكم انقاد الزمان، ورأى ما يسره الأمان»⁽¹⁾.

والواقع أن السياسة التي اتبعها السلطان أبو الحجاج مع السلطان المريني أبي الحسن والتي اتسمت بطابع التقلب، كانت سياقاً واضحاً للسلطين النصرين وإن كانت أخف حدة من غيرها⁽²⁾، ولعل السبب الذي دفع السلطين النصرين بصورة عامة إلى إتباعها، يكمن في محاولتهم للاستفادة من قوة المرينين ولكن بشرط استقلاليتهم عنهم، وقد أثبت واقع حال السياسة النصرية نجاحها إذ بفضلها استمرت غرناطة على الوجود أكثر من مائتين وخمسين سنة⁽³⁾، وأزالت تلك السياسة عن كاهل غرناطة الكثير من الأزمات والمواقف الخائفة، في حين أضعفت المرينين وأرهقتهم في سلسلة من الحروب غير المتكافئة مع الممالك الإسبانية⁽⁴⁾.

(1) شبانة: يوسف الأول، رسالة رقم 1.

(2) من الأمثلة على تلك الأساليب تحالف محمد الثاني الفقيه (توفي 701 هـ - 1302 م) مع ملك قشتالة سانشو الرابع وتنازله عن حصون وقلاع أندلسية من أجل استرداد جزيرة طريف التي أخذها السلطان المريني يوسف بن يعقوب لغرض جعلها قاعدة للانطلاق إلى الأندلس، ولما احتلها سانشو الرابع سنة (691 هـ - 1292 م) لم يرجعها إلى محمد الفقيه، فعاد الفقيه للصلح ثانية مع المرينين مبدئياً أسفه لذلك. للمزيد ينظر ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 380. ابن خلدون: العبر، 7/ 216. فرحات: غرناطة في ظل بني نصر، 35 و 36.

(3) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، 333.

(4) كنون: النبوغ المغربي، 1/ 191 - 192.

ثانياً: العلاقات مع دولة مالي:

على الرغم من ندرة المعلومات، واختلافات المؤرخين في الحياة السياسية لدولة مالي وخاصة فيما يتعلق بملوكها، إلا أننا سنحاول أن نلقي الضوء وبصورة موجزة على واقعها السياسي والملوك الذين حكموها للفترة التي تزامنت مع عهد السلطان أبي الحسن، للأهمية التي نراها وبشكل خاص حول السفارات التي قامت بين البلدين، والتي تمثل ابتداء السفارات بينهم منذ قيام الدولة المرينية.

ويرجع الفضل في قيام دولة مالي إلى قبائل الماندنغو⁽¹⁾، التي سكنت لبضعة قرون في الوديان العليا لنهري السنغال، وامتدت جنوباً حتى خط عرض 59 شمالاً⁽²⁾، واشتهرت هذه الدولة بتسميات كثيرة فتارة الماندنغو، وأخرى مالي، كما عرفت أيضاً ببلاد التكرور⁽³⁾.

على أن شهرتها بلغت ازدهارها في عهد سلطانها منسا موسى بعد زيارته لمكة ومروه بالقاهرة سنة 757هـ - 1324م⁽⁴⁾.

تمكن منسا موسى من فرض هيمنته السياسية⁽¹⁾، على الأراضي التي جاورت دولته فوصلت حدوده إلى (تكرور) غرباً و(دندي) شرقاً و(اروان) وتادمكت حتى

(1) وتعني عند قبائل السوننك: عند السيد، أو في مركز إقامة السيد، أي العاصمة، وفسرت أيضاً ابن الام. للمزيد ينظر: طرخان: دولة مالي الإسلامية، 27-29.

(2) أي أنها سكنت في المنطقة التي تقع ما بين النيجر والمحيط الأطلسي، ما عدا حوض النيجر والمناطق التي تجاوره. طرخان: دولة مالي، 26-27.

(3) العمري: التعريف بالمصطلح الشريف، 27. القلقشندي: صبح الأعشى، 5/ 282. ابن سعيد الجغرافية، 91.

Bovill, q.: the golden trade of the Moors. (London , 1968). P. 7.

Trimingham. J. S.: the Influence of Islamic or African , P. 14.

(4) رياض: الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا، 117.

فولتا جالون) جنوبا كما وصل حكمه إلى منطقة (جاو) في النيجر الأوسط أما (جني) فبالرغم من قربها من عاصمته، فلم يتمكن من إخضاعها، وربما يرجع السبب إلى موقعها الذي تحيطه المياه⁽²⁾.

وبعد وفاته ، ضعفت دولة مالي، لأسباب كثيرة في مقدمتها عدم كفاءة خلفائه، وجنوحهم نحو المفاسد، حيث انتقل عرش البلاد إلى ولده منسا مغا الذي حكم للفترة الواقعة ما بين (738-742هـ / 1337-1341م)⁽³⁾، وحكم بعده عمه منسا سليمان الذي تمكن من إعادة هبة الدولة، وكان عهده (742-762هـ / 1341-1360م) من الفترات المهمة في حياة الدولة وفي مختلف الميادين⁽⁴⁾.

أ- السفارات:

تعد السفارات المرينية - المالية التي ابتدأت على عهد السلطان أبي الحسن، وتطورت في عهد السلاطين المربين الذين ورثوا الحكم بعده⁽⁵⁾، كأبرز الجوانب في مستوى العلاقة بين الدولتين في هذا الميدان.

(1) يشير العمري إلى أنه: «أعظم ملوك السودان المسلمين، وأحسنهم حالا، واقهرهم للأعداء».

المنجد - مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، 44. «ويد سلطان» مل «مبسوطة على الكل بالقهر والغلبة» كعت: تاريخ الفتاش في أخبار البلدان، 38.

(2) زكي: تاريخ الدول الإسلامية السودانية، 105 و 110-111.

(3) ابن خلدون: العبر، 6/ 201، القلقشندي: صبح الأعشى، 5/ 297.

(4) ابن خلدون: العبر، 6/ 201، ويضيف في الصفحة نفسها «وانصلت أيامه أربعاً وعشرين سنة ثم هلك» القلقشندي: صبح الأعشى، 5/ 297، المنجد: مملكة مالي، 43. طرخان: دولة مالي، 94.

(5) الناصري: الاستقصا، 4/ 34-36.

ويمكن تحديد السفارات التي قامت بها الدولتان والأهداف التي كانت تسعى كل منهما إلى تحقيقها من خلال الإشارات النشيطة التي وردت حولها، وهذه السفارات هي:

1- سفارة دولة مالي الأولى:

جاءت هذه السفارة بعد الانتصارات التي حققها السلطان أبو الحسن في المغرب الأوسط، عندما تمكن من إخضاع دولة بني عبد الواد في تلمسان إلى دولته سنة 737هـ - 1338م⁽¹⁾، فأرسل السلطان منسا موسى إلى العاصمة المرينية وقدا من دولته لتقديم التهئة، وتعرض ابن خلدون لهذه السفارة بقوله «فأوفد عليه فراققيس من أهل مملكته مع ترجمان من المثلثين» وقد أكرم السلطان أبو الحسن الحاضرين إليه من دولة مالي، وأتحفهم بهدايا مغربية ثمينة، وقد وصل خبر وفاة السلطان منسا موسى إلى المرينيين في أثناء وجود وفده في فاس، فأمر السلطان أبو الحسن بتشكيل سفارة مرينية مهمتها تقديم التعازي لسلطان مالي الجديد وهو منسا مغا الذي ورث ملك أبيه واتجهت إلى العاصمة المالية، وضمت شخصيات مرينية بارزة منهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين وعنبر الخصي⁽²⁾، وعلي بن غانم المغقل⁽³⁾، وقد تزامن وصول هذه السفارة مع الأحداث التي وقعت في

(1) يجعلها الغربي في كتابه بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، 49 في سنة 732هـ - 1331م وهذا غير صحيح على ما نرى.

(2) العبر، 266/7، ويلاحظ أن الصفحة نفسها قد وقع فيها تحريف، فقد جاء فيها اسم السلطان الجديد منسا سليمان، على أن هذا التحريف أصاب كتاب المسند لابن مرزوق، 454.

(3) اخطأ بوفيل بتسمية بابن غانة، 91، وتبعه طرخان في كتابه دولة مالي، 94.

تنبكتو⁽¹⁾، وعلى أية حال فقد استقبلها ولد المتوفى مع الهدية التي أرسلها السلطان أبي الحسن⁽²⁾.

2- سفارة دولة مالي الثانية:

قام سلطان مالي منسا مغا بإرسال وفد جديد إلى السلطان أبي الحسن المريني على أثر وصول سفارة الأخير، والذي نراه أن هذه السفارة قامت بعد سنة 738 هـ - 1337 م وكانت مهمتها التأكيد على حسن الجوار والعمل على صيانة مصالح الدولة المرينية في بلاد مالي⁽³⁾.

3- سفارة دولة مالي الثالثة:

حضرت هذه السفارة إلى المغرب على أثر الانتصارات التي حققها السلطان أبو الحسن، عندما تمكن من إخضاع الدولة الحفصية في تونس إلى نفوذه مرسلته من قبل السلطان سليمان فوصلت إلى مدينة قسنطينة مع بقية الوفود التي حضرت للغرض نفسه على أمل التوجه إلى حيث يقيم السلطان أبو الحسن⁽⁴⁾.

وكان من بين أعضاء الوفد المالي الذي حضر إلى الدولة المرينية في هذه السفارة الحاج موسى الونجراتي الذي لقيه الرحالة ابن بطوطة في بلاد السودان⁽⁵⁾.

(1) قامت قبائل الموسي الساكنة في إقليم فولتا العلووي بالإغارة على دولة مالي وفي تلك الفترة تمكنت من الإغارة على تنبكتو، وقضت على حاميتها من رجال الماندنجو وأحرقت دورهم.
زكي: الدول الإسلامية، 111.

(2) ابن خلدون: العبر، 6 / 101.

(3) ابن خلدون: العبر، 7 / 266.

(4) ابن خلدون: العبر، 7 / 277.

(5) تحفة النظر، 685.

ويجدر بالذكر أن هذه السفارة كانت قد تعرضت مع بقية الوفود إلى الاعتداء في مدينة قسنطينة، وذلك بسبب الثورة التي عمت قسما من المدن الحفصية بوجه نفوذ السلطان أبي الحسن للعودة بالحكم إلى الحفصيين⁽¹⁾.

وقدر للوفود أن تغادر هذه المدينة برعاية أمير الزواودة يعقوب بن علي، حيث اتجهت إلى مدينة بسكرة مع ابن مزني ودخلت مدينة تونس في رجب من سنة 749هـ تشرين الأول 1348م، لمقابلة أبي الحسن وإظهار الحفاوة له بهذا الحدث⁽²⁾.

يتضح لنا من خلال عرض طبيعة السفارات المالية الأنفة الذكر حرص السلاطين المالين الثلاثة الذين تعاقبوا على حكم مملكة مالي وسعيهم في كسب ود السلطان المريني أبي الحسن، وإظهار حسن جوارهم له، واحترامهم لمصالح دولته وابتهاجهم بتفوقه العسكري على الدولتين الزيانية والحفصية، حيث كشفت ذلك السفارة المالية الثانية في معرض ما نقله ابن خلدون عن أعضائها الذين أكدوا لأبي الحسن «خضوع مرسلهم وقيامه بحق السلطان واعتماله في مرضاته ما استوصاهم به»⁽³⁾.

ومن المفيد التجاري: لك أن نذكر أن سياسة السلطان أبي الحسن المريني لم تكشف عن رغبته في ضم الأراضي الحالية لدائرة نفوذه إلا أن ذلك لا يعني عدم خشية سلاطين مالي من ذلك، لاسيما أن صورة سقوط إمبراطورية غانة لم تكن

(1) الزركشي: تاريخ الدولتين، 86. ويضيف في الصفحة نفسها أن مدينة قسنطينة ظلت محاصرة من قبل الأمير الحفصي الفضل بن أبي بكر حتى تمكن من دخولها في محرم من سنة 749هـ نيسان 1348م، وقبل أنه نهب الأموال والهدايا التي كانت بمعية هذه الوفود.

(2) ابن خلدون: المعبر، 6/ 362.

(3) المعبر: 7/ 266.

بالبعيدة عن أذانهم، عندما قام المرابطون باحتلال العاصمة كومي صالِح في سنة 469هـ - 1076م⁽¹⁾.

ب - التبادل التجاري:

حرصت الدولة المرينية في عهد أبي الحسن على توطيد علاقاتها مع دولة مالي ضامنا لمصالحها التجارية، إذ كما هو معروف فإن التجار المغاربة عرفوا بلاد السودان قديما، وعرفوا المسالك الكثيرة التي تربط تلك البلاد بحوض البحر الأبيض المتوسط، وكان من أبرزها أربعة طرق رئيسية للقوافل⁽²⁾، غير أن تجار المغرب الأقصى استخدموا بصورة خاصة طريقين رئيسيين اعتبارا من القرن العاشر وحتى الخامس عشر الميلاديين.

أ - الأول: يبدأ من فاس - مراكش - ودان عبر الصحراء - اودغشت - غانا - مناطق الذهب في وانجارا⁽³⁾.

ب - الثاني: يبدأ من فاس - سجلماسة - تغازي - تودني عبر الصحراء باتجاه تنبكتو، وقد يتجه التجار من فاس إلى جهة تلمسان شرقا، وقد اكتسب هذا الطريق أهمية كبيرة في الفترة الواقعة ما بين القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الميلاديين⁽⁴⁾.

(1) حسن: انتشار الإسلام والعروبة، 56 و 57.

(2) طرخان: دولة مالي، 80.

(3) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، 215 - 216. حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، 11. جاسم: إمبراطورية مالي، 46.

(4) Green berg, J: The Influnce of Islam on Suclanese, (Washington , 1960), p.4.

اهتم تجار المغرب الأقصى بتوطيد علاقاتهم التجارية مع المدن المالية للحصول على المعادن الثمينة والموارد الأخرى وكان من أبرزها:

1- الذهب:

تمتعت بلاد السودان بسمعة كبيرة وشهرة واسعة بسبب توفر معدن الذهب في بلادها، وكانوا يعتقدون قديماً انه ينبت كنبات⁽¹⁾، كما كانوا يحصلون على قسم منه في مناطق الصحراء في فصل الصيف بينما يجمع التبر وهو النوع الثاني في معظم فصول السنة ومن ضفاف النيل ومجارية⁽²⁾.

وكانت مدينة غانة تمثل البوابة الطبيعية لمعدن الذهب⁽³⁾، وقد عرف التجار قديماً الطريقة التي يمكن من خلالها الحصول على معدن الذهب أي قبل قيام دولة مالي، والتي عرفت بالتجارة الصامتة⁽⁴⁾.

وشهدت بلاد مالي تجار المغرب الأقصى ومن مختلف المدن المغربية كدرعة وسوس وسجلماسة وفاس، يقصدون أراضيها ومراكزها التجارية لاسيما تنبكتو التي أصبحت من أهم أسواق السودان بعد انتقال سوق الذهب إليها⁽⁵⁾.

(1) ابن الفقيه الهمداني: البلدان، 87.

(2) المنجد: مملكة مالي، 57. ويلاحظ أنهم كانوا يطلقون على معظم الأنهار تسمية النيل والصحيح نهر النيجر الكبير الذي كانوا يسمونه بنيل غثانة. ينظر: عبد القادر: انتشار الإسلام في السودان الغربي، 11-48.

(3) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، 57.

(4) المسعودي: أخبار الزمان ومن أباده الحداث، 88-89.

(5) زكي: الدول الإسلامية، 100. الزباني: الترجانة الكبرى، 246.

وأخير فقد اخبرنا شاهد عيان في عصر السلطان أبي الحسن بأن الذهب الذي كان يجلب من بلاد السودان على نوعين، الأول كالبنادق والثاني الذي يكثر في المياه ويشبه الخزف⁽¹⁾.

2- النحاس:

حظي النحاس بالأهمية الثانية في تجارة المدن المغربية مع دولة مالي، واشتهرت به مدينة تكدا⁽²⁾، التي كان يجلب منها إلى العاصمة «نياني» على شكل قضبان فيباع إلى بلاد السودان الكفار على حد قول هنسا موسى⁽³⁾.

وذكر ابن بطوطة أن نحاس تكدا كان يسبك وتصنع منه قضبان في طول شبر ونصف، بعضها غلاظ وبعضها رفاق، فسعر الأول أربعمئة قضيب بمئقال ذهب والثاني من ستمئة إلى سبعمئة قضيب بمئقال ذهب⁽⁴⁾.

وكان التجار المغاربة ومنهم تجار فاس، يجلبونه من هذه المنطقة، ليقوموا بتصديره إلى مختلف البقاع التي يتعاملون معها تجاريا⁽⁵⁾، بينما يصنع القسم الآخر منه محليا في دكاكين النحاس التي كانت موجودة في فاس، واستمر تصنيعه جزءا من الحرف المهمة⁽⁶⁾.

(1) الحكيم: الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، 31.

(2) على الرغم من صعوبة تحديد موقع مدينة تكدا إلا أنها كانت تمثل مركزا هاما لتجارة القوافل يمكن تحديدها بين جاو وايري على طريق الحج عبر الصحراء، ينظر: Bovill, P.92.

(3) المنجد: مملكة مالي، 67.

(4) تحفة النظار، 697.

(5) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، 159 و138-139.

(6) الوزان: وصف إفريقيا، 248.

3- العبيد:

اندفع التاجر المغربي إلى بلاد مالي من أجل الحصول عليهم بغية بيعهم في الشمال، وكانت غانة وعاصمتها كومبي صالح - قبل هذا العهد - مشتهرة بهذه التجارة، وطريقها في الحصول عليهم من خلال الغزوات التي كانت تشنها على القبائل البدائية التي تعيش بين الأحراش في المناطق الجنوبية وخاصة من الذين كان يطلق عليهم العرب تسمية «الملم» أو دمدم⁽¹⁾.

وحاز الملم على شهرة واسعة أيضاً في تجارة العبيد وخاصة مع المدن المغربية⁽²⁾، وقد كانت هذه التجارة لا تقع تحت أشرف دولة كما وقعت تجارة الذهب وأعطى ذلك حرية التاجر المغربي وبالطريقة التي تناسبه⁽³⁾.

4- الملم:

نظراً لأهميته الكبيرة في حياة سكان الممالك السودانية في الجنوب، ولكثرة استعمالاته اليومية قام التاجر المغربي بمهمة تصديره إلى مدنه، وكانت قبيلة مسوفة⁽⁴⁾، تقوم باستخراجه من باطن الأرض وخاصة من مدينة تغازي بعد أن نفذ من جزيرة أوليل⁽⁵⁾.

(1) رياض: الممالك الإسلامية، 111، زكي: الدولة الإسلامية، 85. رولا فيج: موجز إفريقية، 122.

(2) زكي: الدولة الإسلامية، 100.

(3) طرخان: دولة مالي، 138.

(4) عرفوا بالطوارق: ينتسبون إلى ضهاجة، وهم ظواغن في الصحراء ما بين بلاد السودان وشمال إفريقيا. السعدي: تاريخ السودان، 25.

(5) ابن حوقل: صورة الأرض، 91. مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، 214.

وعرفت مدينة تغازي بالملح، وكان وجوده فيها على شكل ألواح، وسعر اللوح يزداد كلما توغل التاجر في بلاد السودان فيباع الحمل منه في مدينة ابوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية ويمدينة مالي بثلاثين مثقالاً وربما وصل سعره أحياناً إلى أربعين⁽¹⁾.

وإيضاحاً لأهميته قال ابن بطوطة: «أنهم يتصارفون بالملح كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعاً ويتبايعون به وقرية تغازي على حقايرتها، يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر»⁽²⁾، على أن سعر الحمل من الملح قد وصل قديماً في مدينة كوسبي صالح مابين مائتين إلى ثلاثمائة دينار⁽³⁾، وأضاف العمري أن فقدانه في بلاد السودان رفع من قيمته حتى عادل الذهب⁽⁴⁾.

وفيما يخص السلع الأخرى فقد استوردت بلاد مالي من المغرب الودع⁽⁵⁾، والحناء من درعة⁽⁶⁾، وأخيراً فقد تمتع الكثير من المدن المغربية بموقع تجاري مهم وصارت مراكزاً لتصدير البضائع التي عرفت أسواق شمال إفريقية وأواسطها كما أنها ارتبطت بعلاقات تجارية منظمة مع المدن المالية القائمة عند منحني النيجر مثل غوا⁽⁷⁾، وتنبكتو⁽⁸⁾.

(1) ابن بطوطة: تحفة النظار، 674.

(2) تحفة النظار: 674.

(3) ابن حوقل: صورة الأرض، 98.

(4) المنجد: مملكة مالي، 68 و 69.

(5) المنجد: مملكة مالي، 61.

(6) مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، 206، ابن سعيد، الجغرافية، 124.

(7) وتسمى أيضاً فأو حيث تبعد 450 كم عن تومبكتو، للمزيد ينظر: الوزان، وصف إفريقية، 543-545.

(8) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، 138-139.

أن بعض المدن المغربية مثل سجلماسة تمثل البوابة الطبيعية للتوغل في بلاد السودان⁽¹⁾، بل أن شهرتها وصلت إلى العالم الإسلامي، فقصدتها تجار العراق من مختلف المدن⁽²⁾.

ومن المفيد أن نذكر تطور التجار والعمرانية: نذاك مع المدن المالية حيث عرف قسم من المدن المغربية ما اصطلح عليه بالوكالة التجارية التي أسسها وقتئذ المقرري (جد مؤلف النفح) والتي نظمت أعمال تجارة السودان، وكان مركزها تلمسان للوقوف على تنظيم التجارة المارة ما بين سجلماسة - تغازي - ولالة - ولتامين المستلزمات الضرورية للقوافل كالماء والادلاء، وكانت هذه الوكالة ينظمها خمسة أخوة يقيم اثنان في تلمسان، واثنان في ولالة والخامس في سجلماسة⁽³⁾.

جـ العلاقات الثقافية والدينية والعمرانية:

أما فيما يتعلق بالعلاقات الثقافية والعلمية، فقد ظلت التأثيرات المغربية بصورة عامة واضحة في بلاد السودان، ولعل عهد منسا موسى الذي تمكن بفضل جهوده عن زيادة شهرة مالي محفزا في استقطاب العلماء والفقهاء إلى دولته، وقد أصبحت العاصمة مقصدا للعلماء والفقهاء والتجار المغاربة، فضلا عن غيرهم وفي زيارة ابن بطوطة لها وجد حيا خاصا للعلماء، وكان كبيرا فقهاء مالي هما محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين التقويش المغربي⁽⁴⁾.

(1) ابن بطوطة: تحفة النظار، 673. ابن سعيد: الجغرافية، 113. القلقشندي، صبح الأعشى، 286/5.

(2) ابن حوقل: صورة الأرض، 65.

(3) المقرري: نفح الطيب، 5/ 205-206.

(4) تحفة النظار، 681.

وكانت المراكز الدينية في مالي تدار من قبل علماء وفقهاء المغرب⁽¹⁾، مما أسهم في تنشيط حركة علمية في المدن المالية مثل تنبكتو ومالي وجني وجاو استمرت حتى بعد وفاة منسا موسى مراكز للثقافة الإسلامية في إفريقيا⁽²⁾.

كما نجد التأثير المغربي واضحاً في الحياة الثقافية في مالي من خلال استخدام الماليين الخط المغربي في مخاطباتهم الرسمية، ولعل كتاب منسا موسى الذي وجهه إلى الناصر بن قلاوون شاهد على ما نقول⁽³⁾، وإن انتشار المذهب المالكي كان واضحاً على صعيد دولتهم، ويذكر أن السلطان منسا موسى كان مالكيًا وفي حجه إلى مكة اشترى عدة كتب في فقه المالكية⁽⁴⁾.

ولما كانت المدن المغربية معروفة بزيادتها العلمية والدينية على صعيد تلك البلاد كان العلماء الذين يدرسون في مالي يقصدونها بين الحين والآخر لغرض الاستزادة من علومها، والالتقاء مع علماء وفقهاء المغرب، ويذكر أن عبد الرحمن التميمي الذي قدم من الحجاز في عهد منسا موسى توجه إلى فاس للدراسة بعد أن قضى فترة في تنبكتو يدرس السودانين العلوم الفقهية، ثم عاد إليها ثانية⁽⁵⁾.

ولم يقتصر التأثير المغربي على صعيد الحياة الثقافية والدينية فحسب، بل كان للمغاربة أثرهم في الحياة العمرانية أيضاً، فالسلطان منسا موسى استعان بخبرة العالم أبي إسحاق الساحلي⁽⁶⁾، الذي استخدم الطوب المحروق والأصباغ في تشيد قصره

(1) السعدي: تاريخ السودان، 57.

(2) طرخان: دولة مالي، 156.

(3) الفلقشندي: صبح الأعشى، 5/ 298. المنجد: مملكة مالي، 65.

(4) المقرئزي: الذهب المسبوك، 112 - 113.

(5) السعدي: تاريخ السودان، 51.

(6) ابن الخطيب: الكتبية الكامنة، 235.

وقسم من المساجد المالية⁽¹⁾، فكان ذلك سبباً في تغير طابع العمران بعد أن كانت البلاد المالية تعتمد في بنائها على الطابع البدائي حيث كانت بيوتهم من الطين وسقوفها من الخشب والقصب⁽²⁾، وقد وصفها أحدهم في معرض حديثه عن تنبكتو قائلاً بأنها «زرياب الأشواك وبيوت الاخشاش»⁽³⁾.

ثالثاً: العلاقة مع المماليك في المشرق:

حرص المرينيون ومنذ قيامهم على إظهار الاحترام لسلطين المماليك من أسرة قلاوون⁽⁴⁾، الذين تعاقبوا على حكم مصر وبلاد الشام، وذلك لتمتعهم بضخامة الملك وقيامهم برعاية وخدمة المراكز الدينية في الحجاز والقدس⁽⁵⁾.

ومن المفيد أن نذكر أن الدولة المرينية أيضاً كانت تحظى بمكانة خاصة وعميقة في نفوس سلاطين مصر والشام على عكس الدولتين الحفصية والعبداوية، وفي اعتقادنا أن ذلك يتعلق بأمرين أساسيين، أولهما: أنها كانت قد أخذت على عاتقها مهمة الجهاد والدفاع عن المسلمين في الأندلس، والوقوف في وجه التحالف

(1) ابن بطوطة: تحفة النظار، 683-684. السعدي: تاريخ السودان، 8.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، 5/283، وللمزيد عن قصر السلطان المالي ينظر: حسن: انتشار الإسلام والعروبة، 63.

(3) السعدي: تاريخ السودان، 21. وللمزيد عن التأثيرات المغربية في فن العمران لبلاد السودان المغربي، ينظر: المغربي، الحكم المغربي، 624 وما بعدها.

(4) تمكنت هذه الأسرة من الاحتفاظ بمنصب السلطنة في ذرية المنصور سيف الدين قلاوون ولفترة تزيد عن القرن من (678-784هـ / 1279-1382م) وكان عصرهم يمثل مرحلة ازدهار في دولة المماليك البحرية. للمزيد ينظر: عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، 249 وما بعدها.

(5) ابن خلدون: المعبر، 5/479.

النصراني على عكس الدولتين الحفصية والعبداوية اللتين انصرفتا عن ذلك فترات ليست بالقصيرة.

وثانيهما: يتعلق بقوة الدولة المرينية على صعيد المغرب العربي عموماً، فمنذ قيامها وهي مهية الجانب، بل أنها كانت تطمح إلى بناء دولة قوية تضم الدولتين المغربيتين أيضاً، وقد تحقق هذا الأمر في عهد السلطان أبي الحسن وولده أبي عنان، الأمر الذي لم يكن خافياً على أسرة قلاوون. ولعل ما ذكره ابن الوردي في تاريخه عن ضم السلطان أبي الحسن لتونس ما يكشف عن هذا الاهتمام المتزايد من قبل الممالك بهم قال: «وقد أوجس المصريون من ذلك خيفة، فإن بعض الأمراء الأذكياء واخبرني أن الملك الناصر محمد كان يقول: رأيت في بعض الملاحم أن المغاربة تملك مصر وتبيع أولاد الترك في سوقة مازن»⁽¹⁾.

أن السفارات: ات الطيبة كانت على حساب دولة أخرى كالعبداوية التي فترت علاقاتها مع الممالك بسبب الطابع الودي الذي كانوا يحفظونه للمرينيين، الأمر الذي دفع حكام تلمسان إلى التقليل من شأن الممالك، ومما زاد في الأمر سوء تعرض إحدى السفارات المصرية إلى النهب من قبل قطاع الطرق⁽²⁾، سنة 706 هـ - 1306 م قرب العاصمة تلمسان على الرغم من التماسهم توفير الحماية لهم، فأرسل الناصر بن قلاوون إلى سلطانهم أبي حمو يؤنبه، وزيادة في إيذائه بعث له هدية صغيرة تحقيراً له فرفضها⁽³⁾، على أن رغبة رجال الدولة العبدواوية في الاحتفاظ بعلاقة طيبة مع الممالك ظلت تلح عليهم حتى وجدنا ما يكشف عن ذلك في رسالة بعثها

(1) تنمة المختصر، 2/ 497.

(2) كانت السفارات والقوافل تتعرض للنهب من قبل بعض القبائل المنبشة هناك والتي غالباً ما كانت تعتمد في حياتها على السرقة والقتل. للمزيد ينظر، العبدري - الرحلة المغربية، 4. الوزان: وصف إفريقيا، 58.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 327، 5/ 421. المقرئ: السلوك، 2/ 49.

السلطان أبو قاشفين العبدوادي في سنة 725هـ - 1324م إلى الناصر يقول فيها:
«غير أن قلوبنا شيئا من ميلكم إلى غيرنا واستئناسكم ونحن والحمد لله اعلم الناس
بما يجب من حقوق ذلكم المقام الشريف، ولنا القدرة في القيام بواجبكم»⁽¹⁾.

ومهما يكن من أمر فقد تنوعت العلاقات ما بين الدولتين المرينية والمالكية في
مصر وهذه العلاقات هي:

أ- السفارات:

هناك من يشير إلى ابتداء العلاقات المرينية - القلاوونية منذ عهد المنصور
قلاوون⁽²⁾، غير أن هذه العلاقات انبعثت، وتشكلت بوضوح في عهد السلطان
يوسف بن يعقوب المريني الذي وحدها مع الناصر بن قلاوون، وكانت مهمتها
تنحصر في جوانب أساسية في مقدمتها: توفير المستلزمات والرعاية للمغاربة
الوافدين إلى الحج وزيارة المراكز الدينية المقدسة⁽³⁾، وإظهار حسن الجوار والاحترام
المتبادل من خلال الهدايا التي كانوا يبعثون بها والتي كانت مثار حديث وإعجاب
كل من شاهدها أو سمع بها⁽⁴⁾.

يضاف إلى ذلك: أن العمل الذي قام به السلطان يوسف بن يعقوب والممثل
بانتساح مصحف شريف وإرساله إلى مكة المكرمة، كان جانبا آخر من جوانب مهمة
السفارات المغربية التي انطلقت إلى الأراضي المصرية⁽⁵⁾، والحق نقول: أن هذه

(1) القلقشندي: صبح الأعشى، 8/ 86.

(2) ابن حجر: فتح الباري بشرح البخاري، 1/ 49. عبد الحي الكناي: التراتيب الإدارية،
1/ 157.

(3) المقرئزي: السلوك، 2/ 9. ابن خلدون: العبر، 7/ 226.

(4) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب، 387. ابن خلدون: العبر، 5/ 420. التجاني: الرحلة، 4.

(5) ابن خلدون: العبر، 7/ 226، وعن المصحف، ينظر ابن مرزوق: المسند الصحيح، 476.

المنوي: ورقات عن الحضارة المغربية، 1/ 131.

السفارات التي انطلقت في عهد السلطان يوسف بن يعقوب، أعطت للمرينين سمعة طيبة، ونهت المسلمين إلى دورهم السياسي، وكان من آثارها قيام أشرف مكة بإرسال البيعة له وحضور لبدة بن أبي نبي صاحب مكة إلى المغرب، وإذا كانت هذه البيعة تستخدم أحيانا من قبل أشرف مكة للضغط على سلاطين الممالك تحقيقا لأغراض خاصة بهم⁽¹⁾، إلا أنها كانت على الأقل تعني ارتفاع مكانة المرينيون وعلو شأنهم في نظر المسلمين.

ولم تذكر المصادر التاريخية أية إشارة إلى وجود سفارات سياسية بين البلدين منذ وفاة السلطان يوسف بن يعقوب حتى مجيء السلطان أبي الحسن المريني، باستثناء الإشارة السريعة التي وردت في جواب الناصر بن قلاوون سنة 737هـ - 1336م، حيث قال: «وقد كان أخونا أمير المؤمنين وسلطان الموحدين والدك (أي عثمان بن يعقوب) في كل آونة يخبرنا بمثل هذا الفتح، ويذكر لنا ما ناله من جزيل الفتح»⁽²⁾، والواقع أن هذا الأمر يعني أن الاتصال كان قائما ولم ينقطع، غير أنه لم يكن على غرار السفارات السياسية التي أرسلها السلطان يوسف بن يعقوب.

وفي عهد السلطان أبي الحسن ازدهرت العلاقات مع المشرق وذلك لأسباب أوردها ابن خلدون حيث قال: «له مذهب في ولاية ملوك المشرق والكف بالمعاهد الشريفة تقبله من سلفه وضاعفه لديه متن ديانته»⁽³⁾، والذي نراه أن ابتداء السفارات التي وقعت بين الدولتين هي سفارة عثمان بن جرار ومحمد بن مرزوق

(1) الناصري: الاستقصا، 3/ 84.

(2) القلفشندي: صبح الأعشى، 7/ 401-402، ونود أن نبين أن هذه الفقرة كانت من جواب بعثة الناصر بن قلاوون إلى أبي الحسن، وفيه تحريف إذ أنه مرسل إلى ابن أبي الحسن وهذا غير صحيح لأمرين الأول أن الناصر بن قلاوون لم يعاصر ابن السلطان أبي الحسن والثاني لأن الأحداث الواردة فيه كانت قد وقعت في عصر أبي الحسن.

(3) العبر، 7/ 264. الناصري: الاستقصا، 3/ 127.

التمساني والفقير عبد الرحمن بن عباد المراكشي التي اتجهت بعد أداء فريضة الحج والعودة من الحجاز إلى مصر فاستقبلهم الناصر بن قلاوون واستأذنه في وصول والده السلطان أبي الحسن، وقد أجاب الناصر إلى ذلك وأكد القيام بالواجب⁽¹⁾، وقد انطلقت هذه السفارة قبل وفاة والدته في سنة 736هـ - 1335م⁽²⁾، والجدير بالإشارة إليه: أن القلقشندي قد المح إلى هذه السفارة في أثناء رسالة أبي الحسن التي أشارت إليها، وبينت مقاصدها وهي رغبة والده أبي الحسن في أداء فريضة الحج⁽³⁾.

وفي سنة 737هـ - 1336م توجهت سفارة مرينية إلى مصر وكان سفيرها فارس بن ميمون بن وردار، وكانت مهمتها تنحصر في أهداف رئيسة في مقدمتها تعريف الناصر بن قلاوون بضم تلمسان عاصمة بني عبد الواد وتسهيل مهمة الحجاج المغاربة ورفع العوائق عن طريقهم⁽⁴⁾، وقد كشفت رسالة أبي الحسن عن حقائق مهمة في علاقة الدولة المرينية مع بني عبد الواد حكام تلمسان والدوافع التي حفزت سلاطين بني مرين إلى ضم عاصمتهم تلمسان وشن الحروب ضدها، كما

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 240-241.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 124، على عكس ما أشار في المسند من أن هذه السفارة توجهت سنة 737هـ.

(3) صبح الأعشى، 8/ 89-90. ونود أن نشير إلى أن اسم السفير أورده القلقشندي في الصفحة 89 باسم أبي عبد الله محمد بن الجراح، وهذا تحريف، إذ أن من يذهب في مهمة كهذه لابد أن تكون شخصية معروفة وهذا ينطبق على عثمان بن جراح الذي ورد ذكره أيضاً في سفارة 745هـ - 1344م في حين أن محمد بن الجراح لم يأت ذكره ثانية ويجدر بالذكر أن المؤرخ المنوني وقع ببعض المفقوات في هذه المسألة نفسها وفي تحديد سنة وفاة والده السلطان، ينظر: ابن مرزوق، المسند الصحيح، 241 و477 و124. وحول ما ذكره المنوني، ينظر: ورقات عن الحضارة المغربية، 137-138، ويذكر أن: «عثمان بن يحيى بن جزار ينسب إلى علم الحدثان وقد أخبر أبا عنان بتعبير الملك له بعد أبيه، فقربه». الناصري: الاستقصا، 3/ 164-165.

(4) ابن خلدون: العبر، 7/ 264.

كشفت أيضاً عن واقع المسلمين في ظل بني نصر في غرناطة والأخطار المحدقة بهم، والضرائب السنوية التي كان التصريون يدفعونها إلى الإسبان، ومحاولات الأعداء في السيطرة على مضيق جبل طارق، كما كشفت عن ضم سجلهااسة إلى الدولة المرينية⁽¹⁾.

وأما الجواب الذي بعثه الناصر بن قلاوون في هذه السفارة فقد كشف عن وجهة نظر الممالك فيما حملته الرسالة المرينية، إضافة إلى إيرادها أخبار الجيوش الناصرية وهي تحارب قوات الإسبان، وتسيطر على العديد من القلاع مثل اياس وبكاورا⁽²⁾، وعلى أية حال فقد كانت الرسائل المتبادلة تمثل صدى للدور السياسي والعسكري الذي يقوم به الدولتان، وسبيلا للتعرف على أحوال المسلمين في المشرق والمغرب.

وتوجهت سنة 738هـ - 1337م سفارة مرينية مرافقة للركب المغربي الذي سار لأداء فريضة الحج، ونقل المصحف الشريف الذي نسخه بيده السلطان أبو الحسن لإيقافه بالمسجد النبوي⁽³⁾، وكانت أيضاً تروم إخبار الناصر بعزم الحرة مريم مرينية أبي الحسن بالحج بعد أن اقتضت الوعد منه⁽⁴⁾، وقد ترأست هذه السفارة شخصيات مغربية بارزة أمثال عريف بن يحيى وأبي الفضل محمد بن أبي مدين وعجو بن قاسم⁽⁵⁾، وذاع صيتها في مصر، وقدم بعض المؤرخين وصفا لاستقبالها في مصر⁽⁶⁾، أما الهدية التي بعثها أبو الحسن إلى الناصر بن قلاوون فقد تحدث عنها

(1) نص الرسالة في القلقشندي: صبح الأعشى، 8/ 87-99.

(2) نص الرسالة في القلقشندي: صبح الأعشى، 7/ 395-407.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 264.

(4) ابن خلدون: العبر، 5/ 440.

(5) ابن خلدون: العبر، 7/ 265.

(6) المقرئزي: السلوك، 2ق 2، 447-448.

كثيرون، ووصفوها، وذكرها ما اشتملت عليه من تحف نادرة وأشياء ثمينة⁽¹⁾، على أن الهدية الناصرية لا تقل قيمة عنها، فقد اشتملت أيضاً على الأصناف الشرقية الثمينة⁽²⁾، إضافة إلى الكسوة العتيقة⁽³⁾.

ومن المفيد أيضاً أن نشير إلى الرسالتين اللتين تبادلتهما السلطانان في السفارة نفسها، فقد أشارت رسالة السلطان أبي الحسن إلى الجوانب التي تروم تحقيقها السفارة في رحلتها إلى مصر والحجاز، مشيرة إلى الدافع الرئيسي لها المتمثل بإيصال المصحف الذي استنسخه بيده، كما أوصت الرسالة بتسهيل مهمة الحرة مريم، بشراء «البلاد المحوطة من المستغلات ما يكون وفقاً على القراء فيه، مؤبداً عليهم وعلى غيرهم من المالكية - فوائده ومجانية»⁽⁴⁾، في حين أجابت الرسالة الناصرية إلى وصول أعضاء السفارة المرينية مع تأكيد حرص الناصر على رعاية الركب المريني وتوفير الأمن والراحة له في ذهابه إلى الديار المقدسة وعلى حد تعبير الرسالة «ويسرنا لهم باعتنائنا كل مرام، وأمرنا بتسهيل طريقهم، توصيل البر لفريقهم، وإرسالنا الخلع على جميعهم، واحتفلنا بهم في قدومهم ومقامهم وتشبيعهم، وأجزلنا لهم أقسام الأنعام في توجيهمهم وكذلك يكون في رجوعهم» كما نظرت إلى الهدية المغربية التي أرسلها أبو الحسن بما نصه «وعرضوا بين أيدينا ما أصبحتهم من الطرف والهدايا التي لا تحملها ظهور البحار فكيف ظهور المطايا» وكذلك أجابت على ما ورد في الرسالة المرينية⁽⁵⁾، وانطلق إلى المغرب وفداً من المماليك بصحبة الحرة مريم في سنة

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 452-453. ابن خلدون، العبر، 7/ 265، للمزيد عن هذه

السفارة ينظر، المتوفى: ورقات عن الحضارة المغربية، 149-152.

(2) ابن خلدون: العبر، 5/ 441. ابن خلدون: الرحلة، 339.

(3) العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، 1/ 100-101.

(4) نص الرسالة في القلقشندي: صبح الأعشى، 7/ 99-103.

(5) نص الجواب في القلقشندي: صبح الأعشى، 7/ 389-395.

739-1338م، وكان فيهم الشجاع فيغلي الثرى وصل إلى القاهرة في سنة 740هـ-1339م⁽¹⁾.

واستقبلت مصر سفارة جديدة في سنة 739هـ-1338م ردا على الهدايا الناصرية التي وصلت إلى المغرب⁽²⁾، أعقبتها سفارة جديدة في سنة 740هـ-1339م كانت تحمل النسخة الثانية التي كتبها السلطان أبو الحسن من المصحف الشريف، وأشار المؤرخون إلى أنها بعثت إلى المدينة المنورة⁽³⁾، والذي نميل إليه ما رجحه المنوني بقوله «وعلى هذا يكون المصحف الكريم المبعوث مع هذا الركب 740هـ-1339م وفقا على القراء بالمسجد الحرام بمكة المكرمة لا بالمسجد النبوي بالمدينة المنورة»⁽⁴⁾.

شهدت سنة 741هـ-1340م حدثا مهما على صعيد العلاقات المرينية - المماليكية تمثل بوفاة الناصر بن قلاوون⁽⁵⁾، التي كانت بداية لعهد اضطراب سياسي على صعيد العرش المماليكي⁽⁶⁾، وكانت سببا أيضاً لتوقف العلاقات السياسية مع المرينين على الرغم من وجود إشارة إلى أن السلطان أبا الحسن أرسل في سنة 742هـ-1341م الربعة المغربية إلى الديار المصرية برئاسة أبي الفضل بن أبي مدين مع الهدية التي أرسلت إلى أهالي الحرمين⁽⁷⁾.

(1) مجهول: نصوص عن الممالك، 308.

(2) المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، 158.

(3) ابن خلدون: العبر، 7/ 265. الناصري: الاستقصا، 3/ 131. للمزيد ينظر ما أضافه ابن مرزوق في المسند الصحيح، 475-476.

(4) ورقات عن الحضارة المغربية، 159.

(5) ابن كثير: البداية والنهاية، 14/ 190. ابن العماد: شذرات الذهب، 6/ 135.

(6) عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، 284-286.

(7) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 477.

وفي سنة 745هـ - 1324م انطلقت سفارة مرينية جديدة إلى مصر استقبلها الملك الصالح أبو الفدا، وضمت وفدا مرينيا كبيرا كان في مقدمته أبو الفضل بن أبي مدين وعثمان بن جرار ومريم بنت أبي سعيد أخت السلطان أبي الحسن⁽¹⁾.

وكشفت الرسائل المتبادلة بينهما عن الأغراض التي قامت من أجلها هذه السفارة وفي مقدمتها تقديم العزاء ب وفاة والددة الناصر والوقوف على المصحفين الشريفين اللذين أرسلهما أبو الحسن، والأوقاف التي أجريت لهما، كما تطرقت إلى خسائر الدولة المرينية في موقعة طريف وضياح الجزيرة الخضراء، وأشارت أيضاً إلى خسارة الدولة المرينية «سبعا وسبعين قطعة غزوية» وأيضاً الإشارة إلى الصلح الذي أبرم بين صاحب غرناطة آنذاك بالنيابة عن السلطان أبي الحسن مع ملوك الإسبان⁽²⁾، وقد أجاب الملك الصالح برسالة⁽³⁾، على ما ورد في رسالة السلطان أبي الحسن، ويضيف المقرئ إلى أن الحرة مريم حملت رسالة ثانية ترجو فيها أن يقف الخطباء في يوم الجمعة للدعاء لأخيها الذي كان يزعم القيام بمعركة جديدة مع الإسبان⁽⁴⁾.

ومن المفيد أن نذكر أن بعض الباحثين يذكر أن هذه السفارة كانت نتيجة لاندحار أبي الحسن في موقعة طريف والتماسه المساعدة، بيد أن هذا الاستنتاج غير صحيح⁽⁵⁾، وذلك لأن التشاور السياسي كان مستمرا بين فاس والقاهرة قبل هذه

(1) الناصري: الاستقصا، 3/ 104. ابن مرزوق، 477.

(2) نص الرسالة في المقرئ: نفح الطيب، 4/ 386-394. الناصري: الاستقصا، 3/ 143-147.

(3) نص الجواب في المقرئ: نفح الطيب، 4/ 394-398. الناصري: الاستقصا، 3/ 147-151.

(4) السلوك، ح 2 ق 3/ 670. المقرئ: نفح الطيب، 4/ 403.

(5) شبانة: يوسف الأول، 140. شبانة: السياسة الخارجية لمملكة غرناطة، 44-45.

الموقعة، وإن ما ذكر من خسائر في رسالة المرينين لم يكن لغرض طلب المساعدة بل كان عرفا جاريا في رسائل الطرفين.

وكانت آخر سفارة مرينية توجهت إلى المماليك على عهد السلطان أبي الحسن في سنة 749هـ - 1348م مهمتها القبض على الوزير ابن تافراجين، فاستقبلها الناصر حسن، إلا أنه لم يستجب لطلبها⁽¹⁾.

بقي أن نذكر الثقافية: يعتقد قيام سفارة مرينية قبل هذا العهد أي في سنة 747هـ - 1336م كانت مهمتها نقل المصحف الشريف الثالث الذي استنسخه السلطان أبو الحسن وأوقفه على المسجد الأقصى⁽²⁾، وقد ذكره ابن الوردي في تاريخه⁽³⁾، وما زال هذا المصحف ببيت المقدس⁽⁴⁾، يضاف إلى أن المغاربة كان دأبهم تملك العقار في تلك البقاع ووقفها على المغاربة الوافدين إلى هناك⁽⁵⁾.

(1) الناصري: الامتصاص، 3/ 162. الزركشي: تاريخ الدولتين، 91.

(2) المنوي: ورقات عن الحضارة المغربية، 167-168.

(3) تنمة المختصر، 2/ 497-498.

(4) التازي: أوقاف المغاربة في القدس، 22. وعن المصحف ما كتبه عبدالله مخلص عضو المجمع العلمي العربي. المنوي: ورقات، 170-178. المنوي: تاريخ المصحف الشريف بالمغرب، 22-23.

(5) التازي: أوقاف المغاربة في القدس، 131-وما بعدها.

ب - العلاقات الثقافية:

أما فيما يخص العلاقات ما بين الماليك والمرينيين آنذاك فلم تقتصر على العلاقات السياسية فحسب، بل شملت العلاقات الثقافية والاقتصادية أيضاً، فمن حيث العلاقات الثقافية، كانت القاهرة عاصمة الماليك محل اعتزاز في نفوس المغاربة والأندلسيين⁽¹⁾.

ولم يخفت هاجس العالم المغربي، وكان واثقا بأنه لن يجد ضالته العلمية إلا في المشرق، كما كان علمه لا يقنع النفس ما لم يضعه في ميزان الشرق، فانتعشت الرحلة في ذلك العصر ما بين المغرب والمشرق وما رحلة ابن بطوطة في الفترة نفسها إلا تنويع لحقيقة ما أسلفنا، والذي ذكر فيها على سبيل المثال لا الحصر عددا من العلماء الذين وجدهم في القاهرة ونذكر منهم ركن الدين بن القوبع التونسي وأبا حيان الغرناطي وشرف الدين الزواوي⁽²⁾.

أما الرحالة خالد بن عيسى البلوي، فما أن استقر في مدينة الإسكندرية حتى باشر اللقاء مع العلماء والأخذ عن الفضلاء⁽³⁾، وكذلك الوادي اشي الذي رحل إلى الشرق، ولقب بصاحب الرحلتين واخذ عن اعلام القاهرة والخليل والقدس ودمشق ومكة والمدينة⁽⁴⁾، و«حدث بمصر والشام والحجاز وبلاد المغرب، وكان قد انفرد بالديار المصرية يعلوا الموطأ من رواية يحيى بن يحيى»⁽⁵⁾.

(1) البلوي: تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، 1/ 216. السيوطي: حسن المحاضرة، 2/ 94.

(2) تحفة النظار، 46، وللمزيد ينظر: الشيال: الصلات الثقافية بين المغرب والإسكندرية، 98-

(3) البلوي: تاج المفرق، 1/ 200 وما بعدها.

(4) ابن حجر: الدرر الكامنة، 4/ 34.

(5) المكي: لحظ الألفاظ، 116.

وشهدت تلك الفترة أيضاً استقرار العلماء المغاربة في مصر والمدن الشرقية الأخرى فأبو حيان الغرناطي الذائع الصيت استقر في القاهرة، وقبل بحقه ما نصه و«شدت إليه الرحال من أقاليم الشام وأقاصي العراق»⁽¹⁾، وابن دحية السبني الذي استقر في القاهرة، وعلم الملك الكامل⁽²⁾، ابن الحاج صاحب المدخل الذي توفي في القاهرة سنة 737هـ - 1636م⁽³⁾، والزواوي الذي انتهت إليه رئاسة المالكية بالديار المصرية والشامية آنذاك⁽⁴⁾.

ويضاف إلى ذلك بأن ما حازه الجامع مع الأزهر في القرن الثامن الهجري من الزعامة الفكرية والثقافية لما يتوفر فيه من تنوع واتساع في الحلقات، وتيسير لأسباب الدراسة، حفز طلبة العلم إلى زيارته⁽⁵⁾، وقد امتلك المغاربة فيه رواقاً باسمهم أقيم بالجانب الغربي من صحنه⁽⁶⁾، وسماه التازي بالبعثة العلمية الدائمة للمغرب في مصر، وكانت مهمته تنحصر فيما يحرر هناك حول الفقه المالكي، ودوره في تكوين الأطر اللازمة لنشره في الغرب والشرق⁽⁷⁾.

ج- التبادل التجاري:

ارتبط المغرب ببلاد المشرق بروابط ومصالح اقتصادية مهمة، فقد لقيت التجارة بين البلدين رعاية واضحة، خاصة وإن حركة التجارة في عصر الدولة

(1) البلوي: تاج الفرق، 1/ 227. وللمزيد ينظر ابن العماد: شذرات الذهب، 6/ 145 - 148.

(2) السيوطي: حسن المحاضرة، 1/ 355.

(3) السيوطي: حسن المحاضرة، 1/ 459.

(4) السيوطي: حسن المحاضرة، 1/ 459 - 460.

(5) عنان: تاريخ الجامع الأزهر، 118 - 120.

(6) مبارك: المخطط الجديدة التوفيقية لمصر والقاهرة، 4/ 22.

(7) رواق المغاربة بالأزهر الشريف، 4-5.

القلاوونية انتعشت، وسعت الدولة إلى توفير مستلزمات الراحة للتجار، وأوصت نوابها باتباع العدل والتشجيع للتجار القادمين إلى مصر⁽¹⁾، إضافة إلى إنشائها الفنادق والحانات تسهيلاً لمهمة التجار الأجانب⁽²⁾.

وتأكيداً على نشاط الحركة التجارية في مصر، يصف لنا ابن بطوطة مرسى الإسكندرية قائلاً: «ولم أر في مراسي الدنيا مثله»⁽³⁾، وكذلك المنشآت الأخرى في هذه المدينة⁽⁴⁾، التي تمثل البوابة الطبيعية للمغاربة الذين يأتون إلى مصر عن طريق البر حتى سميت «بباب الغرب»⁽⁵⁾، على أن هذا الازدهار الذي شهدته المدن التجارية في مصر كان يقابله أيضاً زيادة شأن المواني المرينية فسبته التي وصفها مؤلف مسالك الألبصار⁽⁶⁾: بأنها من فرض البحر العظيمة لكثرة ما يرد عليها من مراكب المسلمين والنصارى من كل جهة، وجميع طرف الدنيا أو غالبها موجودة فيها» وعن تجارتها يقول آخر «ومحط قوافل العصير والحريز والكتان»⁽⁷⁾.

(1) القلقشندي: صبح الأعشى: 11 / 421.

(2) زقلمة: الماليك في مصر، 138.

(3) تحفة النظار، 20.

(4) ومن المشاريع الأخرى بناء المنار وإصلاح الخليج الناصري، للمزيد ينظر: الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، 131 وما بعدها.

(5) الشيال: تاريخ مدينة الإسكندرية، 83. للمزيد عنها ينظر، ابن سعيد: الجغرافية، 147-148.

(6) المنوفي: ورقات عن الحضارة المغربية، 109.

(7) ابن الخطيب: معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، 146.

أما ميناء غساسة⁽¹⁾، فهو «مرسى مطروق بكل ما يروق، ومرفأ جارية تحرية ومحط جباية بحرية»⁽²⁾، إضافة إلى الموانئ الأخرى التي تطل على المحيط الأطلسي ومنها سلا⁽³⁾، وانغا «الدار البيضاء»⁽⁴⁾، وفيما يخص التجارة البرية فقد اتخذ المغاربة الطريق الذي يعرف بالسكة والمحاذي لساحل البحر الأبيض المتوسط للمتاجرة مع مصر وبلاد المشرق⁽⁵⁾.

أما فيما يتعلق بطبيعة التبادل التجاري، فقد كانت التجارة مع مصر والمشرق عموما مرتبطة بمواسم الحج والمواسم الدينية، وكثيرا ما كان التاجر المغربي يحمل معه منتجات المغرب لبيعها هناك، بينما يرجع إلى بلاده محملا بمنتجات مشرقية ذات قيمة بغية بيعها في المناطق التي يمر بها وصولا إلى مدينته في المغرب الأقصى⁽⁶⁾.

ولابد أن تكون المواد التي اشتهرت بزراعتها أو تصنيعها مدن المغرب العربي، قد بيعت في بلاد مصر أو أنها عبرت من أراضيهم إلى بقاع أخرى من العالم الإسلامي آنذاك، وتاجر بها تجار المغرب الأقصى كالعسل الأبيض والزيت والتمر والفستق ودهن البنفسج وخل العنصل والكتان والزجاج الصافي والتفاصيل

(1) غساسة: مدينة ذات موقع يقرب من مصب نهر الملوية بالبحر المتوسط، وهي مرسى مهم أجهز عليه الاستعمار الإسباني عام 1497م. للمزيد ينظر الوزان: وصف إفريقيا، 345.

(2) ابن الخطيب: معيار الاختيار، 183.

(3) سلا: مدينة تقع على المحيط الأطلسي، ويفصلها عن الرباط نهر أبي رقراق، للمزيد ينظر: الزياتي: الترجمة الكبرى، 78. الحموي، المعجم: 3/ 231. مجهول: الاستبصار، 140-141.

(4) ابن الخطيب: معيار الاختيار، 156.

(5) ابن خرداذبة: المسالك والممالك، 116-117. حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، 4/ 405.

(6) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، 138.

الصوفية التي اشتهرت في الإسكندرية وكذلك الجلد الغدامسي إضافة إلى بعض الفواكه الأخرى⁽¹⁾.

واسهم التاجر المغربي أيضاً بنقل الجوت الأبيض المعروف بالسائل إلى مختلف الأقطار، كما قام بتصدير خشب الأرز المشهور في صناعة الأساطيل، وكان واسطة في تصدير بعض السلع العائدة للمدن الإسلامية في الأندلس كالتين واللوز المملقي وثياب الحرير الموشاة بالذهب ذات الصنائع الغربية من مالقة ومرسية وغيرها⁽²⁾.

أما المواد التي عني التاجر المغربي باستيرادها من بلاد مصر، فمن أبرزها الكثير من الغلات كالسكر والكتان وبعض الفواكه، ولعل ميناء سبته كان من بين الموانئ التي حطت به بضائع الهند وغيرها من الأقطار بعد مرورها بالديار المصرية⁽³⁾.

(1) ابن سعيد: الجغرافية، 125-128، وينظر كذلك عن بقية البضائع، 140-141.

(2) ابن سعيد: الجغرافية، 138، 139، 140. وكذلك عن بعض بضائع بلاد الأندلس التي نقلها التاجر المغربي ومنها الفستق القفصي إلى مصر، ينظر، الاستبصار، 153. وللمزيد ينظر، المقرئ: نفح الطيب، 1/ 201. 3/ 213. الحميري: الروض المعطار، 19.

(3) ابن سعيد: الجغرافية، 129 و139. موسى: النشاط الاقتصادي، 328-329.

الفصل الثالث

العلوم النقلية والعقلية في المغرب

اكتسبت البيئة المغربية على عهد المرينيين حظاً وافراً من العلوم النقلية والعقلية، وحاز بعضها مكانة مرموقة بين العلوم آنذاك حتى باتت علامة بارزة للعصر المريني وغاب البعض الآخر بسبب الاتجاهات الفكرية التي سادت في عصرهم.

ومن بين الحقائق البارزة بالنسبة للعلماء، اتسامهم بالثقافة الموسوعية مع بلوغهم شوطاً كبيراً في بعض من العلوم، والسبب يعود بالدرجة الأولى إلى الارتباط الوثيق فيما بينها، وإن إغفال أي ميدان منها يعد خللاً لا يمكن التغاضي عنه⁽¹⁾، وهذا الأمر دفع الكثير منهم إلى الاشتغال بعدد ليس بالقليل من العلوم، بل وعدوا ذلك ظاهرة يفخر بها أصحابها⁽²⁾، وإن كنا نرى عكس ذلك لما يصاحب ذلك من توزيع في قابلية العالم واجتهاده.

وللتعرف على طبيعة العلوم التي ظهرت في البيئة المغربية آنذاك، سنقوم بدراسة بشيء من الدقة وعلى الوجه التالي:

(1) ابن الأزرقي: روضة الاعلام: ورقة 165.

(2) عبر الشاعر علي بن دلفة الحمداني المكناسي (توفي 749 هـ - 1348 م) في قصيدة رفعها إلى السلطان أبي الحسن المريني عن هذا الاتجاه تعبيراً دقيقاً. للمزيد ينظر، ابن الأحمر: نثر فرائد الحمان، 345.

أولاً: العلوم النقلية:

1- علوم القرآن:

أ - علم القراءات:

لم يزل علم القراءات من العلوم الأساسية التي حظيت بعناية المسلمين قاطبة، حتى دوت هذه القراءات التي نقلت من عصر النبي (ﷺ) وصحابته، وأصبحت على هذا الأساس علماً يسهل بوساطته على القارئ المسلم أداء القرآن الكريم بصورة صحيحة، ولم يكن علم القراءات بعيداً عن اهتمام علماء العصر المريني فصار من العلوم التي تخصص فيها بعض الرجال.

ومن قبيل العناية بعلم القراءات، خصص السلطان أبو الحسن رواتب لعشرة من القراء، يقرؤون حزباً من القرآن في سائر البلاد⁽¹⁾، وكما أخذ في رحلته إلى إفريقية شيخ علم القراءات في المغرب الأقصى للانتفاع بعلمه⁽²⁾.

والواقع أن القراءة المعتمدة على هذا العهد كانت قراءة نافع بن أبي نعيم (توفي 169 هـ - 785 م) التي تجمع روايتي ورش (توفي 197 هـ - 812 م) وقالون على مذهبي الحافظ أبي عمرو الداني (توفي 444 هـ - 1052 م) والإمام أبي عبد الله بن شريح (توفي 476 هـ - 1083 م)⁽³⁾.

أما الكتب التي راجت في علم القراءات على هذا العهد فأبرزها كتاب التيسير لأبي عمرو الداني⁽⁴⁾، الذي قال ابن خلدون في حق مؤلفه: «وبلغ الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها وانتهت إلى روايته أسانيداً وتعددت تأليفه فيها وعول الناس

(1) الجزنائي: جني زهرة الأس، 80.

(2) ابن خلدون: الرحلة 46.

(3) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة المقرئ أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أبي بكر.

(4) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة المقرئ أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أبي بكر.

عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له⁽¹⁾، وكتاب الكافي لابن شريح⁽²⁾، والشاطبية المعروفة «بحرز الأمان» لأبي القاسم محمد الرعيني الشاطبي (توفي 538 هـ - 1143 م)⁽³⁾، ورجزا أبي الحسن علي بن بري في قراءة نافع⁽⁴⁾.

ومن أبرز علماء هذا العلم على عهد السلطان أبي الحسن أبو العباس أحمد بن محمد الزواوي⁽⁵⁾، ذكره ابن خلدون قائلاً: «كان إماماً في فن القراءات وصاحب ملكة فيها لا تجارى، وله مع ذلك صوت من مزامير آل داود»⁽⁶⁾، وأبو عبد الله محمد بن الصفار (توفي 761 هـ - 1359 م) الذي أصبح إمام القراءات في عهد السلطان أبي عتات وهو من أهالي مراكش وقيل عنه أنه «كان يعارض السلطان القرآن برواياته السبع»⁽⁷⁾، وعلي محمد بن علي بن محمد ابن الحسن التازي الشهير بابن بري (المتوفى 731 هـ - 1330 م)⁽⁸⁾، ومحمد ابن علي بن هاني اللخمي

(1) المقدمة: 438.

(2) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة المقرئ أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أبي بكر. ابن غازي: الفهرسة، 96.

(3) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة المقرئ أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أبي بكر، وترجمة أبي الحجاج يوسف بن الحسن أبي بكر النسولي الورتناجي وترجمة يوسف بن رضوان النجاري. (4) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة أبي محمد عبد الله بن أحمد بن أبي بكر.

(5) توفي في سنة 749 هـ ترجم له ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 22. درة الحجال، 1/ 94 - 95.

(6) الرحلة، 46. ابن الجزري: غابة النهاية، 1/ 125. نوبض: معجم أعلام الجزائر، 161.

(7) ابن خلدون: الرحلة، 61. ابن قنفذ: الوقيات، 359 - 60.

(8) كنون: النبوغ المغربي، 1/ 219.

السني⁽¹⁾، وأبو القاسم بن عمران الحضرمي (توفي 750 هـ - 1349 م) وقيل عنه أنه «سند عال متصل السماع لا نظير له في المغرب وله معرفة بالقراءات»⁽²⁾.

وقد ألف علماء تلك الفترة عددا من الكتب المتعلقة بعلم القراءات، كان من بينها كتاب «الدرر اللواقع في قراءة نافع» لابن برى⁽³⁾، وكتاب «نظم الفريد في أحكام التجويد» لأبي العباس أحمد بن محمد الحسني (توفي 737 هـ - 1336 م) وهو من الكتب التي أخذها ابن غازي عن السراج⁽⁴⁾، وتأليف في القراءات لمحمد بن إبراهيم الصفار المراكشي (توفي 761 هـ - 1359 م)⁽⁵⁾، وكتاب الشافي في اختصار التيسير والكافي لابن القاسم بن عمران الحضرمي⁽⁶⁾.

ب - علم التفسير:

يعد علم التفسير من العلوم الأساسية في فهم القرآن الكريم، ومن أجل ذلك، لم ينقطع علماء العصر المريني عن دراسة هذا العلم واختيار التفسير الذي يتناسب ومذهبهم السني، أي التفسير بالمأثور.

والواقع أن من بين كتب التفسير التي كان علماء هذا العصر يتناولونها بالدراسة والتعليم كتاب الكشاف للزمخشري الذي اشتهر مؤلفه بمذهب المعتزلة⁽⁷⁾، وكتاب «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» قال عنه ابن سعيد:

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 143-154. السيوطي: بغية الوعاة، 1/ 192. ابن القاضي: لقط الفرائد، 187.

(2) مجهول: بلغة الأمانة، 177.

(3) كنون: النبوغ المغربي، 1/ 219.

(4) ابن غازي: الفهرسة، 100.

(5) التنبكي: نيل الابتهاج، 765.

(6) مجهول: بلغة الأمانة، 177-178.

(7) ابن خلدون: المقدمة، 440.

«ولأبي محمد ابن عطية الغرناطي في تفسير القرآن، الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق وصاحبه من فضلاء المائة السادسة»⁽¹⁾، وقال عنه ابن خلدون: «وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب فلخص تلك التفسير كلها وتحرى ما هو اقرب إلى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس حسن المنحى»⁽²⁾.

ومن الأمور الجديرة بالذكر في هذا الموضوع أن الدولة المرينية كانت على النقيض من مذهب المعتزلة وذلك لاعتماد المعتزلة على العقل أكثر من اعتمادهم على الأثر والنقل⁽³⁾، وكان ذلك من الأسباب التي أبعدت مذهب المعتزلة عن الحياة العلمية في المغرب على الصعيدين الرسمي والشعبي، أما على الصعيد الرسمي فقد كان السلطان أبو الحسن يبعد عن مجلسه كل ما يتعلق بالمعتزلة، جاء في المسند الصحيح: «إذا عرضت أدلة المعتزلة والخارجين عن مذاهب أهل السنة، يقول: «دعوا هذا»، ومهما ذكر مذهب من المذاهب، الملقوطة، ينهى عن الخوض فيه، ويزجر دأكره»⁽⁴⁾.

أما على الصعيد الشعبي فقد دأب بعض العلماء المرينيين أمثال محمد بن أبي العابد الأنصاري (توفي 762 هـ - 1360 م)⁽⁵⁾ على اختصار تفسير الزمخشري وأزال منه كل ما يتعلق بمذهب مؤلفه المعتزلي⁽⁶⁾.

(1) المقرئ: نفح الطيب، 3/ 179.

(2) المقدمة، 440.

(3) الحسين: مظاهر النهضة الحديثة، 1/ 80.

(4) ابن مرزوق، 133.

(5) ذكره الباحث الحسين في مظاهر النهضة الحديثة، 1/ 82، بان وفاته في 662 هـ وهذا غير صحيح.

(6) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 231.

ومهما يكن من أمر، فقد برز من بين العلماء المرينيين من اهتموا بعلم التفسير ونعتهم كتب التراجم بذلك أمثال محمد بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى القرشي (توفي 776 هـ - 1356 م)⁽¹⁾ وموسى بن محمد بن معطي العبدوسي (توفي 776 هـ - 374 م)⁽²⁾، ومحمد بن علي بن هاني السبتي (توفي 733 هـ - 1332 م) الذي اهتم بصحيح مسلم وكتب عليه⁽³⁾.

2 - علم الحديث:

دأب علماء تلك الفترة على دراسة علم الحديث، وما يتعلق به من علوم لأن دراسته إضافة إلى خصوصيته متأدية من كونه الأساس الثاني للتشريع الإسلامي، وقد اقترن أيضاً بالمصنفات الفقهية التي التزمها أهل المغرب في مختلف العصور.

ومن البديهيّات التي لا بد أن نشير إليها أنه ما من فقيه اشتهر بالفقه إلا وكان من العارفين بعلم الحديث وضوابطه، وكلما زادت مرتبته بين علماء الفقه ازداد تعمقا في الحديث أيضاً، وغني عن البيان في هذا الموضوع أن نذكر أرضية المغرب، وبروزها في ميدان الدراسات الفقهية على هذا العهد⁽⁴⁾ ومع كل ذلك نجد من ينجي باللائمة على عصره في غياب المهتمين بعلم الحديث، قال ابن رشيد: «على أي لم أواف هذا العلم بأفقنا الأكاسدة سوقه، غامرة سوقه، متقلصا بسوقه، قد تلفت بضاعته، ودرست صنائعه، وقطع الجهال أسلاكه، ولم يملك العلماء في بلادنا ملاكه، حتى تفرقت أنفاسه شعاعا، وكفت شمسوه وخسفت بدوره، فلم يلتحموا لها نورا

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 2/ 195. السيوطي: بغية الوعاة، 1/ 1. ابن القاضي: جذوة

الاقتباس، 1/ 298، وللمزيد عنه ينظر في التصوف.

(2) ابن القاضي: درة الحجال، 3/ 5-6.

(3) ابن القاضي: درة الحجال، 2/ 112-113. وللمزيد من ابن هاني ينظر في علم اللغة.

(4) ينظر الدراسات الفقهية.

ولا التمعوا شعاعا فعتلت فوائده، ونثرت فوائده، تنوسيت مقاصده ومعانيه، وأفقرت معاهده ومغانيه..⁽¹⁾

وعلى كل حال، لم تكن مراتب علماء الحديث في منزلة واحدة، بل وضعوا لذلك ضوابط شأنهم في ذلك شأن الأقاليم الأخرى، فعرفوا المحدث بأنها: «من اشتغل بالحديث رواية ودراية واطلع على كثير من الرواة والروايات في عصره وتميز بذلك حتى عرف فيه خطه واشتهر فيه ضبطه، فإن توسع في ذلك حتى عرف شيوخه وشيوخ شيوخه، طبقة بعد طبقة، بحيث يكون ما يعرفه لكثير مما يجهله منها، فهذا هو الحافظ»⁽²⁾.

وقد أقبل العلماء في ذلك العهد على دراسة كتب الحديث، وكان من أبرزها صحيح الإمام البخاري (توفي 251 هـ - 865 م) الذي حظي لديهم بمنزلة طيبة، ولم يرق إليه أي جامع للحديث، قال عنه ابن خلدون: «ولقد سمعت كثيرا من شيوخنا.. يقولون شرح كتاب البخاري دين على الأمة يعنون أن أحدا من علماء الأمة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار»⁽³⁾، وجاء عن مجلس أبي الحسن أن من أكثر الكتب الخاصة بالحديث التي كانت تقرأ فيه كتاب البخاري، وقالوا فيه «هو الكتاب الذي لا نظير له أحد كتب الإسلام المعتمدة وهو أصحها وأكثرها فوائد»⁽⁴⁾، وتلاه منزلة صحيح الإمام مسلم (توفي 261 هـ - 874 م) وإن كان ما ذكره ابن خلدون عن قناعة علماء المغرب به، وأنهم يفضلونه على صحيح البخاري بقوله: «وأما صحيح مسلم فكثرت عناية علماء المغرب به واكبوا عليه واجمعوا على

(1) افادة النص، 3.

(2) الكتاني: فهرست الفهارس، 1/ 76.

(3) المقدمة، 443.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 275.

تفضيله على كتاب البخاري»⁽¹⁾ أما الثالث فهو الموطأ للإمام مالك (توفي 179هـ - 795م) الذي حظي باهتمام علماء المغرب فهو كتاب إمامهم الذي «أودعه أصول الأحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه»⁽²⁾.

واهتمام العلماء المرينيين لم يقتصر على هذه الكتب بل درسوا أيضاً العديد من الكتب من بينها «الجامع ما في آخره من العلل» لأبي عيسى الترمذي (توفي 279هـ - 829م) والسنن لابن ماجه (توفي 273هـ - 886م) والسنن لأبي داود (توفي 275هـ - 888م) والسنن للنسائي (توفي 303هـ - 915م) وكتاب (الجمعة) للنسائي، والسنن للدارقطني (توفي 385هـ - 995م) والشفاء للقاضي عياض (توفي 544هـ - 1149م)⁽³⁾ وعلوم الحديث لابن الصلاح (توفي 643هـ - 1245م)⁽⁴⁾.

وبرز على تلك الفترة عددا كبير من علماء الحديث كان في مقدمتهم محمد بن محمد، بن الصباغ الخزرجي (توفي 749هـ - 1348م)⁽⁵⁾ الذي اغتنم ابن خلدون فرصة حضوره إلى إفريقية سنة 748هـ - 1347م، ودرس على يديه وقال عنه: «كان مبرزاً في المعقول والمنقول، عارفاً بالحديث ورجاله، إماماً في معرفة الموطأ وإقراءه»⁽⁶⁾، والإمام عبد المهيم بن محمد عبد المهيم الحضرمي (توفي 747هـ -

(1) المقدمة، 433.

(2) ابن خلدون، المقدمة 443.

(3) ابن غازي: الفهرسة، 51، 52، 53، 54، 105، 106، 109.

(4) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة أبي القاسم محمد بن حسن بن يوسف بن يحيى بن أحمد الحسين.

(5) ترجم له ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 301. درة الحجال، 2/ 135 - 136. ابن زيدان، إتحاف اعلام الناس، 3/ 581-582.

(6) الرحلة، 46.

1346م⁽¹⁾، الذي كان في حضرة السلطان أبي الحسن: «إمام المحدثين»⁽²⁾. والخطيب محمد بن أحمد بن مرزوق العجيسي التلمساني (توفي 781هـ - 1379م)⁽³⁾، وصفه ابن قنفذ قائلا: «كان له طريق واضح في الحديث، ولقي أعلاما من الناس، واسمعنا حديث البخاري وغيره في مجالس مختلفة»⁽⁴⁾، وكان ابن مرزوق يفتخر بنفسه حيث قال للسلطان أبي الحسن: «لي ثمانية وأربعون منبرا في الإسلام شرقا وغربا وأندلسا ليس يوجد اليوم من يسند أحاديث الصحاح سماعاً من باب الإسكندرية إلى البرين والأندلس غربي»⁽⁵⁾، ومنهم أيضاً العالم ابن رشيد الفهري (توفي 721هـ - 1321م) من سبته، قال عنه ابن الخطيب: «كان رحمه الله فريد دهره عدالة وجلالة وحفظاً، وأدباً، وسمناً مهيناً، واسع الاسمعة، عالي الإسناد، صحيح النقل، أصيل الضبط، تام العناية بصناعة الحديث، قيماً عليها بصيراً بها محققاً فيها»⁽⁶⁾ وأحمد بن عبد الرحمن التادلي الفاسي (توفي 741هـ - 1340م)⁽⁷⁾ ألف علماء تلك الفترة دراسات أتمت بطابع الشرح للكتب البارزة في علم الحديث، ومنها لابن مرزوق «تيسير المرام في شرح عمدة الأحكام في الحديث» و«شرح

(1) المقرئ: نفح الطيب، 5/ 240-264. ابن الأحمر: مستودع العلامة، 50. الزركشي: تاريخ الدولتين، 86.

(2) الكتاني: فهرست الفهارس، 348-351.

(3) ترجم له: التنكتي: نيل الابتهاج، 816-824. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 225-

227. المقرئ: نفح الطيب، 5/ 390. ابن حجر: انباء الغمر، 2/ 206. ابن العماد: شذرات

الذهب، 6/ 271. مخلوف: شجرة النور، 436. البغدادي: مدينة العارفين، 2/ 170.

(4) الوفيات، 373-374.

(5) الكتاني: فهرست الفهارس، 1/ 521.

(6) الإحاطة، 3/ 135.

(7) ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/ 255.

الأحكام الصغرى» و«شرح الشفا في التعريف بحقوق المصطفى» و«وجني الجنتين في فضل الليلتين»⁽¹⁾. و«أربعينيات الفقهية» لعبد المهيمن الحضرمي⁽²⁾، أما ابن الصباغ الكناسي فقد أملى في مجلسه على حديث محمد (ﷺ) «يا أبا عمير ما فعل النفير» أربعمائة فائدة⁽³⁾ و«تحفة الناظر ونزهة الخاطر في غريب الحديث» للرعيني⁽⁴⁾، وثمة «شرح على عمدة الأحكام» لأحمد بن عبد الرحمن النادلي⁽⁵⁾ وشرح على صحيح مسلم في اثني عشر مجلدا لعيسى بن مسعود الزواوي (توفي 743هـ - 1342م) سماه «إكمال الإكمال»⁽⁶⁾.

3- الدراسات الفقهية:

تركت البيئة المغربية قبل حلول حكم الدولة المرينية جملة من العوامل التي عززت من انتشار المذهب المالكي، ووطدت دعائمه في الأوساط الشعبية والرسمية على عهد المرينيين.

فقد استجاب الموحدون وتعاطفوا مع المذهب الظاهري الذي كان يحرص وبشدة على الاعتماد على القرآن الكريم والحديث الثابت في تفسير الأحكام،

(1) ابن فرحون: الديباج المذهب، 296. البغدادى: هدية العارفين، 2/ 170.

(2) ابن قنفذ: الوفيات، 352. الكتاني: فهرست الفهارس، 1/ 348.

(3) ابن غازي: الروض الممتون، 17 ظ. ترجم له: التنبكي: نيل الابتهاج، 736. ابن قنفذ:

الوفيات، 354. ابن القاضي: درة الحجال 2/ 135 - 136. ابن زيدان: إتحاف اعلام الناس،

3/ 581. وللمزيد عنه ينظر في المجلس العلمي للدولة. ق4.

(4) الكتاني: فهرست الفهارس، 1/ 436.

(5) ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/ 255.

(6) الونشريسي: الوفيات، 113. مخلوف: شجرة النور، 219.

ويعدهما أساسين في صياغتها⁽¹⁾ وذلك يتطابق مع عقيدتهم التي كانت ترى ضرورة الالتزام بهذين المصدرين والكف عن الأخذ بالرأي والتقليد، أي بمعنى آخر إبطال العمل بعلم الفروع⁽²⁾.

واستنادا إلى تلك الحقائق تعزز موقف الظاهرية في بلاد المغرب والأندلس⁽³⁾ وفي ذلك ما يفسر الكلمة الماثورة التي قالها السلطان يعقوب المنصور بحق ابن حزم⁽⁴⁾ «عندما مر على قرية الأخير وقبره فيها: «عجبا لهذا الموضوع يخرج مثل هذا العالم! ثم قال كل العلماء عيال على ابن حزم»⁽⁵⁾.

ولم تتوقف نصرة الموحدين للظاهرية على عهد السلطان يعقوب الموجد فحسب بل اتخذت سبيلا آخر وذلك من خلال محاربة المذهب المالكي بوسائل متعددة، وخاصة لفقهاء الذين تعرضوا لعقوبات قاسية انتهت ببعضهم إلى الموت⁽⁶⁾، أما مصنفات المذهب المالكي فقد جمعت من البلاد وأحرقت⁽⁷⁾.

ولم تكن المحنة التي عانتها المالكية وفقهاؤها بعيدة عن قلوب العامة، ولم تكن تلك الأساليب القسرية التي لجأ إليها الموحدون إزاء المذهب المالكي كافية

(1) المراكشي: المعجب، 71. المقرئ: نفح الطيب، 2/77 - 880 أمين ظهر الإسلام، 3/53 وما بعدها.

(2) المراكشي: المعجب، 185/354 - 355. بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، 327.

(3) الغبريني: عنوان الدارية، 247. الحسيين: مظاهر النهضة الحديثة، 1/193.

(4) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، توفي في سنة (456هـ - 1063م). المراكشي: المعجب، 71. المقرئ: نفح الطيب، 2/77 - 88، والمزيد عنه ينظر، بالثبنا: تاريخ الفكر الأندلسي، 213-239. الكتاني: مؤلفات ابن حزم، 87 - 107.

(5) المقرئ: نفح الطيب، 3/238.

(6) ملين: عصر المنصور الموحدي، 254 - 255.

(7) المراكشي: المعجب، 354.

للقضاء عليه، إذ أن النار الموحدية التي أضرمت سرعان ما انطفأت على عهد المرينين، الذين استجابوا للمذهب المالكي⁽¹⁾، وناصروا فقهاءه، وشجعوا طالبي الفقه على الدرس والتحصيل، حتى بات عهدهم من المراحل التي تميزت بنشاط واضح في ميدان الدراسات الفقهية بروحية دؤوبة لم تعرف الكلل⁽²⁾.

إن القيمة العلمية والمكانة اللتين تمتع بهما الفقيه في العصر المريني كانت ظاهرة بارزة، فسمعة الفقيه كانت تحظى بموضع الإجلال والتقدير، فالكاتب واللعوي والنحوي كان ينعت بالفقيه تقديرا لمكانته، وهي في ذلك تشبه مكانة القاضي في المشرق الإسلامي⁽³⁾، وزيادة على ذلك فقد بلغت مكانته عندهم درجة غنية عن البيان ففي قصة الشيخ الفقيه عبد العزيز القوري (توفي 750 هـ - 1349 م)⁽⁴⁾، مع السلطان أبي الحسن عندما حضر إلى مجلسه فقد قال له السلطان: «تخرج مع عامل الزكاة: فقال عبد العزيز أما تستحي من الله تأخذ لقبا من ألقاب الشريعة وتضعه على مغرم من المغارم» فضربه السلطان بالسكين التي كان يحبسها بيده على عادته... وقال له هكذا تقول لي، فبادر إليه الوزير وأخذ بيده وأخرجه إطفاء لغضب... وقام السلطان إلى داره... ثم خرج فقال ردوه علي فردوه واعتذر إليه، وقال له طيب نفسك علي، فاني علمت أنك ما قلت إلا الحق⁽⁵⁾.

(1) ابن الأحرار: بيوتات فاس، 19-21. والمزيد، ينظر ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 118. الغافية: صمود مذهب المالكي واستمراريته، 15.

(2) كنون: النبوغ المغربي، 1/ 194. ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 51. ابن قنفذ: الفارسية: مقدمة المحقق، 34-35. وللمزيد عن موقف المغاربة آنذاك إزاء المذهب المالكي ينظر الوئشريسي: المعيار، 2/ 169.

(3) ارسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، 1/ 255.

(4) ترجم له التتبيكي: نيل الإبهاج، 179. الكتاني: سلوة الانقاس، 3/ 159.

(5) ابن قنفذ: انس الفقير، 34.

أما فيما يتعلق بالتأليف الفقهي في هذه المرحلة فالغالب عليها الشروحات والتعليق والمختصرات، وقد فسرت هذه الظاهرة بغياب الاجتهاد وقيل «... وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الأصول واتصال سندها بالرواية لا محصول اليوم للفقهاء غير هذا ومدعي الاجتهاد ولهذا العهد مردود على نقبة مهجور تقليده»⁽¹⁾.

وفي هذا ما يفسر موقف الفقيه إسماعيل القاضي الذي بلغ رتبة الاجتهاد وفيه يقول الونشريسي «ولكنه لم يتميز بمذهب خارج عن مذهب مالك ولا أقدم على استنباط حكم يخالف إحكامه، وكل ما ظهر له مما شذ فيه عن مذهب مالك تناولته بالإنكار أنظار العلماء وكرت عليه بالتوهين والتضعيف حتى أثلفت وأذهبت أثره فلم يبق له رسم، إذ أن مهمة الفقيه، العارف الدين الغاضب أن يكون قد مارس اصطلاح الفقهاء بعض الممارسة ويكون عنده بعض دفاتر في الفقه مقتاة في خزائنه، فإذا وردت النازلة عليه نظر في تلك الدفاتر، فإن وجد فيها نصا في النازلة المذكورة أفشى به، وإن لم يجده بقي لا يجد جوابا»⁽²⁾.

إن هذه الظاهرة التي طبعت الدراسات الفقهية وجدت من يسوغها بقوله: «إن القوم كانوا أهل عمل ودين متين، وجرى على سنن السلف الأقدمين الصالحين العاملين، فشغلهم ما اخذوا فيه من كد العمل، أثقال التقليل والمجاهدة ونحري الحلال، والزهد والإقلال عن تتبع مواد التحقيق، إلى فقد الملكة النظرية من هذا القطر وانقراضها منه منذ زماننا إلى عصرنا هذا»⁽³⁾ بينما يسوغ آخر كثرة المختصرات على هذا العهد بقوله: «إياك أن تظن القصور بمن تصدى للتقليد على «التهذيب» من طلبة الشيخ أبي الحسن، وكذا من تلاهم من طلبة الشيخ أبي زيد عبد الرحمن

(1) ابن خلدون: المقدمة، 448.

(2) المعيار، 2/ 170.

(3) المقرئ: أزهار الرياض، 3/ 31.

الجزولي، ويقرّع سمعك ما أفتى به الشيوخ، ومن له في العلم الرسوخ، ان تقاليد «التهذيب» و«الرسالة» لا يعول عليها في الإقراء ولا يوثق بشيء منها في الفتيا»⁽¹⁾.

وعلى أية الخشنة. عرف العصر علماء اتخذوا موقفا واضحا من كتب الفقه وكان لهم رأي في الاعتماد على بعضها، قال أبو إسحاق الشاطبي: «وأما ما ذكرت لكم من عدم اعتمادي على التأليف المتأخرة، فلم يكن ذلك مني بحمد الله محض رأي ولكن اعتمدت بسبب الخبرة عند النظر في كتب المتقدمين مع كتب المتأخرين، واعني بالتأخرين كابن بشير وابن شاس وابن الحاجب ومن بعدهم ولان بعض من لقبته من العلماء بالفقه، أوصاني بالتجافي عن كتب المتأخرين واتى بعبارة خشنة في السمع، لكنها محض النصيحة.. والعبارة الخشنة... من شيخه أبي العباس أحمد القباب»⁽²⁾، وهي انه كان يقول في ابن بشير وابن الحاجب وابن شاس: احسدوا الفقه»⁽³⁾، وأضاف القباب بعد انصرافه من تونس: «علمتم ما تحصل بأيدينا من الفقه، وصح عندكم أن الملكة التامة في التحصيل والتصرف، إنما هي في قوى أهل تونس ومن يليهم من أهل المشرق، وان قصارى ما عندنا وعند مشايخنا إنما هو حفظ النصوص، وإبقاؤها على ما هي عليه»⁽⁴⁾.

أما فيما يتعلق بظاهرة الاختصار على هذا العهد فيبدو أنها كانت دلالة على مقدرة العالم، وأنها الطريقة التي تتناسب ومكانة العالم المريني قال ابن البنا العددي:

قصدت إلى الوجازة في كلامي	لعلمي بالصواب في الاختصار
ولم احذر فهو ما دون فهمي	ولكن خفت ازراء الكبار

(1) المقرئ: أزهار الرياض، 3/ 29.

(2) ترجم له ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 187-188.

(3) الونشريسي: المعيار، 11/ 141.

(4) المقرئ: أزهار الرياض، 3/ 32. وللمزيد ينظر: الونشريسي: المعيار، 2/ 483.

فشأن فحولـة العلماء شأنـي وشأن البسط تعليم الصغار⁽¹⁾

ولم تكن ظاهرة الاختصار مقبولة لدى بعض العلماء، أمثال القباب (توفي 778هـ - 1376م)⁽²⁾ الذي اطلع على مختصر ابن عرفة⁽³⁾ (توفي 803هـ - 1400م)، فقال له: «ما صنعت شيئاً، فقال له ولم قال لانه لا يفهمه المبتدئ ولا يحتاج إليه المنتهي... ويقال أن كلامه هذا هو الحامل لابن عرفة على بسط العبارة في أواخر المختصر ولين الاختصار»⁽⁴⁾.

وعلى أية حال فقد عرف هذا العهد الكثير من المصنفات الفقهية التي درسوها وتناولوها بالشرح والتعليق وهي:

1- المدونة:

لسحنون (المتوفى 240هـ - 854م) وتعد من أوائل المصنفات الفقهية، واصلها الأول الاسدية لأسد بن القرات (المتوفى 213هـ - 828م)، أخذها تلميذه سعنون ورحل بها إلى مصر⁽⁵⁾، فعرضها على ابن القاسم العتقي (المتوفى 191هـ - 806م) وأجرى عليها تعديلات ورتبها ثم عاد إلى القيروان، وسميت أيضاً المختلطة⁽⁶⁾، وقد بلغ تقدير الناس لها حداً كبيراً، فمما روى عن بعض الشيوخ انه

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 152.

(2) الونشريسي: الوفيات، 128، وفي نيل الابتهاج، انه مات سنة 779هـ - 1377م، 171.

(3) ترجم له ابن مريم: البستان، 190-201.

(4) التنبكي: نيل الابتهاج، 173-174. المقرئ: أزهار الرياض، 3/ 37. للمزيد عن ذلك

ينظر، الجيدي: دعوة نبذ المختصرات الفقهية في عهد الدولة العلوية، 262-263.

(5) عباس: ترتيب المدارك، 3/ 296.

(6) ابن خلدون: المقدمة، 45.

قال: «ما نزل من السماء حكم إلا وهو في المدونة»⁽¹⁾، وكان أبو حفص العطار يقول: «القوا علي كل سؤال فانا أخرجه من المدونة»⁽²⁾.

وقد أقبل علماء تلك الفترة على دراستها، وبرز العديد من العلماء الذين اشتهروا بتدريسها من أمثال عبد الرحمن بن عفان الجزولي (توفي 741هـ - 1340م) الذي قيل عن مجلسه بأنه كان يحضره ألف فقيه معظمهم يستظهر المدونة⁽³⁾، والفقيه عبد المؤمن بن محمد الجاناني (توفي 746هـ - 1345م)⁽⁴⁾، والفقيه موسى بن محمد بن معطي السندروسي (توفي 776هـ - 1374م) وقيل عنه أنه: «أقرأها نحو من أربعين سنة»⁽⁵⁾ والفقيه محمد بن علي بن سليمان السطحي (توفي 749هـ - 1348م)⁽⁶⁾ وعبد العزيز بن محمد القوري (توفي 750هـ - 1349م)⁽⁷⁾ وإبراهيم التسولي (توفي 749هـ - 1348م)⁽⁸⁾.

أما الذين قاموا بشرحها والتقييد عليها في تلك الفترة من العلماء فهم محمد بن سليمان السطحي⁽⁹⁾، وموسى بن معطي العبدوسي الذي كتب عليها تقييداً⁽¹⁰⁾،

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 127.

(2) الونشريسي: المعيار، 1/ 323. الونشريسي: الوفيات، 127. ابن القاضي: لقط الفرائد، 216.

(3) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 401. درة الحجال، 3/ 79. ابن القاضي: لقط الفرائد، 193.

(4) ابن القاضي: درة الحجال، 3/ 172-173.

(5) الونشريسي: الوفيات، 127. مخلوف: شجرة النور، 234-235.

(6) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 228. درة الحجال، 2/ 134-135.

(7) التنبكي: نيل الانتهاج، 501. مخلوف: شجرة النور الزكية، 221.

(8) النباهي: المراقبة العليا، 136.

(9) التنبكي: نيل الانتهاج، 740. ابن القاضي: لقط الفرائد، 201.

(10) التنبكي: نيل الانتهاج، 1039.

وعبد العزيز بن محمد القوري⁽¹⁾، وعلي بن سعيد الرجرجي⁽²⁾، وإبراهيم التسولي التازي الذي كتب عليها تقييد⁽³⁾ أيضا.

2- الرسالة:

وهي تلي المدونة في الأهمية لأبي محمد عبد الله بن أبي زيد عبد الرحمن القيرواني (توفي 386هـ-966م)⁽⁴⁾، اهتم بها الفقهاء في سائر البلاد وقبل عنها: «تنافس الناس في اقتنائها حتى كتبت بالذهب»⁽⁵⁾.

وتناولها علماء تلك الفترة دراسة وشرحاً، وكان من بين العلماء الذين اشتهروا بتدريسها الفقيه عبد الرحمن بن عفان الجزولي توفي (741هـ-1340م)⁽⁶⁾ ومحمد بن عبد الرحمن التميمي الكرطوسي الفاسي⁽⁷⁾، وإبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي⁽⁸⁾، ويوسف بن عمر الانفاسي توفي (761هـ-1359م)⁽⁹⁾.

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 451.

(2) التنبكي: نيل الانتهاج، 605. ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/ 142. مخلوف: شجرة النور الزكية، 187.

(3) ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/ 272. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 85.

(4) ينظر ابن العماد: شذرات الذهب، 3/ 131. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، 4/ 200. مخلوف: شجرة النور الزكية، 221.

(5) سحنون: ابن أبي زيد القيرواني ورسائله، 3/ 52.

(6) ابن القاضي: جذوة الاقتباس 2/ 401. مخلوف: شجرة النور، 218.

(7) التنبكي: نيل الانتهاج، 523-524.

(8) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 372-373.

(9) الوئشريسبي: الوفيات، 124. مخلوف: شجرة النور، 233.

أما الذين تناولوها بالشرح والتقييد على تلك الفترة فهم الفقيه عبد الرحمن بن عفان الجزولي الذي جمع تقييده بعض تلامذته عنها⁽¹⁾، والفقيه يوسف بن عمر الانفاسي⁽²⁾، (توفي 761هـ-1359م) وإبراهيم التسولي التازي⁽³⁾، ومحمد بن عبد الرحمن الكرطوسي الذي كتب عنها تقييدين⁽⁴⁾، وموسى بن محمد بن معطي العبدوسي⁽⁵⁾.

3- التهذيب:

لأبي سعيد البراذعي⁽⁶⁾، قال المقرئ: «الكتاب المعتمد عليه الآن الذي يطلق عليه اسم الكتاب هو عند المالكية حتى بالإسكندرية»⁽⁷⁾، وقد تناوله علماء ذلك العهد بالدراسة من أمثال عبد المؤمن بن محمد بن موسى الجاناني (746هـ-1345م) الذي قيل أن مجلسه يحضره أكثر من أربعمائة فقيه⁽⁸⁾، وكذلك الفقيه إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي والذي قيد عليه شرحا⁽⁹⁾.

(1) التنبكي: نيل الانتهاج، 442. السوسي: علماء لامعون من سوس، 115. أ.

(2) التنبكي: نيل الانتهاج، 1068. ابن مريم: البستان، 299.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 380-381. ابن قنفذ: الوفيات، 353.

(4) ابن غازي: الروض التنون، 18. البغدادي: هدية العارفين، 1/ 502. كحالة: معجم المؤلفين، 5/ 91.

(5) التنبكي: نيل الانتهاج، 1039. مخلوف: شجرة النور الزكية، 234-235.

(6) هو أبو القاسم خلف بن أبي القاسم الأزدي، ترجم له عياض: ترتيب المدارك، 4/ 807-809. ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/ 349-351.

(7) نفح الطيب، 3/ 180.

(8) التنبكي: نيل الانتهاج، 498. الوئشريسي: الوفيات، 115.

(9) ابن فرحون، الديباج المذهب: 1/ 271-273. مخلوف: شجرة النور، 220.

ولم تكن تلك المصنفات هي المعتمدة فقط في تلك الفترة بل درس الفقهاء قسماً آخر من المصنفات من بينها كتاب التفریع لابن الجلاب الذي اشتهر به أبو محمد عبد الله القشتالي⁽¹⁾، والفقیه محمد الرندي (توفي 746هـ - 1345م) وقيد عليه شرحاً مفيداً⁽²⁾، كما درسوا أيضاً المختصر الفقهي لأبي عمر ابن الحاجب وتداوله طلبة المغرب، قال ابن خلدون: «وطلبة الفقه لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه» وأشار في موضع آخر إلى مؤلفه بأنه «لخص فيه طرق أهل المذاهب في كل باب وتعدد أقوالهم في كل مسألة فجاء كالبرنامج للمذهب»⁽³⁾، واشتهر من بين العلماء بتدريسه عبد الحق بن سعيد المكناسي⁽⁴⁾، (توفي 761هـ - 1359م) ومحمد بن محمد بن أحمد القرشي⁽⁵⁾، وقد علق عليه بعض العلماء بشروحات كما فعل العالم ابن مرزوق الخطيب وسمى شرحه: «إزالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب»⁽⁶⁾ ومحمد بن يحيى بن مسفر الباهلي (توفي 744هـ - 1342م) الذي أملى عليه تقييداً عجيباً⁽⁷⁾ وعيسى بن مسعود الزواوي (توفي 743هـ - 1343م) الذي كتب شرحاً عليه⁽⁸⁾.

وألّف العديد من العلماء كتباً وشروحات على بعض المصنفات من أمثال الفقيه عبد الحق بن سعيد المكناسي الذي ألّف على كتاب ابن العربي المعروف

(1) ابن القاضي: درة الحجال، 3/ 79. مخلوف: شجرة النور، 218.

(2) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 228.

(3) المقدمة، 450-451.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 389.

(5) مخلوف: شجرة النور، 232.

(6) البغدادي: هدية العارفين، 2/ 170.

(7) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 296. الوثريسي: الوفيات، 113.

(8) ابن القاضي: لقط الفراند، 194. مخلوف: شجرة النور، 219.

بالحاكمة كتاباً سماه «الحازمة على الرسالة الحاكمة»⁽¹⁾، بينما لخص محمد بن عبد الرحمن الكرطوسي تهذيب ابن بشير⁽²⁾، أما التفرع لابن الجلاب فقد شرحه محمد الرندي⁽³⁾.

ولم تخل هذه الفترة من بعض المؤلفات التي ابتعدت عن سياق المنهج الذي اتبعه علماء تلك الفترة، فقد ألف محمد بن أحمد الشريف الحسن (توفي 771هـ - 1369م) كتاباً سماه «المفتاح في أصول الفقه»⁽⁴⁾، وقام عمران بن موسى الشذالي بتأليف رسالة في «اتخاذ الركاب من خالص الفضة»⁽⁵⁾ وجمع إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي أجوبة شيخه التي شرحها فيما بعد إبراهيم بن هلال في كتاب سماه «الدُر النثير»⁽⁶⁾ كما اختصر عيسى بن مسعود الزواوي جامع ابن يونس⁽⁷⁾، وألف المقرئ الجدد كتاباً يشتمل على أكثر من مائة مسألة فقهية⁽⁸⁾.

وأخيراً فقد عرفت البلاد العديد من المصنفات الفقهية الأخرى من أمثال «البيان والتحصيل» و«المقدمات» لابن رشد الجدد (توفي 520هـ - 1126م)⁽⁹⁾، وقد اشتهر بتدريسها على هذا العهد سليمان الونشريسي (توفي 705هـ - 1305م) الذي

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 389.

(2) مخلوف: شجرة النور، 220.

(3) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 228.

(4) ابن مريم: البستان، 166. مخلوف: شجرة النور الزكية، 234.

(5) ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 72.

(6) مخلوف: شجرة النور الزكية، 220.

(7) مخلوف: شجرة النور الزكية، 219.

(8) ابن فرحون: الديباج المذهب، 2/ 265.

(9) ابن خلدون: المقدمة، 450. بالثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، 427.

درسها على يديه أبو عبدالله الرندي⁽¹⁾، كما درسوا أيضاً كتاب التذهيب لابن بشير⁽²⁾.

كما غاب العديد من المصنفات الفقهية التي لم تكن تلق استجابة من قبل فقهاء ذلك العهد ولعل في موقف الفقيه القباب⁽³⁾، ما يفسر ذلك حيث كان يقول أن بعض المتأخرين أمثال ابن بشير وابن الحاجب وابن شاس قد افسدوا الفقه، وطبعي فإن هذا الموقف الذي يصدر عن شخصية مثل القباب جدير بالالتزام، ففيه حث العلماء وطالبي العلم بالكف عن قراءة تلك الكتب وتركها.

4- علوم العربية:

عوامل ازدهارها:

للحديث عن العربية في العصر المريني ومكانتها طعم خاص لاسيما إذا درست البنى الاجتماعية والسياسية بالمقارنة مع الدول التي سبقتهم في حكم المغرب الأقصى، وبدراسة النصف الأول من القرن الثامن الهجري - الرابع عشر الميلادي، تظهر لنا أسباب ازدهار اللغة العربية وعلومها، فقد كان وراء ذلك عوامل جوهرية أبرزها:

1- عروبة بني مرين:

خدمت قبيلة مرين العربية، وعملت ضمن دائرتها انطلاقاً من أصولها العربية⁽⁴⁾، وإنصافاً لعصرهم، نشير إلى ما ذكره ذنون بقوله: «كان هذا آخر العهد

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 516-517. درة الحجال، 3/ 308-309.

(2) مخلوف: شجرة النور الزكية، 220.

(3) ترجم له: ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/ 72-73. ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 193-

195. ابن حجر: الدرر الكامنة، 1/ 150-151.

(4) ينظر أصل بني مرين: الفصل الأول.

بحياة الفرقة والعنصرية المقيتة فعلا شعار العروبة كل الشعارات، وضمت الضاد جميع المغاربة في شتى المصالح والمرافق»⁽¹⁾.

2- ازدهار العلوم الدينية:

شهد العصر المريني إقبالا متزايدا على دراسة العلوم الدينية، ولا نأخذ إزاء ذلك موقف الإنكار لجهود من سبقهم من رجال العلم وما قدموه، فقد شجع المرينيون الفقهاء على الكتابة والتأليف وبخاصة علماء المذهب المالكي، فجد طلاب العلم في إتقان العربية، وليس ذلك كثيرا عليها فهي لغة القرآن الكريم والشريعة الإسلامية⁽²⁾.

3- الهجرات العربية إلى المغرب الأقصى:

انتقلت إلى المغرب الأقصى سنة 584هـ-1188م في عهد الخليفة يعقوب الموحدي قبائل بني هلال وبني جشم، وعلى الرغم من أن هذا القرار الذي اتخذته يعقوب بنقلهم قد ندم عليه فيما بعد، بسبب عبثهم في المدن، إلا أنه كان عاملا في تنشيط العربية، لأن تلك القبائل لم تقطن منطقة واحدة في المغرب الأقصى، بل تفاعلت مع القبائل الساكنة في المغرب في مستويات عديدة⁽³⁾، وفي ضوء ذلك، انتعشت العربية في عهدهم حتى قيل عن عصر بني مرين: أنه يمثل عصرها الذهبي في المغرب الأقصى⁽⁴⁾.

(1) النبوغ المغربي، 1/ 193.

(2) ينظر الدراسات الفقهية: الفصل الثالث.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 230، الناصري: الاستقصا، 2/ 168. للمزيد ينظر، دغفوس: العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم، 147-157.

(4) كنون: النبوغ المغربي، 1/ 205.

أ - علم اللغة:

انكب علماء العصر المريني على دراسة المؤلفات الخاصة بعلم اللغة، واهتموا بها، وإن كانت جهودهم في هذا المضمار غير واضحة، إلا أن الحياة العلمية في العصر المريني شهدت اهتماما بالعديد من المؤلفات اللغوية التي الفت في العصور التي سبقتهم.

ومن الكتب التي اشتهرت وذاع صيتها في علم اللغة كتاب «العين»⁽¹⁾، للخليل بن أحمد الفراهيدي (توفي 175هـ - 791م)⁽²⁾، وكتاب «الصحاح» للجوهري⁽³⁾، واهتم المرينيون بكتاب «الفصيح» لأحمد بن يحيى ثعلب (توفي 291هـ - 1000م)⁽⁴⁾، ويذكر عن العالم المريني محمد بن يحيى المسفر الباهلي (توفي 747هـ - 1346م) أنه كان يحفظ كتاب «الفصيح» عن ظهر قلب وله في ذلك قصة مع الفقيه أبي الحسن الصغير⁽⁵⁾، كما عرفت البلاد مؤلفات أخرى مثل كتاب «تحفة المجد الصريح في شرح كتاب الفصيح» لأحمد بن يوسف اللبلي (توفي 691هـ - 1291م)⁽⁶⁾.

أما فيما يتعلق بأبرز العلماء الذين اشتهروا في هذا المضمار فمنهم أبو عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي المار الذكر والذي وصفه مؤلف البلغة قائلا: «... حافظ للغات العرب.. اتفق له أنه توجه إلى حضرة فاس في وفد أهل سبتة في أيام السلطان

(1) النباهي: المرقبة العليا، 171.

(2) ضيف: المدارس النحوية، 30-65.

(3) مجهول: بلغة الأمنية، 176.

(4) الوادي شي: البرنامج، 309. السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة محمد بن أبي إسحاق الرندي، وعبد الله بن عمر الوانغلي الضرب.

(5) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/296.

(6) الوادي شي: البرنامج، 310.

أبي الحسن وكان قد تقرر لديه حفظه فذكر ذلك لبعض كتبه فأراد الكاتب أن يغض منه فقال نصركم الله ان الرجل يحفظ لغة حوشية وان شئت أن تعرفها عنده فاخترع له اسما وسله عن معناه فقال له السلطان وما يكون الاسم؟ فقال: يا مولاي سله عن التمر كل ففعل فقال مجيبا: هو التلغع في الكساء واستشهد له عليه بشواهد للعرب فعرف السلطان مكانته في الحفظ وقام الدليل عنده⁽¹⁾ ومن الذين اشتهر ذكرهم محمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي (توفي 733هـ - 1332م) الذي ألف في علم اللغة كتابا سماه «انشاد الضوال وإرشاد السؤل في لحن العامة»⁽²⁾

ولم تقتصر حركة العلماء على هذا العلم من العربية، بل شمل اهتمامهم دراسة علم البيان والبلاغة والعروض، ولعل تنوع مؤلفات الأدباء والنحاة في هذا المضمار تكشف عن قيمة هذا العهد، ومن بين أبرز المؤلفات المرينية كتاب «رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة» للقاضي أبي القاسم الشريف ألسبتي (توفي 760هـ - 1358م) الذي شرح فيه مقصورة حازم القرطاجني⁽³⁾، (توفي 684هـ - 1285م) و«رياضة الان» وهو شرح مفيد على قصيدة الخرجي⁽⁴⁾. أما من بين العلماء الذين

(1) مجهول، 75.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، 3/ 144. أوصاف الناس، 103-104. ابن القاضي: درة الحجال، 2/ 112-113.

(3) ولد سنة 608هـ - 1211م، اشتهر بنسبته إلى مسقط رأسه حتى عرف بالقرطاجني، انتقل إلى المغرب الأقصى، بعد سنة 633هـ / 1236م، ثم إلى تونس عاصمة الحفصيين، للمزيد عنه ينظر: القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، 46-71.

(4) النباهي: المراقبة العليا، 176. من العلماء البارزين في العلوم اللسانية، ترجمة كثيرة من بينها ابن الخطيب: أوصاف الناس، 93-95. ابن قنفذ: الوفيات، 361-362. ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، 6/ 192-193. السيوطي: بغية الوعاة، 1/ 39. ابن القاضي: لقط الفرائد، 211. الونشريسي: الوفيات، 123.

برزوا في هذا الميدان، فعبد المهيمن بن محمد الحضرمي الذي وصفه ابن الخطيب بقوله: «له القدح الممل في علم العربية» إضافة إلى تضلعه في علم اللغات والعروض⁽¹⁾، ومحمد الرندي (توفي 746هـ - 1346م) الذي «كان إماماً في العربية مقدماً في النظر»⁽²⁾. وإبراهيم بن الحاج النميري الذي ألف كتاباً في التورية على حروف المعجم⁽³⁾.

ب - علم النحو:

أقبل المغاربة في العصر المريني على دراسة النحو، بوصفه ركناً أساسياً من أركان اللغة العربية، وكان جل اهتمامهم ينصب على دراسته لما فيه من فائدة في والحديث الاستدلال إلى القرآن الكريم.

ولعل الحديث عنه يستوجب الإشارة إلى أن هذا العهد لم ينقطع بصلته العلمية عن مؤلفات العصور الإسلامية التي سبقته، واعتنى علماءؤه بالمؤلفات الأساسية لهذا العلم، ومن أبرز الكتب التي لقيت رواجاً في العصر المريني كتاب سيويوه⁽⁴⁾، الذي كان في المرتبة الأولى من بين كتب النحو، ويذكر عن أبي عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي (توفي 750هـ - 1349م) أنه كان «يحكم قراءة كتاب سيويوه

(1) السيوطي: بغية الوعاة، 2 / 116.

(2) ابن القاضي: حذوة الاقتباس 1 / 228.

(3) ابن القاضي: حذوة الاقتباس 1 / 21.

(4) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة أبي محمد عبد الله بن عمر الوانلغي. ابن خلدون: الرحلة،

أنهم أحكام ويستظهر شواهد كلها وي طرح ما عده من مصنفات فته⁽¹⁾، بينما يأتي كتاب الجمل للزجاجي⁽²⁾، في المرتبة الثانية فقد درسه المغاربة، وتضلّعوا فيه⁽³⁾.

أما المؤلفات الأخرى التي عرفها هذا العلم فقد تميزت بكثرتها مما يصعب على المرء حصرها والإحاطة بها، وهي لم تكن خافية عن المغاربة أو بمعزل عن اهتمامهم⁽⁴⁾، إلا أن هذه المؤلفات لم تلق اهتماما مثلما حظيت به الجزولية لأبي موسى عيسى بن عبد العزيز (المتوفى 607 هـ - 1210م) التي قال عنها ابن خلكان «ولقد أنى فيها بالعجائب، وهي في غاية الإيجاز، مع الاشتغال على شيء كثير من النحو، ولم يسبق إلى مثلها»⁽⁵⁾، وقد درسها علماء هذا العصر واهتموا بها فنجدها مرة باسم القانون⁽⁶⁾، ومرة باسم الكراسة⁽⁷⁾.

أما فيما يتعلق بالمؤلفات النحوية في العصر المريني ففي مقدمتها الاجرومية لأبي عبد الله محمد بن محمد بن داؤد الصنهاجي الفاسي (توفي 723 هـ - 1323م)⁽⁸⁾ وتناولها علماء هذا العصر واهتموا بها⁽⁹⁾، وقد احتفظت بفضل مزاياها الرسوخ

(1) مجهول: بلغة الآمنية، 176.

(2) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي نسبة إلى شيخه الزجاج لملازمته إياه مدة طويلة حتى عرف به، كان من أفاضل الأئمة في النحو واللغة والأدب، واختلف في وفاته بين سنة 337 هـ - 340 هـ، للمزيد ينظر الزجاجي: الجمل، مقدمة المحقق، 5 وما بعدها.

(3) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة القباب وابن رضوان النجاري.

(4) ابن خلدون: المقدمة، 547.

(5) الوفيات، 1 / 488 - 489.

(6) الوادي اشي: البرنامج، 308.

(7) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة محمد بن عبد المهيمن الحضرمي.

(8) ترجم له: ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1 / 221. السيوطي: بغية الوعاة، 1 / 338.

(9) السراج: الفهرسة، ضمن ترجمة أبي محمد بن عبد الله بن عمر الوائلي الضريير. كنون:

المغربي، 1 / 219.

والثبات لدى طلاب النحو وشيوخه، فعلاوة على بساطتها فإنها قدمت علم النحو بصورة عميقة ومشوقة للتلاميذ، فكان ذلك سببا في اعتمادها قرونا عديدة منهجا لتعليم النحو في المغرب، وتميزت بكونها لم تكن خاضعة إلى أي من المدرستين الكوفية والبصرية بل اعتمدت المدرستين وأخذت من كليتهما⁽¹⁾.

أما فيما يتعلق بجهود العلماء على مستوى التأليف، فالواقع أنهم على الرغم من كثرتهم، وتضلع الكثير منهم في علم النحو، لم يخرجوا عن نطاق التعليق والشرح، ومن الشروحات التي عرفها هذا العهد في هذا المضمار ما ألفه ابن مرزوق الخطيب بعنوان «تمهيد المسالك إلى شرح ألفية ابن مالك»⁽²⁾، وكتاب «شرح التسهيل لابن مالك» لمحمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي⁽³⁾.

واشتهر لهذا العهد في علم النحو الكثير من العلماء منهم الخطيب ابن مرزوق (توفي 780 هـ - 1379 م)⁽⁴⁾، وعبدالله بن يوسف بن رضوان النجاري (ت 783 هـ - 1381 م) ومحمد بن يحيى بن مؤمن الملقب بمنديل المالكي النحوي (توفي 787 هـ - 1385 م)⁽⁵⁾، وعلي بن سليمان الأنصاري القرطبي (توفي 730 هـ - 1329 م)⁽⁶⁾، ومحمد بن أحمد بن أبي بكر القرشي (توفي 758 هـ - 1356 م)⁽⁷⁾.

(1) كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، حلقة 20، ص 19.

(2) البغدادي: هدية العارفين، 2 / 170.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، 3 / 144-145. الوشرسي: الوفيات، 108.

(4) ابن خلدون: الرحلة، 50-56. السيوطي: بغية الوعاة، 1 / 46.

(5) ابن خلدون: الرحلة، 42-45.

(6) السيوطي: بغية الوعاة، 1 / 267.

(7) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 473.

ومحمد بن أحمد بن محمد الشريف السبتي (توفي 760هـ-1358م)⁽¹⁾، وعلي بن محمد بن علي التازي الشهير بابن برى (توفي 731هـ-1330)⁽²⁾.

ج- الأدب:

1- الشعر:

ازدهرت البيئة المرينية بألوان عديدة من الحياة الأدبية، وكان الشعراء في طليعة الحركة الأدبية، زيتوا إنتاجاتهم عصر المرينيين ورفعوا مكانتهم، وعرفوا في السلم والحرب، واثروا الحياة المرينية بنوادر احتفت بها كتب الأدب والتراجم، حتى بات من الصعوبة بمكان حصرها.

والواقع أن نتاج الشعراء المرينيين كان تعبيراً صادقاً ومرآة دقيقة للحياة المرينية، ولم يكن هامشياً على الحياة، بل ناطقاً بعوامل التأثير في الحياة السياسية والدينية للمعصر.

ولعل من أبرز السمات التي انطبعت به التناجات الشعرية، ونهجت ضمن دائرتها، التزام الشاعر المريني بتجسيد الحياة الدينية والعمل في توجيهاتها على المستويين النظري والتطبيقي، أما على صعيد المستوى النظري فقد جاءت آراء المالكية والفقهاء بمثابة تقنين لرؤية الشاعر وما نجب عليه كتاباته قال أبو الوليد بن رشد: «الشعر كلام فحسنة حسن، وقبيحة قبيح، إلا أن مالكا كره للمحرم الإكثار منه لما فيه من التلهي به، وكفى من عيب الإكثار منه أن الله تعالى لم يرضه لنبيه عليه السلام، فقال: «ما علمناه الشعر وما ينبغي له» ولا بأس أن ننشد اليسير منه متمثلاً به، قال ابن حبيب: «ما لم يكن فيه خنا وذكر النساء»⁽³⁾ وفي مكان آخر ذكر عياض

(1) ابن فرحون: الديباج المذهب، 2/ 264-265: السيوطي: بغية الوعاة، 1/ 21.

(2) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 306. السيوطي: بغية الوعاة، 1/ 39.

(3) ابن الدراج: الإمتاع والانتفاع، 41.

في الإكمال عن ابن وهب «لا بأس بإنشاد شعر به غير الهجاء والغناء به.. قلت وينبغي أن يكون ما فيه مدح النبي - ﷺ - وأصحابه محل وفاق»⁽¹⁾.

وأجاز أحدهم التشبيب بالنساء ووصف الحدود والقذود ولكن بشرط أن يكون فيمن يملكه الإنسان كالزوجة الشرعية⁽²⁾. وتعلقنا على ذلك نجد أن هذا التلقين في ما يجوز للشاعر قد خيم على الحياة الأدبية في العصر المريني، ونجم عنه انحصار في رؤية الشاعر أي في ملكته الشعرية فظل أسير هذا التحديد، ولم يمتلك فك أسر منها إلا قليلا مما أضاع علينا نتاجا شعريا خشية من افتضاح أمر الشاعر صونا لنفسه⁽³⁾.

أما على مستوى التطبيق فقد حرص الشاعر على تقديم نتاج بتلاءم ومعطيات عصره على المستويين السياسي والديني ففي المعارك والجهاد كان حرفه سيفا من السيوف وفي الانتصار كان نشيدا جميلا يتحف به القادة والمجاهدين، ويرفع من شأنهم، ويخلد مواقعهم، وفي ميدان آخر كالأعياد الدينية كانت قصيدته تعظيما للمناسبة، وتقديرا لمكانتها، وتفخيما لمن كان له الفضل في تعظيم طقوسها أو نشرها. وعلى أية حال فقد كان هذا التحديد يستجيب للبيئة المغربية بصورة عامة⁽⁴⁾، إلا أنه في الوقت نفسه سبب انقطاع بعض الشعراء أو تلف نتاجاتهم لشعورهم بالإهمال من قبل بيتهم وعلى مختلف المستويات، ولعل في قصة الشاعر عبد الرحمن المكودي⁽⁵⁾، (توفي 753 هـ - 1352 م) مع ابن الأحمر الذي أراد أن يكتب عن شعراء

(1) العقباي: تحفة الناظر وغنية الناكر، 38.

(2) الونشريسي: المعيار المغرب، 11 / 48.

(3) ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 156-157.

(4) ابن الدراج: الإمتاع والانتفاع، مقدمة المحقق.

(5) ترجم له: ابن الخطيب: الإحاطة، 3 / 17-19. أوصاف الناس، 110-111. ابن القاضي:

لقط الفراند، 206. المقرئ: نفع الطيب، 4 / 243. النمشي: تاريخ الشعر الشعراء، 48.

عصره في كتابه «نثر الجمان» دليلاً على معاناة بعض الشعراء المرينيين على الرغم من علو مكانتهم، حيث طلب الأخير من الأول نتاجه، فتردد في إعطاءه، ولما ألح عليه قال له: «أبطأت استحقاقاً شعري واستضعافاً لما صدر من نظمي ونثري، وهجرا للأدب وطريقته، وقليل لمجازته وحقيقته، طريقة كثر قائلها وقل نائلها فلو أمكن أن يجتمع في زماننا هذا أبو تمام باغترافه من بحر، وأبو الطيب باقتطاعه من زهر، وأبو العلاء ننحت من صخرة، على استخراج درهم واحد من أهل زماننا لما حظوا منهم بنائل، ولما وقفوا في أمورهم على طائل، دهر وقى الله من حوادثه، سيان ذو الجهل فيه والعالم»⁽¹⁾. والواقع أن الشاعر بتطرفه وحكمه على عصره في فوزه من الغضب لم يكن مصيباً، ولأننا وجدنا عشرات الشعراء ممن تمتع بهبات الدولة، ولكن وفقاً للنمط الشعري الذي كانوا يتغنون إشاعته وعلى وجه الخصوص الشعر السياسي والديني⁽²⁾.

ومن الإنصاف لهذا العهد أن نشير إلى أن ما تركه الشعراء من نتاجات على مستوى أغراض الشعر الأخرى كانت موجودة ومنها الغزل، إلا أنها لم ترق إلى مستوى الإطارين سالفى الذكر اللذين ذاعا انتشاراً بفضل الرعاية والدعم⁽³⁾، إضافة إلى غرض الرثاء الذي تجده في قصائد تميزت ببراعة شاعرهما، وعظم موهبته⁽⁴⁾.

(1) نثر فرائد الجمان، مقدمة المحقق، 52. ابن دراج السبتي: الإمتاع والانتفاع: مقدمة المحقق: ل.

(2) كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، حلقة 8 و9 عن الشاعرين مالك بن المرحل وعبد العزيز الملوزي.

(3) ابن تاوويت: الوافي بالأدب المغرب، 2/ 430.

(4) الجزنائي يرثي جاريته صبح. ابن القاضي: جذوة الاقباس، 1/ 121.

وانتشرت أيضاً في هذا العهد أغراض أخرى وإن كانت قليلة ومنها وصف الآلات مثل السفينة والرمح والمنزل والحخين إلى الديار والناعورة⁽¹⁾، إضافة إلى شعر الاخوانيات الذي كاد ينعدم في عصر الموحدين، ورفع العصر المريني إلى منزلة طيبة فقلما نجد شاعراً لا يمتلك قصيد في هذا الغرض⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بالأغراض الدينية فقد نمت القصيدة النبوية مع نمو الأعياد الدينية وخاصة ميلاد النبي محمد - ﷺ - .

ففي سنة 690هـ - 1291م، احتفل المغاربة في جميع بلادهم بالمولد النبوي⁽³⁾، على عهد السلطان يوسف بن يعقوب⁽⁴⁾، بينما تبنت الدولة الصرف على المولد وتغطية نفقاته على عهد السلطان أبي الحسن في عموم البلاد سنوياً، وقدم بعض المؤرخين وصفاً دقيقاً للمراسيم التي تضمنتها أيام المولد السبعة⁽⁵⁾، والذي يهمننا من الاحتفالات القصائد التي انشدها الشعراء والتي عرفت بالمولديات، تعظيماً لتلك المناسبة التي جاءت باعتقادنا رد فعل عنيف على التحديات النصرانية القادمة من الممالك الإسبانية، وفي ذلك ما يفسر أيضاً انتشار ظاهرة الاحتفالات بالمولد النبوي في بلاد المغرب الأوسط⁽⁶⁾، وإفريقية⁽⁷⁾، وغرناطة⁽⁸⁾.

(1) ابن تاووت: الوافي بالأدب المغربي، 2 / 429، 435.

(2) ابن تاووت: الوافي بالأدب المغربي، 2 / 425-426، 429.

(3) عاليج هذا الموضوع بدقة الأستاذ المنوني في بحث يقع في تسع ورقات، للمزيد ينظر ورقات عن الحضارة المغربية، 265-281. وكذلك الجراري: الأدب المغربي، 1 / 141 وما بعدها.

(4) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 383. ابن السكاك: نصيح ملوك الإسلام، ورقة 109.

(5) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 152-154.

(6) المقرئ: نفع الطيب، 4 / 193.

(7) ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، 306.

(8) ابن خلدون: العبر، 7 / 412.

لقد بقي الاحتفال بالمولد النبوي تشجيعاً من قبل الفقهاء على الرغم من محاربتهم للبدع التي طرأت عليه⁽¹⁾، أما أشهر القصائد المولدية التي ألفت على عهد أبي الحسن فهي قصيدة القاضي يوسف الطرطوشي التي ألحها في ليلة المولد سنة 740هـ-1339م منها:⁽²⁾

يا مصحفاً ما رأى الراؤون في زمن شبيهاً له مصحفاً من نسخ سلطان
فضيلة مثلها في الدهر ما عرفت من عهد عثمان إلا لابن عثمان

واظهر شعراء هذا العهد مقدرة في التجاوب مع ألوان الأدب والتفاعل معها والكتابة بها، ولعل من أبرزها الموشحات⁽³⁾، ومن الذين اشتهروا في هذه الفترة على سبيل المثال لا الحصر محمد بن يحيى العزفي السبتي (توفي 768هـ-1366م) الذي قيل عنه انه «بز أهل زمانه في الموشحات»⁽⁴⁾.

أما اللون الآخر الذي احتضنته البيئة المربنية في المغرب الأقصى وجاء على غرار الموشح غير انه كتب بلهجة العامة، فهو ما يسمى «عروض للبلد»⁽⁵⁾، وعرف أيضاً بالملاحون⁽⁶⁾، واقتبل عليه أهل المغرب وله ونوعوه أصنافاً منها المزدوج

(1) الوشرسي: المعيار، 8/ 255، 7/ 100، 11/ 279-280.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 476. وللمزيد عن المولديات، ينظر: المتوني: المولديات في المغرب العربي، 62.

(3) ينظر: عن الموشحات: الأدب في موكب الحضارة، 1/ 246 وما بعدها، وعن الوشاحين في القرن الثامن الهجري، ينظر: عتاني، الموشحات الأندلسية، 165 وما بعدها. الجراي: الأدب المغربي، 1/ 159-160.

(4) المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 378.

(5) المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 219.

(6) ابن عبد الله: تطور الفكر واللغة، 58. الجراي: الأدب المغربي، 1/ 161-167.

والكازي والملحمة والغزل⁽¹⁾، ولعل من أبرز من اشتهر بهذا اللون رجل يدعى بالكفيف في زرهون من نواحي مكناسة، فقد أبدع في هذا الفن وكان من أبرز نتاجه ما قاله في رحلة السلطان أبي الحسن إلى إفريقية وهو يصف هزيمته بالقبروان⁽²⁾، واهتم المغاربة بالزجل⁽³⁾، وخاصة في استخدامه في مدح النبي رسول الله - ﷺ⁽⁴⁾.

أما السياسة فقد اهتم الشعراء فيها بقصائدهم، وخاصة في المعارك التي خاضها أبو الحسن في بلاد الأندلس⁽⁵⁾، أو عند قيامه بفتح منطقة جديدة وضمها إلى دولته كما فعل أبو القاسم الرحوي⁽⁶⁾، وقد أكثر الشعراء من مدح السلطان أبي الحسن وفي كثير من المناسبات⁽⁷⁾.

وأخيرا فقد عرفت البلاد الكثير من الشعراء إضافة إلى ما ذكرناه ومنهم: أحمد بن محمد بن أبي العيش بن يربوع المرئي السبتي (توفي 749هـ-1348م) «وكانت له عند سلطان المغرب حظوة ومكانة واستعمله في السفارة بينه وبين الملوك»⁽⁸⁾. وأبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم النميري (توفي 774هـ-1372م)⁽⁹⁾. قال ابن الخطيب

(1) المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 221.

(2) المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 222-223. ابن عبد الله: مظاهر الثقافة المغربية، 89.

(3) عن الزجل: ينظر: الشكعة: الأدب في موكب الحضارة، 2/ 285 وما بعدها.

(4) المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 228.

(5) ابن القاضي: درة الحجال، 3/ 21.

(6) ينظر الفصل الأول: فتح إفريقية.

(7) ابن الأحمر: نثر فوائد الجمان، 346. اللبشي: تاريخ الشعر والشعراء، 21-46.

(8) ابن حجر: الدرر الكامنة، 1/ 311-312.

(9) ترجم له: ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 350. المقرئ: نفح الطيب، 7/ 108-121. بشير

الفاسي إلى لفظة الملحون: «لا تعني انه كتب بلغة ملحونة لأنه باللغة العامية التي تولدت عن الفصحى وإنما جاء من لفظة الملحون وهي مشتقة من اللحن أي الغناء». الفاسي: وحي البنية، 131-134.

(نار على علم، وبدر على ظلم، ومتحف الأقاليم السبعة بجنى القلم، كلف بعقائل الأدب وبدره لا يعرف الكلف واحيا من آثار السلف ما سلف)⁽¹⁾. والشاعر محمد بن أبي الحسن علي بن أبي القاسم المزدغي (توفي 748هـ-1347م)⁽²⁾، والشاعر علي بن محمد بن عبد الحق بن محمد الصباغ العتيقي (توفي 768هـ-1356م) وكان قد انتظم في سلك شعراء السلطان وكتابه⁽³⁾، والشاعر الفقيه الكاتب علي بن دلقه الهمداني المكناسي (توفي 749هـ-1348م) الذي وصفه الوليد بن الأحمر بقوله «شعر فاستلب الألباب وخلخلها... ومهر فظهر، ولفظ فاسمع، وحفظ فاجمع...»⁽⁴⁾ ومن تازاً عبد الرحمن بن إبراهيم بن الأشقر «كتب للملوك من مرين في دار الملك، وانخرط بين صدورهم واسطة في ذلك السلك»⁽⁵⁾، وعرفت سبته على هذا العهد شعراء عرفوا بمكانتهم فيه ومنهم أبو القاسم بن عمران الحضرمي (توفي 750هـ-1349م) وأبو عبد الله بن هارون الأموي (توفي 750هـ-1349م) وأبو عبد الله ابن خميس الأنصاري (توفي 750هـ-1349م)⁽⁶⁾.

2- الشر:

ليس صعباً على الباحثين المحدثين تقدير الأساليب الشرية المتنوعة التي استخدمها كتاب العصر المريني في تلك الفترة وذلك للكم الهائل الذي فاضت به قرائح كتابهم في مختلف الميادين.

(1) الكتيبة الكامنة: 260. النميثي: تاريخ الشعر والشعراء، 21. ابن تغري بردي: المنهل الصافي، 1/ 66.

(2) النميثي: تاريخ الشعر والشعراء، 46-47.

(3) ابن الخطيب: الكتيبة الكامنة، 228-229. النميثي: تاريخ الشعر، 49-50.

(4) نثير فرائد الجمان، 343-345.

(5) ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان، 345-346.

(6) مجهول: بلغة الأمانة، 176-177.

ولعل من النماذج الأولى التي يمكن أن نستهل بها الحديث عن النشر الفني، الخطبة التي استخدمها سلاطينهم، ومن بينها الخطبة المشهورة التي ألقاها جده السلطان يعقوب بن عبد الحق في إحدى معاركه في بلاد الأندلس سنة 674هـ-1249م، حيث تميز أسلوبها بالسهولة وقلة استعمال المحسنات البديعية المتكلفة، واعتمد فيها على تضمين الآيات القرآنية لأغراض التأثير في مشاعر السامع ومنها ما نصه: «وهذا يوم عظيم، ومشهد جسيم له ما بعده، إلا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها وجدوا في طلابها»⁽¹⁾.

أما في مجال الكتابة، فقد بادر سلاطين الدولة المرينية إلى اختيار أبرز كتاب عصرهم، وكان السلطان أبو الحسن من بين السلاطين المرينيين الذين استخدموا كتاباً أمثال أبي الفضل عبد الله بن أبي مدين والكاتب أبي المجد ابن محمد بن أبي مدين والكاتب عبد المهيم بن محمد الحضرمي⁽²⁾، والكاتب علي بن علي القبائلي⁽³⁾، وأحمد بن شعيب الجزنائي⁽⁴⁾.

واحتفظت بعض المصادر التاريخية بعدد لا بأس به من الرسائل المرينية على عهد السلطان أبي الحسن⁽⁵⁾، ولإيضاح طبيعة الرسائل المذكورة وأسلوب كتابتها، وقفنا على نموذج منها وهو الرسالة التي بعثها السلطان أبو الحسن إلى الناصر بن قلاوون في سنة 738هـ-1337م⁽⁶⁾، فبعد البسملة، وذكر الألقاب المفخمة لهم وللمخاطب تفتح الرسالة بأسلوب أدبي جميل مع استعمال السجع: «سلام كريم،

(1) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 149.

(2) ابن الأحر: مستودع العلامة، 46-47، 50.

(3) ابن الأحر: روضة السرين، 26.

(4) ابن القاضي: لقط الفرائد، 202.

(5) ينظر الفصل الثاني: العلاقات مع الممالك في مصر.

(6) القلقشندي: صبح الأعشى، 8/ 99-103.

ذاك عميم، تشرق إشراق النهار صفحاته، وتعبق عن شذا الروض المعطار نفحاته، يخص أخاكم العلي، ورحمة الله وبركاته». وزيادة على ذلك فالعبارة المستعملة، تتسم بطابع السهولة والعمق، سهولة الوصول إلى اذن سامعها، فهي لا توحى بغير غرضها، بعيدة عن التكلف والصنعة البلاغية الجامدة، محلاة بالآيات القرآنية التي تعزز من غرض القصد ومبتغاه.

وما يجدر ذكره أن الرسائل المرينية وقعت موقعا حسنا في نفوس أدباء المشرق، كما حصل للرسالتين المرينية والصالحية المتبادلتين في سنة 745هـ-1344م، حيث تداولها العلماء بالقراءة والرواية⁽¹⁾.

ومن الأنماط الأخرى في النثر «الرسائل الاخوانية» فقد حفظت لنا بعض كتب التراجم والأدب نصوصا منها ومن بينها رسالة لأحمد بن شعيب الجزنائي⁽²⁾، وهي من النماذج التي تقدم تصورا واضحا عن النمط الثري المستخدم فيها، فقد استهلها مؤلفها بالشعر وانتهى بها بالنثر، وتميزت بطولها زيادة على احتوائها على الكثير من التوريات العلمية والأدبية المختلفة وهي بذلك تتسم بميزة على رسائل الموحدين التي عرفت بقصرها⁽³⁾.

والسمة الغالبة على كتاب الرسائل النثرية في العصر المريني توظيف عناصر العلوم التي تشكل جزءا من ثقافة الكاتب في رسائله، فمثلا وظف القاضي محمد الفشتالي في رسالة إلى لسان الدين ابن الخطيب⁽⁴⁾، عتصر المنطق في قوله: «السالبة الكلية التي لا تتج»⁽⁵⁾.

(1) المقرئ: نفع الطيب، 2/ 547.

(2) ابن الأحمر: نثر فرائد الجمان، 340-343.

(3) ابن تاويت: الوافي بالأدب العربي، 2/ 432.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة، 2/ 189-190.

(5) ابن تاويت: الوافي بالأدب العربي، 2، 477. وإن كان نص العبارة غير ذلك في الإحاطة

ومن بين الأنماط الأخرى التي استخدمها كتاب العصر المريني الشر في مؤلفاتهم المتنوعة، وقد ارتأينا الحديث عن مؤلفين أحدهما في علم التاريخ والآخر في علم التصوف بغية تقريب الصورة، وأولهما «جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس» للجزنائي، فقد تميز أسلوبه بالبساطة والتحرر من الأساليب البلاغية المتكلفة، أما السجع فقد كان ملازماً للكاتب، وإن كان ذلك أسلوباً طبيعياً اعتاده كتاب العصر المريني في تلك الفترة، والكتاب يتضمن إفادات من النصوص القرآنية مثل «وعلم العباد أن عناية الله بهم غير مقطوعة وأياديه غير ممنوعة»⁽¹⁾، وفي حين نجد أن الكاتب لا يتوانى عن إتيان بنص بعض الأبيات الشعرية إضافة إلى استخدام المترادفات من الكلمات مثل الأعظم والافخم والأضخم⁽²⁾.

أما الكتاب الثاني فهو «السلسل العذب والمنهل الأحلى» فقد اتسم أسلوبه بطابع لم يختلف عن سابقه من حيث الإفادة من النص القرآني كأن يقول: «يتمتعون بما اشتتهت أنفسهم من قرة أعين وهم خالدون، ولا يتطرق لنعيم قاطع الزوال، ولا يضارون في رؤية ذي الجلال»⁽³⁾، إضافة إلى تضمين الآيات القرآنية⁽⁴⁾، أو الأحاديث النبوية⁽⁵⁾، أو الشعر⁽⁶⁾ أو أقوال الحكماء والعلماء⁽⁷⁾، ومن جانب آخر فقد كان طابع السجع فيه مقترناً بنهج الكاتب: «فكسر العلم وفشا العدل، وانسكب على جميع الخلق من الله المن والفضل، ووجد الخير باستخلافهم عليه عوناً، وزادت

حيث وردت «السالف الكلية فسدت لها الداعة من تكلم إلا مرة». 190.

(1) ابن تاووت: الوافي بالأدب العربي، 559-560.

(2) الجزنائي: جني زهرة الأس، 1.

(3) الحضرمي: السلسل العذب، 37.

(4) الحضرمي: السلسل العذب، 69.

(5) الحضرمي: السلسل العذب، 54، 58، 60، 63، 84، 87.

(6) الحضرمي: السلسل العذب، 50.

(7) الحضرمي: السلسل العذب، 59، 66، 78.

محارم الله احتراماً وصوناً، فاسترد المغرب بسلطانهم الأعلى عصر الشباب، وإن للذاهب أكرم الإياب»⁽¹⁾، بينما نجد أن السجع يزول أحياناً لكونه يقف حائلاً بين أداة الكاتب ورغبته في توصيل المعنى بصورته الدقيقة: «وحاله... النهاية من دماء الخلق وسهولة الجانب، ولين الانقياد للخير، وإطعام الطعام، وبذل الجهد في قضاء حاجات المسلمين، وله خصائص وحالات تأخذ بمجامع القلوب»⁽²⁾.

5- علم التاريخ:

لم يدخر علماء العهد الذي نبهته ذخرا في أغناء حركتهم العلمية في مختلف أنواع العلوم والفنون، وكانت عنايتهم بالتاريخ وتضلعتهم فيه طريقاً سلكه جلة من العلماء والمؤرخين، تمكنوا بفضل مؤلفاتهم من تزيين المكتبة العربية، لاسيما ما سجلوه عن الوقائع التاريخية في حياة المغرب الإسلامي⁽³⁾.

والميزة التي يمكن أن نسجلها للعصر الذي نبهته تكمن في محاولاتهم لتسجيل تاريخ المغرب منذ انتشار الإسلام، وبصورة منفصلة عن التاريخ العربي الإسلامي العام، إضافة إلى أن مؤلفاتهم لم تقتصر على الوقائع التاريخية فحسب بل اشتملت على عناصر التأثير في التاريخ وإبراز المنجزات الحضارية في تلك العصور إضافة إلى أن مؤلفاتهم كانت بمثابة وثائق اقتصادية واجتماعية وثقافية.

ولعل من أبرز المؤلفات التاريخية التي قدمها العلماء المغاربة عن تاريخ المغرب تلك التي تنحصر في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، فقد عرفت هذه الفترة الكثير من المؤرخين نخص بالذكر منهم المؤرخ المشهور ابن عذارى المراكشي، الذي اكتفت تراجمه القليلة إلى القول بأنه كان حياً حتى نهاية القرن السابع الهجري،

(1) الحضرمي: السلسل العذب، 38.

(2) الحضرمي: السلسل العذب، 49.

(3) كنون: النبوغ المغربي، 1/ 207. إسماعيل: تاريخ شاله الإسلامية، 275.

وابن أبي زرع، أبي الحسن على أو أبي العباس أحمد الذي توفي في واقعة طريف في سنة 741هـ-1340م⁽¹⁾. وعلي الجزنائي⁽²⁾، والوليد بن الأحمر (توفي 810هـ-1407م) الذي كان تلميذا دؤبا في هذا العصر⁽³⁾، وأخيرا المؤرخ الكبير ابن خلدون الذي احتضنه علماء المغرب في رحلتهم إلى إفريقية ودرس على أيديهم قرابة الستين⁽⁴⁾، وكان عمره آنذاك حوالي ست عشرة سنة⁽⁵⁾، وابن مرزوق الخطيب المار الذكر وكان من المقربين إلى السلطان أبي الحسن⁽⁶⁾.

والحديث عن تأليف علماء هذا العصر في علم التاريخ من الأمور التي تستحق البحث الطويل، وليس من السهولة بمكان إيفاء حقهم، لذا فإن تسليط الضوء على مؤلفات البعض قد يعطي لمؤلا ولعصرهم بعض الحق في مكانة علم التاريخ عندهم وبراعتهم فيه. ولعل مقدمة مؤلفات العصر التي تستحق الذكر كتاب «البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك المغرب والأندلس»⁽⁷⁾، وهو في أجزاء ثلاثة الأول يتعلق بأخبار إفريقية منذ الفتح الأول إلى ذكر ابتداء الدولة المرابطية والجزء

(1) ابن ناويت: الوافي بالأدب العربي، 2 / 412.

(2) على الرغم من اشتهاؤه مؤلفه «جني زهرة الأس» إلا أنه ظل مغمورا، ولم يسر أحد إلى ترجمته، للمزيد ينظر مقدمة محقق جني زهرة الأس: ب وما بعدها.

(3) ألف عددا من الكتب من بينها مستودع العلامة ومستبدع العلامة، روضة النشرين في أخبار بني مرين وغيرها.

(4) الرحلة، 19 وما بعدها.

(5) الرحلة، 7.

(6) المسند الصحيح، 482 وما بعدها.

(7) ابن عذارى: البيان المغرب، 1 / 3-5. من المفيد أن نذكر أن المحققين لم يلتزموا هذا التقسيم فصار الكتاب خمسة أجزاء، الأربعة الأولى بتحقيق كولان ولفي بروفنسال، والخامس الذي يسمى بالقسم الثالث كما خصصه ابن عذارى، عثر عليه أخيرا وحققه امبرودسي بالاشتراك مع محمد بن ناويت ومحمد إبراهيم الكتاني، وما زال بعض المؤرخين يعثرون على ورقات منه.

الثاني ذكر أخبار جزيرة الأندلس من الفتح وحتى أخبار ملوك الطوائف ثم الجزء الثالث والحديث فيه عن أخبار دولة المرابطين وحتى استيلاء الإمارة المرينية على العاصمة الموحدية مراكش⁽¹⁾.

أما ابن أبي زرع (توفي 741هـ-1340م) مؤلف كتاب «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» فيبتدئ ذكره بالحديث عن دولة الأدراسة الحسنيين وذكر قيامهم وبنيتهم⁽²⁾، مستعرضا الدول التي قامت في المغرب والأندلس، حيث ينتهي بأحداث سنة 726هـ-1325م.

أما الكتاب الثالث والمعروف بـ «الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية»⁽³⁾، فقد قسمه مؤلفه ابن أبي زرع إلى عشرة أبواب يبتدئ الباب الأول بذكر بني مرين وقبائلهم، وينتهي الباب العاشر بعهد السلطان يعقوب بن عبد الحق⁽⁴⁾، أما فيما يتعلق بالكتاب الرابع للجزنائي والمعروف بـ «جني زهرة الأس في بناء مدينة فاس» فهو في جزأين الأول في ذكر من أسس فاس من الأدراسة وما جاء من الثناء عليها وعلى سكانها⁽⁵⁾ والثاني في «ذكر من أدرأها بالأسوار وزاد فيها الزيادات وذكر

(1) الأنيس المطرب، 15. الوثريسي: الوفيات، 112. ابن القاضي: لقط القرائد، 193.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 414.

(3) عني به المحققون ومنهم محمد بن أبي شنب في سنة 1920 وحققه ثانية عبد الوهاب بن منصور، وقد اختلف الباحثون في مؤلف الكتاب، وظل مجهولا حتى نشر كنون بحثا يؤكد أن مؤلفه هو ابن أبي زرع، للمزيد ينظر: مجلة تطوان، العدد الثاني/ 145، كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، حلقة 29.

(4) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 11-12.

(5) الجزنائي: جني زهرة الأس، 4-39.

جامعيها العتيقين وما انتهت إليه من الدور والارحي والحمامات⁽¹⁾. ونهاية الكتاب في الحديث عن جامع الأندلس⁽²⁾.

وبعد أن عرضنا هذه المؤلفات فمن الواجب ألا ننسى غيرها مما كتب أيضاً عن هذه الفترة وبالتحديد كتاب «المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن» والذي يعد من أهم الوثائق التاريخية والحضارية عن هذه الفترة الدقيقة من حياة الدولة المرينية⁽³⁾.

إن المهمة العلمية والمنهجية الموضوعية التي حرص عليها علماء هذا العصر وشغف سلاطينه في تسجيل منجزاتهم⁽⁴⁾. دفعت الكثيرين من طلاب هذا العصر إلى تقديم مؤلفاتهم، وفي هذا المقام لا بد من نشير إلى مؤلف «روضة النسرين في أخبار دولة بني مرين» والمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذي بلغت شهرة مقدمة تاريخه العالمي الكبير حداً كبيراً⁽⁵⁾، وكان بحق واضع قواعد نقد التاريخ وفلسفته⁽⁶⁾.

6- الرحلات:

ليس الغرض من حديثنا عن الرحلات في البحث عن ماهيتها، ودوافع نشوئها، على صعيد بلاد المغرب، وكل ما يمكن أن نقوله في هذا الصدد أن البيئة

(1) الجزنائي: جني زهرة الأس، 40.

(2) الجزنائي: جني زهرة الأس، 92-98.

(3) ظل الكتاب متداولاً على شكل مخطوط أو من خلال ما حققه ليثي بروفنسال في مجلة هيسبريس، المجلد الخامس لسنة 1925، تحت عنوان «منتخب جديد في تاريخ الدولة المرينية» حتى نال حظه عندما حققها لدكتور ماريا خيسوس بيغيرا، وطبع في الجزائر سنة 1981.

(4) معظم المؤلفات التاريخية قدمت إلى السلاطين المرينيين باستثناء البيان المغرب.

(5) روزنثال: تراث الإسلام، 2/ 153.

(6) العفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، 315.

المغربية كانت محفزة للعلماء في الاطلاع على مراكز الحضارة العربية الإسلامية، والاستزادة من علومها، ولعل هذا الأمر كان حلما يراود نخيلة كل فرد شعر بقيمة المشرق سواء أكان دافعه الحج وزيارة العتبات المقدسة أم رؤية معالم الحضارة والعلم في المدن العربية الأخرى.

أما في العصر المريني، فقد كان هذا العصر غنيا في عدد الرحلات المغربية التي انطلق أصحابها إلى بلاد المشرق، والتي كانت تتنوع في مضامينها.

انطلاقا من ثقافة أصحابها وميولهم، ولعل من الإنصاف القول أن ما قدمه المغاربة في بناء صرح الثقافة العربية الإسلامية إضافة إلى الأبحاث الفقهية هو فن الرحلة⁽¹⁾.

وأول ما يصادفنا في دراسة الرحلات التي انطلقت على هذا العهد اهتمامها بالجانب الأدبي إضافة إلى العلوم الطبيعية⁽²⁾، ولعل من قبيل الاعتزاز أن نبتدئ في هذا الميدان بالرحلة الموسومة بـ «تحفة النظائر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لرحالة محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة الذي انطلق من بلده طنجة سنة 725هـ - 1324م، واتجه إلى بلاد مصر والشام والعراق وبلاد فارس والهند والسند والصين وغيرها ثم بلاد اليمن، حج في مكة ثم عاد إلى المغرب⁽³⁾، حيث انتهى من تقييدها سنة 756هـ - 1355م، ومدة رحلته 25 سنة،

(1) الفاسي: نشأة الدولة المرينية، 22. وللمزيد ينظر، وحي البينة، 68 وما بعدها، وكذلك ابن

عثمان المكناسي: الأكسير في فكاك الأسير مقدمة المحقق أ-ز.

(2) كراتشوفسكي: تاريخ الأدب الجغرافي، 1/ 382.

(3) ابن الخطيب: الإحاطة، 3/ 273. ابن حجر: الدرر الكامنة، 4/ 100.

اختصرها ابن جزري⁽¹⁾، (توفي 757هـ-1356) والرحلة كاملة ما زالت مفقودة⁽²⁾. أما رحلته الثانية فقد كانت إلى بلاد السودان⁽³⁾.

وما يهمننا من هذه الرحلة - التي قدرها العالم يول بما لا يقل عن 75,000 ميل، وذلك ما لم يكن بالإمكان قطعه قبل عصر البخار⁽⁴⁾، أهميتها التاريخية وبالأخص عن بعض الدول التي زارها، وقدم معلومات مفيدة عن أحوالها العامة إضافة إلى أهميتها الجغرافية⁽⁵⁾. وبذلك أصبحت من المصادر الأساسية المعتمدة في الدراسات الإنسانية المختلفة عن تلك الأقاليم بعد أن كادت تكون خافية على الباحثين فيها، الأمر الذي دفع العلماء من مختلف أرجاء المعمورة ومن بينهم علماء أوروبا إلى ترجمتها والعناية بها، وكان آخرهم القس صموئيل لي الذي قدم أول ترجمة كاملة لموجزها في سنة 1545هـ-1829م⁽⁶⁾.

والواقع أن ابن بطوطة لم يكن الرحالة الوحيد في تلك الفترة، بل احتضنت البيئة المرينية بين ظهرانيتها الكثير منهم، وكانوا بارعين في دراسة الحياة العلمية في المدن العربية التي زاروها، حيث ذكروا نشاط العلماء فيها والمؤلفات التي كانوا يتداولونها، ومنهم محمد بن محمد البعدري⁽⁷⁾. ورحلته هي الموسومة بـ«الرحلة

(1) ترجم له ابن الخطيب: الإحاطة، 2/ 256-265.

(2) ابن إبراهيم: الأعلام بمن حل بمراكش، 4/ 21-10.

(3) البستاني: مقدمة الرحلة، 5. حيث يشير في الصفحة نفسها إلى أنها استغرقت - الرحلة كاملة

29 سنة وهذا غير صحيح، وقد ترجم له ابن الخطيب: أوصاف الناس، 66-67. المقرئ:

نفع الطيب، 8/ 40-42.

(4) نفيس احمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، 116.

(5) العفيفي: تطور الفكر العلمي عند المسلمين، 296.

(6) الصياد: من الجهة الجغرافية، 79.

(7) ابن الخطيب: الإحاطة، 2/ 577-579. للمزيد ينظر:

المغربية» وقد قام بها في سنة 688هـ-1289⁽¹⁾، والعالم ابن رشيد القهري (توفي 721هـ-1321م)⁽²⁾ صاحب الرحلة المعروفة بـ «ملء العيبة في ما جمع بطول الغيبة في الوجهة الواجبة إلى الحرمين مكة وطيبة»⁽³⁾، والرحالة خالد بن عيسى البلوي، يسمى رحلته بـ «تاج المشرق في تحلية علماء المشرق»، وقد انطلق إلى المشرق الإسلامي في سنة 736هـ-1335م⁽⁴⁾، وقيد أسماء العلماء الذين اتصل بهم في رحلته من بلاد الأندلس وتلمسان وبيجاية وقسنطينة وتونس والإسكندرية والقاهرة والخليل والقدس والمدينة المنورة ومكة⁽⁵⁾، واستمر في رحلته إلى حين عودته قرابة خمس سنوات.

ولم تنقطع رحلات المغاربة عند هؤلاء الأعلام بل برز آخرون من بينهم الرعيني (توفي 779هـ-1377م)⁽⁶⁾، وابن مرزوق الخطيب الذي عرفت رحلته بـ «عجالة المستوجز المجاز في ذكر من سمع من المشايخ دون من أجاز من أئمة المغرب والشام والحجاز»⁽⁷⁾، وكذلك الزواوي (توفي 743هـ-1342م) الذي زار الإسكندرية ودرس على علمائها إضافة إلى القاهرة ونابلس ودمشق⁽¹⁾.

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 286-288.

(2) ترجم له: المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 347-356. السيوطي: بغية الوعاة، 1/ 199. ابن

حجر: الدرر الكامنة، 4/ 229-231. فهرست الفهارس، 1/ 443.

(3) حقق جزأين فيها الدكتور محمد الحبيب بن الخوخة، ينظر: المنوي: المصادر العربية لتاريخ

المغرب، 1/ 74، 80. ابن سودة: دليل مؤرخ المغرب، 1/ 363-364.

(4) تاج المشرق، 1/ 144.

(5) تاج المشرق: مقدمة المحقق، 1/ 60-66 و2/ 156.

(6) مخلوف: شجرة النور الزكية، 236. فهرست الفهارس، 1/ 436، حيث يشير الأخير إلى

أن وفاته في سنة 771هـ ويضيف أن له كتاباً بعنوان «المغرب في جملة صلحاء المشرق

والمغرب».

(7) ترجم له ابن فرحون: الديباج المذهب، 2/ 290-296. عبدالله: الموسوعة المغربية، 2/ 110-

لم يعن المغاربة بتسجيل رحلاتهم فقط بل اهتموا أيضاً بنقد الرحلات التي أنجزت قبلهم وتمحيص معلوماتها عن طريق المشاهدة المباشرة، وقد طرق هذا الميدان فيما بعد الرحالة أبو القاسم الزياني (توفي 1149هـ-1736م)⁽²⁾ الذي اشتهر بالعديد من المؤلفات ومن بينها رحلته الموسومة «الترجمة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا» حين أشار في مواضع منها إلى حوادث وقعت لابن بطوطة في بلاد الهند حول ملوكها، ومنها: قضاؤه فيها، ومصاهرته لسلطانها، وأنكرها الزياني بعد أن عرضها على أفراد من أهل الهند، أنكروها أيضاً⁽³⁾، وقد أردنا أن نذكر ذلك للتأكيد على حرص المغاربة في تدقيق الرحلات وسعيهم في ذلك، إلا أن ما جاء به الزياني غير صحيح ولأسباب كثيرة من بينها أن الفترة التي كانت بين الرحلتين بعيدة تقارب أربعة قرون وكذلك فإن فترة تدوين رحلة ابن بطوطة وبرعاية السلطان أبي عتات وبحضور نخبة من علماء المغرب الأقصى يدل على الاهتمام الذي لقيته الرحلة.

وعلى كل حال فلسان الرحلة لم تنقطع عند علماء تلك الفترة، فكان من بينهم من رحل فاستقر في بلاد بعيدة عن المغرب ومات هناك⁽⁴⁾، ومنهم من عاد إلى بلاده وقيد رحلته على شكل برنامج للعلماء الذين اتصل بهم⁽⁵⁾ ومنهم من ضاعت تقييداته خلال الرحلة فطواها النسيان⁽⁶⁾.

111. وكان قد توفي بعد الثمانين وسبع مائة. ابن سودة المري: دليل مؤرخ الغرب، 1/ 305.

(1) مخلوف: شجرة النور الزكية، 219.

(2) ترجم له: ليفي بروفنسال: مؤرخ الشرفاء، 102-136. الزركلي: الاعلام، 616. كحالة: معجم المؤلفين، 8/ 193.

(3) الترجمة الكبرى، 581-582.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 227. ابن فرحون: الديباج المذهب، 1/ 255. ابن مريم: البستان، 144.

(5) الكتاني: فهرست الفهارس، 2/ 1117-1118.

(6) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 445.

7- التصوف:

شهدت الدولة المرينية في القرن الثامن الهجري نموا للتيارات الصوفية، والتي باتت مظهرا لا يخفى على الباحثين، والأمر الذي يعنينا من ذلك دراسة اتجاهاتها، والمؤلفات التي سادت فيها.

وجاء انتشار الطرائق الصوفية نتيجة عوامل عديدة في عصر المرابطين والموحدين، وفي مقدمة تلك العوامل ما سماه كولان «الاختار الديني»⁽¹⁾ وقد أخذت تلك الحركات بالزيادة والانتشار وتركزت في مناطق الأرياف والبادية لما لأهل تلك المناطق من دور في رفع منزلتهم والتبرك بأثر الصالحين منهم، وربما وصل الأمر إلى حد الشذوذ بذلك التقدير⁽²⁾، وزيادة على ذلك فقد هجر رجال التصوف قواعد المدن «خيفة من الفتن ومن كان مقبلا بها على وجه الاضطراب»⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر، فالحركة الصوفية في الدولة المرينية، ظهرت على هذا العهد حركة بحسب لها الحساب، وليس أدل على ذلك من الحادث الذي وقع في عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني، عندما كادت حركتهم تتحول إلى ثورة شعبية وتجتاح سلطانه، عندما أعلن أحد الأفراد ويدعى العباس بن صالح: انه «رسول الفاطمي»⁽⁴⁾ وتفاديا للأمر سعى السلاطين المرينيون إلى رفع منزلة الصالحين منهم⁽⁵⁾، بل وصل أمرهم إلى زيارة بعضهم من قبل السلطان المريني بعد أن رفضوا المجيء إليه⁽⁶⁾.

(1) الفردبيل: الفرق الإسلامية، 278.

(2) ابن عبد الله: تطور الفكر واللغة، 116.

(3) النادلي، التشوف إلى رجال التصوف، 3.

(4) البادسي: المقصد الشريف، 115.

(5) الكانوني: جواهر الكمال، 6-7.

(6) المقرئ: نفع الطيب، 6/ 493.

والواقع أن الحركة الصوفية التي انتشرت في المغرب المريني آنذاك كانت متمسكة بالمذهب السني، بعيدة عن الطريق الفلسفي، ولعل هذا الأمر كان وراء غياب بعض الطرق المتصوفة من كان أصحابها من الذين ماشوا في المغرب كابن سبعين⁽¹⁾، الذي نفاه أبو علي بن خلاص من سبته بعد أن ذاع أمره كفيلسوف أما كتابه «بد العارف» فقد قيل فيه «ذلك الكتاب كتاب سوء... وهو كتاب مذموم فيه هذيان كثير وكفاه قبحا أن سماه للبد، والبذ في اللغة: الصنم، وقيل هو الأصنام»⁽²⁾.

أما بعض الطرق الصوفية التي انتشرت في المشرق فلم تكن مقبولة في المغرب، ولعل في مقدمتها مذهب الحلاج⁽³⁾ في التصوف، قال ابن البناء في بعض مناقشاته لأقوال الحلاج، ومنها «ما في الجبهة إلا الله»، «لو استقام قلب الحلاج لاستقام لسانه»⁽⁴⁾، وزيادة على ذلك قول أبي الحسن بن الجياب شعرا:

وإذا تمكن منه سكر معربد	فليصبرن لمصرع الحلاج
قصرت عبارة فيه عن وجدانه	فعدا يفيض منطق لجلاج
اعشاه نور للحقيقة باهر	فتراه يحبط في الظلام الداجي ⁽⁵⁾

ولم يكتف المغاربة بهذه المواقف من بعض أقطاب الصوفية بل اتخذوا مواقف من العديد من المؤلفات «فحذروا من تلبيس ابن الجوزي، ومن مواضع في مواعظه،

(1) النشار: أبو الحسن الشنري، 12.

(2) البادسي: المقصد الشريف، 69.

(3) هو الحسين بن منصور الحلاج، عاش في بغداد وزار كثيرا من مدن العالم الإسلامي ثم عاد إلى بغداد لنشر مذهبه في التصوف. ينظر: ابن خلكان: الوفيات، 2/ 140-157.

(4) مفتاح: التيار الصوفي، 1/ 124.

(5) المقرئ: نفع الطيب، 5/ 435.

وكتب ابن عربي... وابن الفارض وابن احلي وابن سودكين، والعفيف التلمساني، والايكي الأعجمي، والأسود الاقطع وأبي اسحق التجيمي⁽¹⁾.

وزيادة على ذلك فقد كان «الاحياء» للغزالي مثار نقاش في الأوساط الثقافية على هذا العهد فعن أبي محمد الفشتالي انه كان يقول عن كتب الغزالي: «يجب أن تقبل حيث يتكلم في المسائل الفقهية... وما وراء ذلك من ذلك غوامض العلوم المتعلق بالعالم الغائب ينبغي للضعيف ان يعزل سمعه عنها»⁽²⁾.

وعلى أية حال، فقد اشتهرت في العصر المريني طرقا متعددة في التصوف ولعل خير من يبرز لنا ذلك على هذا العهد ابن قنفذ القسنطيني الذي زار المغرب الأقصى، فحضر اجتماع هذه الطوائف عند المحيط ما بين أسفي وبلد تيط تظطر في ربيع الأول سنة 769هـ-1367م، وعدد هذه الطرق وهي⁽³⁾:

1- الماجريون: الذين ينتسبون إلى أبي محمد صالح بن نيسارن الدكالي ثم الماجري دفين أسفي توفي (631هـ-1233م)⁽⁴⁾.

2- الحاحيون: من أتباع أبي زكريا الحاحي دفين تبغرا من بلاد حاحة⁽⁵⁾. وقد ذكر المنوني أن هاتين الطريقتين قد تفرعتا عن مدرسة أبي مدين (توفي 594هـ-1197م)⁽⁶⁾ المدفون بالعباد، وهذه الطائفة من جبل درن⁽⁷⁾.

(1) مفتاح: التيار الصوفي، 1/ 136.

(2) الونشريسي: التيار المغرب، 11/ 121-122.

(3) انس الفقير، 71.

(4) ابن قنفذ: انس الفقير، 64. ومن أحفاد أبي محمد صالح الشيخ أحمد بن يوسف، للمزيد عنه، ينظر الكانوني: جواهر الكمال، 6-9.

(5) ابن قنفذ: انس الفقير، 64.

(6) ينظر عنه في الفصل السابع - المساجد-.

(7) ابن قنفذ: انس الفقير، 64.

3- الشعيبون: من أتباع شعيب أيوب بن سعيد الصنهاجي المعروف بابي شعيب ازموور توفي (561هـ-1165م)⁽¹⁾.

4- الصنهاجيون: وهم من طائفة بني أمانار من بلد تيطنفر (من أقران أبي شعيب)⁽²⁾.

5- الحجاج: وهم جماعة اقتصرت على من حج بيت الله الحرام⁽³⁾.

6- الغماتيون: من أتباع أبي زيد عبد الرحمن الهزميري (توفي 706هـ-1306)⁽⁴⁾.

ولم تخل هذه المرحلة ممن عرفوا بمكانتهم في التصوف وقد ذكر محمد بن أبي بكر الحضرمي ثلاث طبقات لإحدى وأربعين شخصية غرقت بمكانتها في ذلك العهد، وكان في مقدمة من ذكرهم الشيخ أحمد بن محمد بن عمر بن عاشر السلوي (توفي 674هـ-1362م)⁽⁵⁾، وزيادة على ذلك فقد ألف عبد الحق بن إسماعيل ابادسي كتابا سماه «المقصد الشريف والمترع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف». تعرض فيه لست وأربعين ترجمة ممن عرفوا ببلاد الريف في التصوف وهو كتاب أراد له أن يكون صلة لكتاب «التشوف إلى رجال التصوف»⁽⁶⁾، في ذكر صلحاء المغرب

(1) ابن قنفذ: انس الفقير، 64.

(2) ابن قنفذ: انس الفقير، 64.

(3) ابن قنفذ: انس الفقير، 66.

(4) ابن قنفذ: انس الفقير، 64.

(5) السلسل العذب، 39-49. ويذكر ابن قنفذ انه توفي سنة 765هـ-1363م، الوفيات،

365. وترجم له التنبكتي: نيل الابتهاج، 1/ 158-162. ابن زيدان: إتحاف أعلام الناس،

1/ 304-311. الناصري: الاستقصا، 2/ 99-114.

(6) يقول التادلي: وقت شرعت في تصنيف الكتاب سنة 617هـ-1220م، ولم تعرض فيه لاحد

من الاحياء: التشوف، 13.

الأقصى⁽¹⁾، وألف ابن هاني كتاباً سماه «قوت المقيم»⁽²⁾، وضع المقرئ الجدد (المتوفي 758هـ-1356م)⁽³⁾، كتباً أسماها «أقامة المريد» و«رحلة المتبذل» و«كتاب الحقائق والرفائق»⁽⁴⁾.

ثانياً: العلوم العقلية:

1- الفلسفة:

لم يكن العصر الذي ندرسه خالي الإرث من هذا الميدان العلمي، ولم يكن بعيد العهد عنهم، فقد عرفت مراكش على عهد الموحدين اهتماماً متزايداً بالفلسفة وعلماؤها وعلى وجه الخصوص السلطان يعقوب المنصور ووالده من قبله حيث اهتم الأول بالمختصين في علم الفلسفة، وعقد معهم مجالس خاصة، وقرّبهم إلى نفسه ومنهم أبو بكر بن زهر (توفي 595هـ-1198م) الذي بنى له قصراً بجواره ليكون قريباً منه⁽⁵⁾، ولم يقف عند هذا الحد بل قرب أيضاً الفيلسوف أبا الوليد بن رشد وأجلسه بجانبه منصتاً لآراءه في علاقة العلوم الفلسفية بالدين⁽⁶⁾، على أن هذه الرعاية كانت أنية، فتراه يتخذ موقفاً قاسياً إزاء علماؤها، ويسخط على مؤلفاتهم التي نالت الهول، وعلى من ناصر علمها في جميع البلاد⁽⁷⁾، بينما سرعان ما تراجع عن

(1) 14.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، 3/ 145.

(3) ترجم له ابن الخطيب: الإحاطة، 2/ 191-225. ابن مريم: البستان، 154-164. وقد

أشار الأخير في ترجمته إلى أن ولادته في سنة 795 وهذا غير صحيح.

(4) ابن فرحون: الديباج المذهب، 2/ 265.

(5) الناصري: الاستقصا، 1/ 180.

(6) ملين: عصر المنصور الموحدي، 225-228. ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة، مقدمة

المحقق، 62.

(7) المراكشي: المعجب، 237، ابن إبراهيم: الاعلام بمن حل مراكش، 3/ 53.

موقفه في عداوته للفلسفة بعد عودته إلى مراكش سنة 594هـ-1197م، واستدعى ابن رشد، من الأندلس إلى مراكش، وعاود تعلم الفلسفة ومناصرتها⁽¹⁾، ومهما يكن من أمر هذين الموقفين المتناقضين اللذين اتخذهما السلطان يعقوب في أمر الفلسفة⁽²⁾، فهما يكشفان عن ذبوع صيتها وانتشار أعلامها في بلاد المغرب والأندلس في ظل رعاية الدولة الموحدية، لاسيما المغرب الذي ظل دليلا يهتدي إليه المهتمون بهذا العلم، وليس خافيا على أحد ما قام به فردريك الثاني الذي وجه مسائل فلسفية إلى علماء سبته فتصدى للإجابة عنها ابن سبعين (توفي 669هـ-1270م)⁽³⁾ في كتابه المعروف «بالمسائل الصقلية»⁽⁴⁾.

أما فيما يتعلق بالفلسفة في العصر المريني، وعلى وجه الخصوص العهد الذي ندرسه فقد كانت «أسوا حظا وأقل انتشار من سائر العلوم الأخرى»⁽⁵⁾، وتحليلا لهذا الموقف، نود أن نشير إلى شخصية عرفت بالفلسفة إضافة إلى غيرها من العلوم، والتي من خلالها يمكن أن نسلط الأضواء على الفلسفة ومكانتها في العصر المريني. فقد اشتهر في هذا العصر من خلال كتب التراجم أحمد بن شعيب الجزنائي (توفي 750هـ-1349م). الذي ذكره ابن الخطيب قائلا: «والغالب عليه العلوم الفلسفية، وقد مقت لذلك»⁽⁶⁾، وفي موضع آخر قال عنه: «واستمطر كل عارض وديمه، من

(1) المراكشي: المعجب، 435-437.

(2) الحسين: مظاهر النهضة الحديثة، 164.

(3) ترجم له القرافي: توشيح الديباج، ورقة 113، الغبريني: عنوان الدراية، 237-238،

التبكي: نيل الابتهاج، 521-522. بالشتيا: تاريخ الفكر الأندلسي، 353-369.

(4) يشتمل هذا الكتاب على 49 صفحة، توجد منه نسخة احتياطية في أكسفورد: المنوني: العلوم

الآداب والفتون على عهد الموحدين، 97.

(5) شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 212.

(6) الإحاطة: 1/ 272، ترجم له. ابن الأحمر: تثير فرائد الجمان، 735-339. الوشرسي:

الوفيات: 119. وللمزيد ينظر: كنون: أحمد بن شعيب الجزنائي، 15-32.

العلوم الحديثة والقديمة فبرع في فنونها وبهر... وعانى في حركاته وانتقاله، مشقة اعتقاله وخلص خلوص الحسام بعد صقاله⁽¹⁾.

ترى ماسر مقتته وعلى وجه الخصوص من قبل السلطان أبي الحسن المريني؟ ويحيينا على هذا التساؤل ابن مرزوق بقوله: «... وكان مولانا... يتفر عنه، لموجب الله اعلم بحقيقته، ولا يبدو على ظاهره ما يدل على طعن في طريقته في المعتقد، ولقد خبرته وذاكرته وباحفته علم الله غير مرة، فما اطلعت والله منه إلا على ما يرضي... وبالحملة فكان من صدور العلماء»⁽²⁾ ولعل ما أورده ابن مرزوق يقى بالغرض الذي نبتغيه وخاصة فيما يتعلق بالجزنائي من حيث دينه وشخصيته، والسبب الذي لا يخفى على احد هو اشتغاله بالفلسفة وفي ذلك ما يسوغ موقف السلطان أبي الحسن وخاصة وانه جزء من ثقافة هذا العصر واتجاهه العام الذي سببته بعد قليل.

ومن الأمور التي عرفت عن بلاد الأندلس، وليست بلاد المغرب بعيدة عنها ان من يشتغل بالفلسفة، يسعى إلى إخفائها خشية من العامة، يقول المقرئ: «وكل العلوم لها حفظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم، فإن لها حظا عظيما عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل «فلان يقرأ الفلسفة» أو «يشتغل بالتنجيم» أطلقت عليه العامة اسم زنديق، وقيدت عليه أنفاسه، فإن زل في شبهة، رجوه بالحجارة أو احرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة»⁽³⁾، وعلى هذا الأساس ربما لم يلق الجزنائي عقابه جزاء اشتغاله بالفلسفة، إلا بسبب العلوم الأخرى التي كان مبرزاً فيها كالطب وعلم النبات⁽⁴⁾.

(1) أوصاف الناس، 107.

(2) المسند الصحيح، 375.

(3) نفع الطيب: 1/ 220-221. وينظر كذلك عمن وجد عنده «شيء من المذاهب الفلسفية المخالفة أو ما بمنزلتها» النباهي: المرقبة العليا، 201.

(4) السراج: الفهرسة، ورقة 37.

والتي كانت سببا في قبوله ضمن مجلس السلطان أبي الحسن «لمدة مؤقتة ولأغراض شخصية قاهرة»⁽¹⁾.

وبعد أن عرفنا هذه الملامح في شخصية الجزناتي، وموقف أبي الحسن منه، ترى ما هي أسباب تدهور الفلسفة؟ ويعتقد كتون أن القضاء على هذا العلم كان نتيجة لنهضة الفقه، وانصراف الناس إلى العلوم المقيدة لهم كالطب والرياضيات⁽²⁾، في حين يبدي البعض موقفا متطرفا إزاء انحسار هذا العلم بما: «وذلك بأن سلاطين بني مرين لم يكن لهم من سعة الأفق كان لأسلافهم الموحدين وقد كان إدراكهم للحياة الفكرية يقوم على مذهب السنة الدقيق الذي لم يتسع لمثل الجرأة الفكرية التي كانت عند ابن طفيل أو عند ابن رشد، بينما لم يتردد سلاطين الموحدين... في استقدام هذين المفكرين إلى بلاطهم»⁽³⁾، ونحن نصيل إلى رأى كتون، ونستبعد ما قاله لوتورنو لما فيه من تجنب على سلاطين بني مرين، ولا سيما الفقهاء الذين كانوا قد أحاطوا الحياة الفكرية بسجيتهم، ورصدوا ثقافة عصرهم من خلال مجهرهم، فأحبوا الغزالي في كتابه الاحياء، لكنهم تمنوا لو لم يشحنه على حد تعبير الونشريسي بعلم المكاشفة وهو الذي عبر عنه أبو محمد الفشتالي «بالعلم الغائب» الذي كانوا يحرصون على أبعاده عن فهم العامة وكشفه لهم⁽⁴⁾، وعلى هذا الأساس كان طبيعيا ان تجد من يتهم الآخرين بالسفه، لينعتهم بالظلال مشبها إياهم بأهل الفلسفة⁽⁵⁾. وعلى كل حال فقد قدم ابن خلدون تفسيرا لندرة هذا العلم بقوله: «ثم ان أهل

(1) شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 214.

(2) النبوغ المغربي: 1 / 208.

(3) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، 183.

(4) المعيار: 11 / 122.

(5) المقرئ: أزهار الرياض، 3 / 701.

المغرب لما ركزت ربح العمران بهما وتناقضت العلوم بتناقضه اضمحل ذلك فهما إلا قليلا من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء السنة⁽¹⁾.

2- الطب:

ليس من شك في أن علم الطب كان ولا زال من العلوم المفيدة والقريبة من الناس، وسكان المغرب ظلوا وعلى مختلف العصور شأنهم شأن الأمم الأخرى يسعون إلى تطوير هذا العلم، ورعاية المختصين به، لاسيما أهل القربين الخامس والسادس المهجرين الذين بلغوا في رقبة إلى مرتبة الازدهار⁽²⁾.

ولسنا بصدد تقويم العصر الموحد في ميدان الطب، ولكن يكفي أن نقول أن هذا العلم ظل بعيدا عن أذى أو محاربة السلاطين له، وعرفنا عن السلطان يعقوب المنصور، أنه أمر بأبعاد ابن رشد وأصحابه، وحرق كتبه الفلسفية، غير أنه استثنى ما كان من تأليفه هو وأصحابه في الطب والحساب⁽³⁾، وهذا يعني أن مؤلفات هذا العصر ظلت متداولة في المغرب، واستفاد منها الأفراد المختصون بهذا الميدان، وصار بعضها يدرس في جامع القرويين والمساجد الصغيرة⁽⁴⁾.

وفي البدء لا بد أن نشير إلى أن هذا الميدان لم يحقق نجاحا واضحا على مستوى الدراسة النظرية في العصر المريني، إلا إنه حقق الخالصا على صعيد الطب التقليدي⁽⁵⁾، إضافة إلى دورهم في المستشفيات المنتشرة في قسم من المدن المغربية والتي ستأتي على ذكرها بعد قليل.

(1) المقدمة، 481.

(2) كما أعلن الكائنون في كتابه تاريخ الطب في المغرب، شقرون: مظاهر، 222.

(3) المراكشي: المعجب، 385.

(4) ابن عبد الله: الطب والأطباء بالمغرب، 46-47.

(5) شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 222.

اشتهر في هذا العهد عدد من الأطباء منهم أحمد بن شعيب الجزنائي السالف الذكر، وصفه بعضهم بأنه: «من أهل المعرفة بصناعة الطب»⁽¹⁾، رحل إلى غرناطة «وحقق بها تغيير أمر الأدوية المنفردة التي يتشوف الطبيب إليها»⁽²⁾، وذلك لخبرته المتقدمة في علم النبات⁽³⁾. والطبيب محمد بن يحيى العزفي السبتي (768هـ-1366م) الذي رحل إلى غرناطة ودرس فيها⁽⁴⁾، والطبيب غالب بن علي بن محمد اللخمي (741هـ-1340م) الذي رحل إلى القاهرة ودرس الطب بالمارستان المعزية، وتعلم العلاج على طريقة المشاركة ثم عاد إلى فاس، واستمر بخدمة سلاطين الدولة ومنهم عثمان الملقب بابي سعيد وولده أبو الحسن، وقيل عنه انه يمتلك كثيرة في الطب⁽⁵⁾، والطبيب أبو عبدالله الشريسي من سبتة، توفي (771هـ-1369م) المعروف عند العامة بحكيم الرعاء، وقال بحقه السلطان أبو عنان: «اختصت سبتة بأربعة رجال دون سائر بلاد المغرب كملوا في عصرهم خلقا وخلقا وسماهم ومن جعلتهم الطبيب أبو عبدالله»⁽⁶⁾، والطبيب أبو عبد الله بن مقاتل (توفي 764هـ-1362م) الذي قيل عنه أن كان «بصيرا بالطب وما يرجع إليه.. وصل إلى ما لم يصل إليه احد في عصره»⁽⁷⁾، والطبيب أبو الحسن على العنسي المراكشي الذي وضع بعض المصنفات المهمة في الطب الأرجوزة في العلاقات الجنسية والأمراض السارية⁽⁸⁾، والطبيب أبو عبدالله محمد بن بيش العبدربي (توفي 753هـ-1352م) الذي انتقل

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 280. ابن القاضي: درة الحجال، 1/ 45.

(2) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 285.

(3) ابن إبراهيم: الاعلام بمن حل بمراكش، 1/ 5.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 300. المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 378.

(5) ابن الخطيب: الإحاطة، 3/ 11-13. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 506.

(6) مجهول: بلغة الأمنية، 186.

(7) مجهول: بلغة الأمنية، 186.

(8) حركات: المغرب عبر التاريخ، 2/ 183.

من غرناطة وسكن سبتة⁽¹⁾، كما كان لعلو مكانة الأطباء بين الناس أثره الواضح في حث عدد من الأسر المغربية إلى احتراف مهنة الطب ومن بينها أسرة السلاجحي في فاس⁽²⁾.

إلى جانب ذلك، برزت ظاهرة سيئة وإن كانت لا تقتصر على العهد المريني إلا وهي امتهان البعض مهنة الطب ومحاولة مزجه بالسحر أو الاعتماد على وسائل ليس لها أساس علمي كما فعل محمد بن أحمد المراكشي الذي قال عنه ابن الخطيب: «نصدر للعلاج ثم اخرج اخلوطة زعم انه يستخرج منها الجنايا والإنذار بالكوائن وسماها الزايرجة تشتمل على اعداد وخطوط ومدارك واصطلاحات... وصار يتحدى بالاعلام بالكائنات، فاقبل الناس عليه إقبالهم على المخرقين»⁽³⁾.

وعلى أية حال، فقد امتلك المغاربة وسائلهم التقليدية في معالجة الحالات الكثيرة، وهي ناتجة عن توارث والخبرة والتجربة⁽⁴⁾، وأخيرا فقد أشار ابن خلدون إلى أن صناعة الطب في عصرهم لم تكن مزدهرة والسبب يعود إلى نقص العمران لانها «من الصنائع التي لا تستدعيها إلا الحضارة والترف»⁽⁵⁾.

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 3/ 23.

(2) ابن الأحمر: بيوتات فاس، 45-46.

(3) ابن حجر: الدرر الكامنة، 3/ 466-467.

(4) ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 223.

(5) المقدمة، 493.

أما فيما يتعلق بنشاطاتهم على صعيد الممارسات في تلك الفترة فهي:

1- بيمارستان فاس:

اهتم المرينيون بالممارسات منذ قيام دولتهم، فقد شرع السلطان يعقوب بن عبد الحق في بناء مارستان في فاس، وخاصة للمرضى والمجانين، وخصص لها أوقافا، كما وفر لها كل ما يحتاجه المرضى من الأغذية والفواكه، وخصص لها أطباء لتقديم الخدمات الصحية للراقيدين فيها⁽¹⁾، وكان هذا المكان قد اشتهر باسم «سيدي فرج، وهو الواقع بالقرب من سوق العطارين وسوق الحنا بفاس»⁽²⁾.

وقد ابتكر الأطباء المرينيون وسائل عديدة في علاج المرضى الراقيدين في هذه المارستان وغيرها من خلال استخدام الموسيقى، وقيل أن الذي قام بهذه الوسيلة في معالجة المرضى طبيب من بني الأحمر يدعى فرج الخزرجي⁽³⁾، ويذكر الكانوني في كتابه تاريخ الطب العربي بالمغرب أن أرباب الطرب «يحضروا في كل أسبوع مرة أو مرتين لأن ذلك يفيد في انشراح الصدور إنعاش الروح فتقوى ضربات القلب وتعود الأعضاء الجسمية إلى تأدية وظائفها»⁽⁴⁾، الأمر الذي وفر للمريض علاجا نفسيا وعضويا يقف على النقيض مما ادعاه لوتورثو بقوله: «والتفكير بالسجن، بالنسبة إلى فاس، يثير التفكير بالمستشفى «المارستان»»⁽⁵⁾.

(1) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 99.

(2) الكتاني: سلوة الأنفاس، 2 / 276.

(3) عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، 286-287.

(4) ابن شقرون: مظاهر الثقافة، 225-226.

(5) فاس في عصر بني مرين، 79.

وعلى أية حال فقد اشتهر من الأطباء في هذه المارستان الطيب النصري محمد بن قاسم بن أبي بكر القرشي المالقي (توفي 757هـ-1356م) الذي قيل عنه انه توجه إلى الدولة المرينية طبيباً للدولة ومشرفاً على مارستان العاصمة فاس⁽¹⁾.

2- بيمارستان مراکش:

ويعود تأسيسها إلى يعقوب المنصور الموحي الذي اختار مكانها في مراکش، وخصص لها أوقافاً «كل يوم ثلاثين ديناراً برسم للطعام وما ينفق عليه خاصة، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والادهان والاكحال، واعد فيه للمرضى ثياب ليل للنوم»⁽²⁾.

وعلى الرغم من الرعاية التي حظيت بها المستشفيات على عهد السلطان أبي الحسن وتجديد معظمها كما ذكر ابن مرزوق⁽³⁾، إلا أن الغموض يكتنف هذا المارستان ليس في العهد الذي تدرسه فقط وبل قبل ذلك أي في عصر الموحدين أيضاً.

3- علم الفلك:

وقع الاهتمام على دراسة علم الفلك لأشياء متعددة منها ما يتعلق بالجانب الديني في تحديد المناسبات الدينية التي تهم المسلم في عبادته ومنها ما يتعلق بالجانب الاقتصادي من حيث معرفة أوقات الزراعة وزيادة على ذلك فقد اهتم البعض بدراسته من أجل معرفة وقع آثاره على الإنسان⁽⁴⁾.

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 2/ 515-516.

(2) المراكشي: المغرب، 364. عيسى بك: تاريخ البيمارستانات، 280-282.

(3) المستند الصحيح، 415.

(4) الجزنائي: جني زهرة الأس، 50. طاش كبرى زاده: مفتاح السعادة، 1/ 337. نلينو: علم

الفلك، 229-231.

وقد ازدهر هذا العلم في عهد المرينيين وكان وراء ذلك عوامل في مقدمتها اهتمام علماء الرياضيات لما له بين العلمين من ترابط حيوي، وثانيا رعاية علمائه من قبل الدولة المرينية، وحث المختصين به إلى إنجاز ما بوسعهم من تطبيقاته العملية التي تخدم الأغراض الدينية، وعلى أية حال فإن علم الفلك لم يكن حكرا على المسلمين فقط⁽¹⁾.

وجهود العلماء في تلك الفترة تتجلى واضحة بنشاط علماء مراکش، أمثال أبي زيد عبدالرحمن الهزميري⁽²⁾، وابن البناء العددي المراكشي. وقد حفظت لنا كتب التراجم قصة عن الهزميري وتلميذه ابن البناء مفادها أنه دخل في طريقة شيخه الهزميري وادخله بالخلوة «مدة سنة ثم أخرجه فقال له: مكنك الله من علوم السماء كما مكنك من علوم الأرض، فأراه ليلة وهو مستيقظ دائرة الفلك مشاهدة حتى عاين مجرى الشمس فوجد في نفسه خوفا عظيما فسمع قول الشيخ الهزميري وهو يقول: اثبت يا ابن البناء، حتى رأى ما رأى مستوفيا، فلما أصبح قال له الشيخ الهزميري مبتدئا أن الله قد فتح لك فيما أراك. فاخذ من ساعته في علم الحياة والنجوم حتى أدرك منه الغاية»⁽³⁾، والذي نستخلصه من هذه القصة أن دراسة علم الفلك لم تعتمد على الجانب النظري المجرد فقط، بل تمكن علماء تلك الفترة من الاستفادة منه على مستوى التطبيق العملي.

(1) ابن خلدون: المقدمة، 489.

(2) في مدينة اغمات توفي في فاس سنة 706 هـ ودفن قرب مسجد الصابرين ينظر ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 410.

(3) التنكي: نيل الابتهاج، 135. ابن إبراهيم: الاعلام بمن حل مراکش: 1 / 376. ابن المؤقت: السعادة الأبدية، 27. كحالة: معجم المؤلفين، 2 / 126. البغدادي: هدية العارفين، 1 / 104.

قدم ابن البناء الكثير من المؤلفات الفلكية منها: «منهاج الطالب في تعديل الكواكب» و«اليسارة في تعديل السيارة» و«المناخ في رؤية الآهلة» و«تأليف في أحكام النجوم» و«مداخل ثلاثة إلى صناعة الأحكام النجومية» و«مقالة في علم الإسطرلاب» و«رسالة في ذكر الجهات وبيان القبلة والنهي عن تغييرها» و«في الأنواء جزء فيه في صور الكواكب» و«اختصار في الفلاحة» و«مقالة في الحملاء الستة مجداول» و«قانون في معرفة الأوقات بالحساب» و«قانون في فصول السنة» و«قانون في ترحيل الشمس» و«رسالة في الرد على مسائل مختصرة نجومية وفقهية» وغيرها⁽¹⁾.

ولم تخل بعض المدن الأخرى ومن بينها سبتة من علماء أمثال علي بن إبراهيم بن محمد المطعم بالمعروف بابن الشاطر (توفي 757هـ-1356م) الذي ألف في جوانب عدة في علم الفلك والإسطرلاب وله الزيج الذي عرف باسمه⁽²⁾.

واتخذ العلماء تضلعهم بعلم الفلك وسيلة من أجل تطبيقات علمية مفيدة في الحياة اليومية لهم، ولعل جامع القرويين خير شاهد على ذلك من حيث المنجاة التي شيدها محمد بن عبد الله الصنهاجي، ورسمها له محمد بن الصيدنية القرطسوني في سنة 710هـ-1310م، ثم جددت ثانية في سنة 747هـ-1346م على يد محمد بن محمد بن العربي الذي أضاف وسائل أخرى جديدة في ضبط الوقت بالرمليات، وعلى كل حال فقد عرف العهد جملة من الإسطرلابات التي أوقفت في البلاد لتلك الأغراض⁽³⁾.

(1) التنبكي: نيل الابتهاج، 137-138. ابن القاضي: جذوة الاقياس، 1/ 151. ابن إبراهيم:

الاعلام بمن حل مراكش، 1/ 378-379. طوقان: تراث العرب، 413.

(2) التنبكي: نيل الابتهاج، 238.

(3) للمزيد عن هذا الموضوع، ينظر الجزناني، جني زهرة الأس، 51-52.

ودراسة علم الفلك لم تقتصر على أفراد قلة في تلك الفترة بل كثر علماءه واشتهر بعضهم وان لم نقف على مؤلفاتهم.

ومن بين العلماء الذين برزوا فيه العالم عبد الرحمن بن أبي الربيع اللجائي «توفي 773هـ-1371م) الذي عمل إسطرلابا وذاع صيته⁽¹⁾، ومحمد بن النجار «توفي 748هـ-1347م) الذي كان «إماما في علوم النجامة وأحكامها وما يتعلق بها»⁽²⁾، ومحمد بن إبراهيم الأيلي الذي كان «اعلم أهل عصره بالفنون المعقولة»⁽³⁾، وعلى أية حال فقد ذكر غوستاف لوبون انصافا لهم هذه الحقيقة فقال: «وكان علماء الفلك في إفريقية ولاسيما طنجة وفاس ومراكش ينافسون علماء الفلك في الأندلس ولكننا نجهل آثارهم جهلنا لآثار علماء الأندلس»⁽⁴⁾.

4- علم الكيمياء:

يعد علم الكيمياء من العلوم التي لقيت رواجا في العصر المريني، شأن المغرب في ذلك شأن الأقاليم الأخرى التي زاولته بفضل جهود علمائها ولعل السمة الغالبة على علم الكيمياء، تظهر واضحة في التطبيقات العملية المتنوعة الاستخدام والتي أخذت مساحة واسعة من تلك الفترة، وتداولها الناس المختصين بحرفة عن طريق الخبرة العملية والتجربة الطويلة، على أن هذا الأمر لم يكن يعني اقتصاره على هذا الجانب، بل عرف العصر بعض العلماء الذين اختصوا به، ودرسوه ووصلوا به إلى مرتبة وصفهم به دون الآخرين من أبناء عصرهم.

(1) ابن قنفذ: انس الفقير، 68-69. التبكي: نيل الابتهاج، 8/45. كحالة: معجم المؤلفين، 5/139.

(2) ابن خلدون: المقدمة: 48. نويهض: معجم أعلام الجزائر، 82.

(3) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/304.

(4) حضارة العرب، 462.

وأول ما يصادفنا في دراسة علم الكيمياء على ذلك العهد اشتهاار عبد الواحد السكسيوي رئيس قبيلة هسكورة⁽¹⁾، الذي وصفه ابن خلدون بقوله: «كان منتحلا للعلم واعماله جماعة لكتبه ودواوينه... محبا في الفلسفة مطالعا لكتبها حريصا على نتائجها من علم الكيمياء والسيمااء والسحر والشعوذة مطالعا على الشرائع القديمة والكتب المنزلة يكتب التوراة ويحالس أحبار اليهود»⁽²⁾، وعند وفاته كان ولده عبد الله «مقتنيا سنن أبيه وخصوصا في انتحال السحر والاستشراق إلى صنعة الكيمياء»⁽³⁾، أما العالم المعروف أحمد بن شعيب الجزنائي فقد قبل عنه في هذا المضمار «وتهتك في علم الكيمياء وخلع فيه العذار، فلم يحل بطائل»⁽⁴⁾.

والشيء الواضح أن العصر المريني كان ينظر إلى نتائج هذا العلم، ويصنفه إلى صنفين نافعة وفاسدة فقد اتخذها الناس وزاولوها في الحياة العملية فالعصر المريني كان مشتهرا بجملته من الصنائع في مقدمتها الدباغة والأصباغ⁽⁵⁾، التي تحتاج إلى خبرة دقيقة في المواد الداخلة في مراحل صناعتها وتعددت الحرف الصناعية في مدن المغرب الأقصى كسباكة المعادن والزجاج وصناعة الورق، وكانت لها دكاكين معلومة حيث ذكر لنا الجزنائي أن فاس كان بداخلها في سنة 585هـ-1189م ست وثمانون دارا للدباغة ومئة وست عشرة دارا للصبغة واثننا عشرة دارا لسبك الحديد

(1) هسكورة: قبيلة من البرانس، يضعها ابن خلدون مرة مع صنهاجة ومرة مع مصمودة، وكان من أبرز فروعها هسكورة القبلة وهسكورة الظل، للمزيد ينظر: ابن خلدون: العبر، 6/ 240-552. البيذق: الانساب في معرفة الاصحاب، 52-53. ابن منصور: قبائل المغرب، 1/ 326.

(2) العبر: 6/ 262.

(3) ابن خلدون: العبر، 6/ 262-263.

(4) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 272.

(5) الوزان: وصف إفريقيا، 205. لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، 133-134.

والنحاس وإحدى عشر دارا للزجاج وأربعمائة دارا لأحجار عمل الورق وغيرها، وقد تعرضت هذه الدكاكين إلى الدمار في عهد الموحدين غير أنها استعادت حيويتها ونشاطها في العصر المريني⁽¹⁾.

وظهرت خبرة المرينيين في عمليات صهر المعادن وفي صناعة النقود، ويكفي أن نعرف من خلال مؤلفات تلك الفترة في هذا الميدان كتابا اسمه «الدوحة المشبكة في ضوابط دار السكة»⁽²⁾ الذي خصص فيه مؤلفه الباب الثالث في معادن النقود وطريقة توليدها واستخراجها وتخليص معادنها ومنفعتاتها، إضافة إلى غير ذلك من الأبواب.

وتمتع المرينيون بمعرفة متقدمة في صناعة البارود واستخدامه، وتعليقا على هذا الموضوع نذكر بعض الأحداث والآراء التي تصف جهودهم، وتجعلهم سابقين لأوروبا، فقد جاء في تاريخ الادفوش الحادي عشر ذكر للمعارك التي خاضها المرينيون دفاعا عن الجزيرة الخضراء سنة (743هـ-1342م) ما نصه: «أن مغاربة المدينة كان يقذفون كثير من الصواعق على الجيش فيرمون عليه عدة قنابل كبيرة من الحديد كالتفاح الكبير، وذلك إلى مسافة بعيدة من المدينة، فيمر بعضها من فوق الجيش، ويسقط بعضها عليه»⁽³⁾، ويضيف الفاسي أن المغاربة كانوا قد استخدموا البارود منذ سنة 672هـ-1273م، ويخلص بنتيجة إلى أنهم استعملوه قبل أوروبا بـ «73 سنة»⁽⁴⁾ وهذا مما يبطل دعوى من أشاع أن أوروبا عرفت اختراع الأسلحة النارية قبل غيرها⁽⁵⁾.

(1) جني زهرة الأس، 44-45.

(2) ألفه أبو الحسن علي بن يوسف الحكيم من رجال القرن الثامن الهجري في المغرب الأقصى.

(3) لويون: حضارة العرب، 480.

(4) نشأة الدولة المرينية، 18.

(5) بارتولد: تاريخ الحضارة الإسلامية، 115.

وعلى أية حال، فقد تحدث الوزان في معرض حديثه عن أهالي فاس قائلا: «لا تتصوروا أن فاس يعوزها الكيميائيون على العكس فأولئك ينصرفون إلى دراسة هذا الفن اللامعقول والباطل كثير والعدد جدا». وقال عن مؤلفات الكيمياء في فاس: «ولديهم العديد من المؤلفات في هذا الفن... وكتابهم الرئيسي هو كتاب «جابر»... وهناك أيضاً مؤلف آخر يدعى الظفراني... وقد ظهر مطول آخر في الكيمياء على شكل قصائد تتعرض لكل تفاصيل هذا الفن الذي ألفه أستاذ يدعى المغربي»⁽¹⁾ أما المغربي فهو من أهالي الأندلس، ذكره ابن خلدون قائلا: «وله كلمات شعرية على حروف المعجم من إبداع ما يجيء في الشعر ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة فلا تكاد تفهم»⁽²⁾.

5- الرياضيات:

يعد علم الرياضيات بفروعه المتنوعة من العلوم التي ازدهرت في مشرق العالم الإسلامي ومغربيه، لما له من أهمية في الحياة اليومية للمسلمين، بل أن ثقافة المتصلع بالشؤون الدينية كانت تحمل في مكوناتها معرفة طيبة في علوم الحساب.

وامتاز العصر المريني بازدهار هذا العلم، ونبع فيه علماء كان لهم صدى واسع أبان عصرهم⁽³⁾ وبعده، ولعل الأسباب التي يرجع إليها ازدهاره في هذا العصر تعود إلى ثقافة العصر الدينية وكانت هذه الثقافة قد نشرت ظلالها على مختلف فروع المعرفة، فلم نجد تعارضا ما بين علم الحساب والفقيه، والأمر الآخر يعود إلى رغبة الدولة في تسيير شؤونها الحسابية فيما يتعلق بالنفقات والموارد والضرائب الخ،

(1) وصف إفريقيا، 275-276.

(2) المقدمة، 504-505.

(3) أمثال ابن البناء العددي المراكشي (توفي 723هـ-1323م).

والحاجة الأخرى فيما يتعلق بالعبادة وتقسيم الموارد إلى غير ذلك من الأمور التي لم تكن تنجز بدون خبير في شؤون الحساب⁽¹⁾.

وقبل الدخول إلى ميدان هذا العلم لابد أن نشير إلى الإرث الذي وصل إلى المريتيين عن الموحدين، وخاصة عن عالمهم ابن الياسمين (توفي 601هـ - 1204م) الذي يعد من المع علماء العرب شهرة في الرياضيات، وهو مؤلف الأرجوزة المشهورة في علم الجبر والتي شرحها الكثير من العلماء كالمارديني والقلصادي وابن الهائم، وفي أبوابها جوانب مهمة في هذا العلم، إضافة إلى كتابه «تلقيح الأفكار في العمل برسوم الغبار»⁽²⁾، والعالم الرياضي الآخر الحسن بن علي بن عمر المراكشي (توفي 660هـ - 1261م)⁽³⁾، الذي ألف في علوم شتى وعلى وجه الخصوص في الرياضيات، وكتابته «جامع المبادئ والغايات في علم الميقات»، يعد على حد قول صاحب كشف الظنون «.. أعظم ما صنف في هذا الفن، أوله: أما بعد حمد الله والصلاة على محمد: رتبته على أربعة فنون الأول: في الحسابيات، وهو يشتمل على سبعة وثمانين فصلاً... وهو يشتمل على أربعة أبواب في كل منها مسائل على طريق الجبر والمقابلة»⁽⁴⁾، وقد جمع فيه مؤلفات الخوارزمي والنباتي والفرغاني وأبي الوفا والبيروني وابن سيناء والزرقالي وجابر بن الأفلح في الفلك والرياضيات⁽⁵⁾، وقد أردنا أن نشير إلى هذين العالمين، لإبراز مكانة هذا العلم في عصر الموحدين استمرار ازدهاره في عصر المريتيين وخاصة ذلك المعهد الذي ضم بين جناحيه العالم الرياضي ابن البناء المراكشي (توفي 723هـ - 1323م) والذي قيل عنه الكثير ومن ذلك

(1) ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 216-217.

(2) كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، حلقة 31.

(3) المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، 110.

(4) حاجي خليفة، 1/ 572.

(5) طوقان: تراث العرب العلمي، 416-417. كحالة: العلوم البحتة، 55، 149.

أنه: «ظهر شيئاً من التفوق على من سبقه من علماء الرياضة من علماء المشرق وخاصة في حساب الكسور»⁽¹⁾، والجهود التي قدمها واضحة في علم الرياضيات حيث ألف أكثر من سبعين كتاباً ورسالة، ولعل كتابه «تلخيص أعمال الحساب» من أبرز مؤلفاته، وقد عد بمثابة منهج للتعليم في المغرب حتى أواخر القرن السادس عشر الميلادي، لبساطته وفناء مادته فقيه بحوث عن الكسور، وقواعد لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها، وقاعدة الخطأين لحل المعادلات ذات الدرجة الأولى، إضافة إلى قوانين أخرى في ميدان الجبر، ومن كتبه الأخرى التي اشتهرت أيضاً «مقالات في الحساب» وهو كتاب في الأعداد الصحيحة والكسور والجذور والتناسب، وكتاب «تنبيه الألباب» و«رسالة في الجذور الصم وجمعها وطرحها» وكذلك «الأصول والمقدمات في الجبر والمقابلة» و«الجبر والمقابلة» أما في الهندسة فله «رسالة في المساحات»⁽²⁾، ولعل ما ذكره ابن خلدون عن مؤلفات هذا العالم ما يمنحه شهادة أخرى في علو مقامه، قال «ومن أحسن التأليف المبسوطه فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب «الحصار الصغير» ولابن البناء المراكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه «رفع الحجاب» وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل القدر أدركنا المشيخة تعظمه وهو كتاب جدير لذلك...»⁽³⁾.

(1) سوتر: دائرة المعارف الإسلامية، 1/ 103.

(2) طوقان: تراث العرب العلمي، 429-431. كحالة: العلوم البحتة، 56، 105، 131. نقل العالم الفرنسي «أريستيدمار» كتاب تلخيص أعمال الحساب، فاقبل عليه علماء الغرب، ونسبوا الكثير من نظريات الكتاب إلى أنفسهم، وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أعلن العالم الفرنسي «شال» فضيحة هؤلاء العلماء بوثيقة قدمها إلى المجمع العلمي الفرنسي، ينظر: موجز تاريخ الرياضيات، 189.

(3) المقدمة، 483.

أن الشهرة التي تمتع بها ابن البناء شجعت طالبِي العلم إلى الاستفادة من خبرته، والدراسة على يديه، في منزله بمراكش⁽¹⁾، أو في مدرسة العطارين⁽²⁾، في فاس خلال زيارته التي كان يقوم بها بين الحين والآخر⁽³⁾، ومن المغاربة بمكان أن يتخذ البعض موقفاً من العصر المريني بصورة عامة ويحكم عليه بقصور للملكة العلمية وفي كل العلوم⁽⁴⁾، مع علمه بأن هذا الميدان الذي لم يسلم أيضاً من حكمه قد برع فيه علماء الواحد منهم يستحق الدراسة والبحث الطويل لكي يغطي حقه المضبوط عبر التاريخ.

ومهما يكن من أمر، فإن لهذا العهد علماء أجلاء، تمكنوا من تحقيق ازدهار علمي في إطار الدولة المرينية وإن لم يفلحوا في تحقيق شهرتهم العلمية لظروف قاهرة اعترضتهم كغرق بعضهم⁽⁵⁾ أو وقوع حتفه بالطاعون⁽⁶⁾، ولكن مع كل هذا فقد أظهر بعضهم مكانة في علم الرياضيات وفروعها ومنهم أبو زيد عبد الرحمن اللجائي (توفي 773هـ-1371م)⁽⁷⁾ الذي اشتغل بالرياضيات في قسمي الهندسة والحساب، وكان من تلامذته ابن قنفذ، ومحمد بن إبراهيم الأيلي⁽⁸⁾ الذي وصفه ابن القاضي بأنه «أعلم أهل عصره بالفنون المعقولة»⁽⁹⁾. وكذلك السطحي صاحب

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 304.

(2) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 148.

(3) الفاسي: ابن البناء، 7.

(4) ابن عبد الله: تطور الفكر واللغة، 142.

(5) أمثال السطحي.

(6) أمثال محمد بن يحيى بن النجار التلمساني (توفي 749هـ) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/

302. درة الحجال، 2/ 264.

(7) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 402. طوقان: تراث العرب العلمي، 437.

(8) ترجم له ابن إبراهيم: الاعلام بمن حل بمراكش، 3/ 273-279.

(9) جذوة الاقتباس، 1/ 304.

جداول الحوفي في الفرائض الذي اثبت فيه حسن مقدرته في الحساب، قال عنه ابن خلدون «.. وقد شرحه من شيوخنا - كتاب الحوفي - أبو عبدالله سليمان السطحي كبير مشيخة فاس، فأوضح واوعب»⁽¹⁾، ولعل هذا العلم لم يقتصر فقط على الأشخاص، بل نجد بيوتات، تخصصت فيه ومنها في فاس بيت بني الطيلي الذي اشتهر منهم أحمد بن عبد الله المدعو بالعطار، وقد درس علم الحساب على يديهم حاجب السلطان ابن أبي مدين⁽²⁾.

ولا بد أن نذكر أن علم الرياضيات لم يقتصر على علماء فاس ومراكش بل عرفت بعض المدن علماء كبار مثل سبتة التي اشتهرت بالعديد من العلماء ومنهم ابن الشاط⁽³⁾، الذي قال بحقه الرحالة ابن رشيد: «أنوار البروق في تعقب قواعد القروق»⁽⁴⁾، وله تأليف آخر ذكره ابن سودة المري بعنوان «غنية الرائض في علم الفرائض وتحرير الجواب في توفير الحساب»⁽⁵⁾، وكذلك العالم ابن نبيل الحساي وقام بتدريس الابلي علم الحساب، وقيل: انه درس على يد أبي العباس بن الشماع علم الحساب وقد كان الأخير من أهالي فاس⁽⁶⁾، ومنهم منصور بن علي الزواوي وكان من علماء الهندسة والحساب رحل إلى غرناطة ثم عاد إلى تلمسان⁽⁷⁾.

(1) المقدمة، 485.

(2) ابن الأحمر: بيوتات فاس، 55.

(3) ترجم له ابن الخطيب: الإحاطة، 4/ 259. ابن فرحون: الديباج المذهب، 2/ 152-153.

(4) الكتاني، فهرست الفهارس، 2/ 1090. المنجور: الفهرسة ضمن ترجمة.

(5) دليل مؤرخ المغرب، 1/ 278.

(6) مجهول: بلغة الأمنية، 178-179.

(7) ابن الخطيب: الإحاطة، 3/ 325.

6- الموسيقى:

اكتسبت البيئة المغربية تراثاً فنياً غنياً بميادينه على عهد المرينيين - ولم يكن بطبيعة الحال منفصلاً عن النهضة الموحدية - وكانت حضارتهم تتسم بطابع الفن الرفيع، ولا سيما ميدان الفنون الجميلة أبان عصر ازدهارها⁽¹⁾.

والموسيقى من المواد التي تشبعت بها نفوسهم، فهي قبل أن تكون صنعة يتقنها المهتمون بها من العلوم العقلية التي حظيت باهتمام العلماء ومن بينهم ابن خلدون الذي رتبها في الصنف الرابع منها والمشمول على المقادير، واضعاً إياها بين الهندسة والهيئة، ذاكراً علمها بقوله: «هو معرفة نسب الأصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وثمرته معرفة تلاحين الغناء»⁽²⁾.

ولم يكتف ابن خلدون في بيان أهميتها العلمية بل إضافة إلى ذلك شرح منزلتها في العصر المريني، مشيراً إلى أنها من الصنائع الشريفة، المتكافئة بمرتبتها مع الطب والكتابة حيث قال: «وكل هذه الصنائع الثلاث - أي الطب والكتابة والغناء - داع إلى مخالطة الملوك الأعظم في خلواتهم ومجالس انسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها»⁽³⁾، ولم يكن ابن خلدون وحيد عصره في رفع منزلتها بل شاطره رأيه معاصره لسان الدين ابن الخطيب في كتابه «بستان الدول» عندما وصف المغنين بأنهم من ضرورات الملك⁽⁴⁾.

(1) الفاسي: نشأة الدولة المرينية، 30.

(2) المقدمة، 478-479.

(3) المقدمة، 405.

(4) المقرئ: نفع الطيب، 7/ 98.

والظاهرة التي تسترعي الانتباه في منزلة الموسيقى في تلك الفترة «كتاب الإمتاع والانتفاع بمسألة سماع السماع» لمحمد بن دراج السبتي⁽¹⁾، الذي يقول في أوله: «وسميته بكتاب الإمتاع... لاستثارة بالكفاية والغناء في أحكام الغناء والرد على نغص المسلمين بتحريم ما أبيح لهم منه في مظان المسرة والهناء أو في حال اجتماع أرباب التهمم بالسماع ليتبعوا أحسنه»⁽²⁾، ومهما يكن من حال الكتاب الذي اشتمل على أبواب وفصول، فقد كان وسيلة في الدفاع عن الموسيقى والرد على من حاول تحريمها، وقد استند مؤلفه فيه إلى أحاديث نبوية شريفة ثابتة⁽³⁾، وحظي بتأييد شيوخه المرينيين في العلم المعروفين بمكانتهم العالية من بين العلماء، فقد وقف مفتدا حجج بعض المتعصبين الذين أنكروا للسماع، محاولا الخوض في كتب الحديث والفقه بأسلوب علمي من أجل إعادة الطمأنينة إلى النفوس في قيمة السماع طالما أنه لا يمس القيم الإسلامية⁽⁴⁾.

والواقع أن العصر المريني على الرغم من اختلاف وجهات بعض الفقهاء فيه حول تحليل أو تحريم الموسيقى إلا أنها عاشت عصر ازدهار واضح ولعل في مقدمة ذلك أن نشير إلى أنهم عرفوا إحدى وثلاثين آلة في عصرهم وهي: الدف والغربال والمصافق والكبر والاصف والمزدهر والعود والرباب والكران والصنج والمعزف والعزف والمزمار والناي والقصابة والبوق والطبل والكوس والكوبة والعيد

(1) من عاءاء العصر المريني الذي عاصروا السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني: حقق كتابه وقدم له الأستاذ محمد بن شقرون، وللمزيد ينظر ترجمته: Benchekreun. P. 130-139

(2) ابن الدراج، الإمتاع والانتفاع، 20.

(3) ابن الدراج: الإمتاع والانتفاع، 27-32.

(4) ابن عبد الجليل: الموسيقى المغربية على عهد المرينيين وبني وطاس، 217.

والطنبور والبريط والقضيب والشاهين والسفاقس والشيزان والكنارات والعربة والصفارة والشبابة⁽¹⁾.

وزيادة على ذلك فقد عزز من أسباب ازدهار الموسيقى في تلك الفترة، جملة من العوامل كان في مقدمتها التراث الموسيقي الأندلسي الذي عبر إلى المغرب العربي بأنماط ثلاثة الأول في تونس حيث عرف «بالمألوف» والثاني في الجزائر وعرف بالغرناطي، أما الثالث وهو الذي جمع ما بين تراث غرناطة وبلنسية، وتداوله المغاربة باسم «الآلة»⁽²⁾، يضاف إلى ذلك اقترانه باحتفالات المولد النبوي حيث أفتى الفقهاء بجواز بعضه قال ابن دراج: «أن من المباح الغناء وضرب الدفوف والرقص واللعب في العيد والنكاح، وتقدم أن من العلماء من قصر ذلك عليهما ومنهم من قاس عليهما سائر الأفراح»⁽³⁾، وأخيرا فقد ابتكر فن الزجل المغربي الذي كان تطوره على صعيد الشكل والمضمون مرافقا لتطوره في البنية اللحنية والإيقاعين أيضا⁽⁴⁾، بعد أن أباح الفقهاء الغناء وبشرط أن تكون قصائده تركز على مواضيع هادفة كان في مقدمة أغراضها مدح النبي (ﷺ): والحث والتشويق إلى العتبات المقدسة أو التي تحمل طابع الزهد في الحياة والتي تذكر بالآخرة أو المتسمة بطابع الوعظ وإن تحللها بعض الغزل⁽⁵⁾.

وعلى أية حال فقد وصف للوزان بعض عادات المريتيين والتي تظهر اهتمامهم بالموسيقى والمنشدين بها في المناسبات الدينية، إظهارا لشعائر الفرح في ذكرائها⁽⁶⁾.

(1) ابن دراج: الإمتاع والانتفاع، 33.

(2) الجرازي: أثر الأندلس على أوربا، 69-70.

(3) الإمتاع والانتفاع، 78.

(4) ابن عبد الحليل: الموسيقى المغربية، 210-211.

(5) ابن دراج السبتي: الإمتاع والانتفاع، 70.

(6) وصف إفريقيبا، 259، 264، 236.

وقد أقبل علماء المعهد المريني على التأليف في الموسيقى ومن بينهم ابن الخطيب الذي ألف كتاباً في الموسيقى⁽¹⁾، والخزاعي المتوفى في القرن الثامن الذي سمي كتابه الموسيقى بـ «الدلالات السمعية»⁽²⁾.

(1) ابن الخطيب، الإحاطة، 1/ 64.

(2) ابن الدراج: الإمتاع والانتفاع، مقدمة المحقق، آ. ق.

الفصل الرابع

أماكن التعليم ومراكز الثقافة في المغرب

بلغت الحياة العلمية ازدهارها واضحا في عهد المرينيين، فقد تنوعت أماكن التعليم في البلاد، ولم تكن حصرا على فئة دون أخرى، بفضل الرعاية التي حظيت بها أماكن التعليم، وإغداق الأموال على العاملين بها طلابها كانوا أم أساتذته.

وعدت مدنهم مراكز ثقافية مهمة ليس على صعيد المغرب العربي فحسب بل والأقطار الإسلامية المجاورة، حيث تنوعت العلوم فيها بحكم عوامل سنائي على ذكرها فيما نستقبل.

وللتعرف على أماكن التعليم المرينية، سنحاول دراستها بدءا من مرحلة الطفولة إلى المراحل المتقدمة التي خضعت بصورة مباشرة لرعاية الدولة، ولا يعني ذلك إغفال الأماكن العلمية التي عدت مظهرا من مظاهر التعليم بدون إشراف الدولة.

أولاً: أماكن التعليم المرينية:

1- الكتابيب:

تعد الكتابيب المرحلة التعليمية الأولى على صعيد العالم الإسلامي، أما في بلاد المغرب فقد لقيت عناية واضحة من قبل علمائه الذين كتبوا عنها رسائل نالت شهرة واسعة وكانت بمثابة منهج اقتدى به المعلمون لفترة طويلة⁽¹⁾.

(1) آداب المسلمين لابن سحنون (توفي 258هـ - 871م). القاسبي: الرسالة المفضلة لأحوال المسلمين، وأحكام المعلمين والمتعلمين، ضمن كتاب التربية في الإسلام، ابن العربي المعافري

وللتعرف على طبيعتها، لابد أن نشير إلى أماكن إقامتها، فقد أخذوا بنظر الاعتبار اتساعها، ولم يحددوا مكانا ثابتا لها. فقد تكون غرفة أو حانوتا أو فناء وغالبا ما كانت تقام قرب المساجد⁽¹⁾ وأحيانا في داخلها، إلا أن الأخيرة منعت خشية من العبث الذي يسببه الصبيان حفاظا على حرمة المساجد، فقد ذكر أن النبي محمد (ﷺ): «أمر بتنزيه المساجد من الصبيان والمجانين لانهم يسودون حيطانها وينجسون أرضها إذ لا يحترزون من البول وسائر النجاسات»⁽²⁾ واقتدى الإمام مالك بذلك حيث أن: «لا أرى ذلك يجوز، لانهم لا يحتفظون من النجاسة ولم ينصب المساجد للتعليم»⁽³⁾.

والواقع أن بعض المعلمين لم يتهوا عن اتخاذ المساجد لغرض التعليم⁽⁴⁾ والسبب في ذلك يعود إلى إضفاء حالة مقدسة عليه وكذلك من أجل تعويد الصبيان على حضور المساجد وحثهم على الصلاة، وربما كان بسبب اشتغال بعض المعلمين في المساجد نفسها⁽⁵⁾.

أما عن تهيئة مواد المكتب، فقد كانت تقع على عاتق المعلم من حيث شراء مواد التعليم وكراء الموضع، وقد يتحمل ذلك بعض الأغنياء من أهالي الحي رغبة

(توفي 546هـ - 1151م) طرح آراء تربوية حول التعليم في بلاد المغرب والأندلس،

المغراوي: جامع جوامع الاختصار والتبيان فيما يعرض للمعلمين وآباء الصبيان.

(1) عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، 220.

(2) الشيزري: نهاية الرتبة، 103. وللمزيد عن هذا الموضوع، ينظر الونشريسي: المعيار، 7/

83، 36.

(3) ابن سحنون: آداب المعلمين، 114.

(4) شلبي: تاريخ التربية الإسلامية، 31.

(5) عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، 222.

في تعليم أبنائهم بالاتفاق مع المعلم، وفي هذه الحالة تتوفر فرصة التعليم لصبيان الحي أيضا⁽¹⁾.

أخذ المربون بنظر الاعتبار سن الصبي الذي يدرس إلى المكتب، وغالبا ما كنت الناحية العقلية هي الأساس الذي يعتمد عليه في ذلك، قال ابن العربي: «إن الصغير فهم إذا عقل بعثوه إلى المكتب»⁽²⁾. وقدّر أحد الباحثين المحدثين هذه المرحلة بين الخامسة والسادسة من عمر الطفل⁽³⁾ وبوجه عام فإن البدء بتعليمه «كان متروكا لتقدير آباء الصبيان فإذا وجدوا الطفل بدأ في التمييز والإدراك، دفعوا به إلى المكتب»⁽⁴⁾ على أن هذه الفترة التي كان يقضيها الصبي في المكتب تنتهي على حد رأي القابسي في المرحلة التي يصل فيها إلى حد الاحتلام⁽⁵⁾. وأضاف المغراوي إلى أن انتقاله مشروط ببلوغه «مبلغ الآداب»⁽⁶⁾.

ولم يمسك المعنيون بشؤون التربية قديما عن تقديم فائدة في الأوقات المفيدة لتحصيل العلم، فقد ذكر ابن جماعة أن: «أجود أوقات للحفظ الأسحار وللبحث الأبركار وللكتابة وسط لنهار، وللمطالعة والمذاكرة الليل»⁽⁷⁾ إلا أن الواقع العلمي كان على حد تعبير الونشريسي نقلا عن عبد المنعم بن خلدون الكندي (توفي 421هـ - 1030م) ينافي ذلك فقد قال: «أما وقت جلوس المعلم وقيامه فبحسب العرف

(1) المغراوي: جامع جوامع الاختصار، 52.

(2) ابن سحنون: آداب المعلمين، 140.

(3) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، 168.

(4) الاهواني: التربية في الإسلام، 60.

(5) الاهواني: التربية في الإسلام، 61.

(6) جامع جوامع الاختصار، 52.

(7) تذكرة السامع، 72 - 72.

وما تعاهده أهل التعليم في كل بلدة»⁽¹⁾، وذكر الجزولي: «وليس عليه الانتصاب لهم بالليل وذلك بعد صلاة الصبح» وعن أوقات الراحة قال أيضا: «ويطلقهم في النهار ثلاثة أوقات: بعد المحو لإفطار، وقبل الظهر للغداء والراحة مع عشية النهار. وذلك بسبب طول النهار وقصره، ويضيق عليهم في قصره»⁽²⁾ وهذا يعني أن الطالب يذهب في وقت مبكر إلى المكتب ويعود ظهرا إلى داره ثم يرجع إلى آخر النهار⁽³⁾ ولا ينقطع عن الدوام خلال أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة⁽⁴⁾.

أما المعلم فقد اتفق مالك (رضي الله عنه) مع علماء المدينة المنورة على استحقاقه أجور شريطة أن يعلم الصبيان مدة سنة أو سنتين ولا يحق لوالده أخراجه حتى تنتهي المدة المتفق عليها مع المعلم⁽⁵⁾، وأجازوا «الإجازة على تعليم القرآن ومن يجزها بشرط كانت أو غيره محجوج بمذهب الجمهور»⁽⁶⁾. وزيادة على ذلك فقد كان بعض المسلمون يعلمون الصبيان من اليتامى والفقراء احتسابا للأجر والصواب⁽⁷⁾.

واهتم العلماء بشخصية المعلم قبل أي شيء، قال أبو إسحاق الجبائي (المتوفى 379هـ): «لا تعلموا أولادكم إلا عند رجل حسن الدين، لأن دين الصبي على دين

(1) المعيار، 8/ 152.

(2) المغراوي: جامع جوامع الاختصار، 52.

(3) الاهواني: التربية في الإسلام، 65.

(4) المغراوي: جامع جوامع الاختصار، 50.

(5) المغراوي: جامع جوامع الاختصار، 29.

(6) الونشريسي: المعيار، 8/ 252.

(7) ابن سحنون: آداب المعلمين، 4، وجرت عادات في بلاد المغرب الأقصى ويقدم الآباء والصبيان هدايا لمعلميهم في الأعياد والمناسبات للمزيد ينظر: الونشريسي: المعيار، 8/ 254. الوزان: وصف إفريقيا، 264. ورفض بعض العلماء الاجتزار في التعليم وعدوها سببا في ضياع العلم، عن ذلك ينظر: حاجي الخليفة: كشف الظنون، 1/ 22.

معلمه»⁽¹⁾. كما أشار ابن عبدون الاشيلي إلى الكثير من المزايا التي يراها مهمة للمعلم⁽²⁾.

وتوخى المسلمون العديد من الأهداف من إرسال أطفالهم إلى الكتاتيب ومنها التربوية والتعليمية وغيرها، أما فيما يتعلق بالجانب التربوي فقد رأى الغزالي أن: «أصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء»⁽³⁾ وذكر ابن وصية عن معلم ابنه قال فيها: «لا تؤدبه إلا بالمدح ولطف الكلام، ليس هو ممن يؤدب بالضرب والتعنيف»⁽⁴⁾، وقال القاسبي عن المعلم: «ينبغي أن يكون مهيبا لا في عنف، لا يكون عبوسا مغضبا ولا مبسوطا مرفقا بالصبيان دون لين، ويبنى أن يخلص أدب الصبيان لمنافعهم، ولا يجعل شيئا من ضربه لقبضه، ويريح قلبه من غيظه»⁽⁵⁾ كما حذروا من استخدام الكلمات القاسية⁽⁶⁾.

على أن ذلك لم يكن يمنع من استخدام الزجر مع إمكانية عقاب المعلم للصبي⁽⁷⁾ كأن يضربه تحت قدميه ثلاثا أو خمسا، أو على الأفخاذ والأيدي لأنها من الواضع التي لا يخشى فيها على الصبي في عقابه⁽⁸⁾ وأخيرا فقد قال ابن خلدون: «إن إرهاف الحد بالتعليم مضر بالمتعلم سيما في أصاغر الولد»⁽⁹⁾.

(1) ابن سحنون: آداب المعلمين، 47.

(2) عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، 252.

(3) الغزالي: إحياء علوم الدين، 3 / 73.

(4) ابن ناجي: معالم الأيمان، 2 / 124.

(5) الونشريسي: المعيار، 8 / 250.

(6) المغراوي: جامع جوامع الاختصار، كقولهم للصبي يا فرد، وتعني في المفهوم المغربي يا نور، ينظر الونشريسي: المعيار، 8 / 257.

(7) ابن الأزرق: روضة الأعلام، ورقة 177.

(8) عيسى: تاريخ التعليم، 248.

(9) المقدمة، 540.

أما عن الأهداف التعليمية، فقد كان أهل المغرب يقتصرون على تعليمهم على القرآن ولا يدخلون معه أي علم من العلوم وذلك خشية من انعدام الفائدة في التعليم⁽¹⁾ وطريقة التعليم تقوم على تعليم الصبي كل يوم أية من القرآن حتى يجيد تعلمه بصورة متقنة وقد تراوح هذه المدة إلى السنة الثالثة من دخوله المكتب⁽²⁾.

كان العديد من واضعي رسائل التربية يهدفون إلى تحقيق بعض الغايات فعلى سبيل المثال لا الحصر أضاف الغزالي بجانب تعليم القرآن الكريم «أحاديث الأخيار وحكايات الأبرار لينغرس في أنفسهم حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الأدباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد»⁽³⁾، وعلى أية حال فقد انطلق العلماء في تحديد منهج الكتابات على قدر المستطاع بالنسبة لمدارك الطالب وخاصة في العلوم التي يرون أنها افلح للطالب بحيث تكون قريبة إلى فهمه ضمن هذه المرحلة أما إذا قدر أحدهم غير ذلك، فقد أمر بتركه والانتقال إلى غيره من العلوم⁽⁴⁾.

وعلى أية حال فقد عرفت مدن المغرب الأقصى كتابات خاصة من بينها مكتب النحوي أبي عبد الله من الأصغر من أهلي سبتة الذي قيل عنه أنه كان يدرس الأولاد أكابرها⁽⁵⁾. وكذلك عبد الله بن أبي مدين الذي درس الأولاد محمد الكناني والسلطان يعقوب بن عبد الحق والوزير عمر بن السعود الحشمي⁽⁶⁾، واهتمت

(1) ابن خلدون: المقدمة، 538.

(2) الوزان: وصف إفريقيا، 263.

(3) إحياء علوم الدين، 3/ 70.

(4) ابن جماعة، تذكرة السامع، 57-58.

(5) مجهول: بلغة الأمنية، 181.

(6) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 438.

بعض البيوتات الفاسية بتدريس الصبيان القرآن الكريم والكتابة من أمثال بيت بني الزواوي وبيت بني أبي منديل⁽¹⁾.

وأخيرا فإن اهتمام المغاربة بالتعليم دفعهم إلى اختيار المعلمين الذين تميزوا بمقدرتهم العلمية، فاشتهر من بين المعلمين ابن جروم (توفي 723 هـ 1323 م)⁽²⁾ والخطيب ابن مرزوق الذي درس بعض الأولاد أبي الحسن⁽³⁾.

2- المساجد والجوامع:

يشكل المسجد الجامع عنصرا أساسيا من عناصر تصميم المدينة الإسلامية لما له من أهمية دينية وسياسية في حياة المجتمع، كما ساهم ومنذ قيام الدولة العربية الإسلامية بدوره التعليمي إضافة إلى وظائفه الأخرى، حيث اشتهر من مساجد الإسلام الكثير وتميزت عن غيرها بجهودها الواضحة في هذا الجانب⁽⁴⁾.

والحديث في هذا المدان في هذا الميدان عن دور المساجد في العصر المريني، يتركز في جانبين:

أ- المساجد. ب- جامع القرويين والأندلس.

أ- المساجد:

وقبل الدخول إلى طبيعة التعليم في المساجد بصورة عامة لا بد أن نشير إلى أن هذه المرحلة التعليمية لم تكن محددة بمنهج واحد مما أعطى الطالب فيها حرية التنقل

(1) ابن الأحرر: بيوتات فاس، 10، 17-18.

(2) كنون: ذكريات مشاهير رجال المغرب، حلقة 20.

(3) المسند الصحيح، 486.

(4) غنيمة: تاريخ الجامعات الإسلامية، 33.

بين حلقات العلم، والتمتع بحرية اختيار المواد التعليمية التي يرغب في تعلمها⁽¹⁾.
والتنقل بين من يشاء من الأساتذة⁽²⁾.

أما فيما يتعلق بطبيعة المساجد الصغيرة فهي لم تكن تحت أشرف الدولة مباشرة من حيث استخدامها كمراكز للتعليم⁽³⁾ إلا أن ذلك لا يعني عدم رعايتها أو تخصيص الاحباس من قبل الدولة أو الأغنياء من أهالي المدن المرينية لها⁽⁴⁾. فقد اتبعت نظاما في التعليم يمثل مرحلة تراوحت ما بين الكتاتيب وجامع القرويين والمدارس التابعة له⁽⁵⁾.

ومما يجدر ذكره أن كثيراً من العلماء الذين كانوا يلقون علومهم في جامع القرويين كانوا يختارون بعد الانتهاء من مواعيد محاضراتهم بعض المساجد القريبة من دورهم لإلقاء دروس أخرى في بعض الساعات من كل يوم حتى قيل من جراء ذلك عن فاس بأن العلم يكاد يتفجر من حيطانها⁽⁶⁾.

كان الطالب في العصر المريني يصبح مؤهلاً لهذه المرحلة بعد اجتيازه لمرحلة الكتاتيب أي عند بلوغه مرحلة الاحتلام كما حددها القابسي⁽⁷⁾ أو عندما يصبح سنه

(1) عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، 280.

(2) غنيمه: تاريخ الجامعات الإسلامية، 271.

(3) ابن الأزرقي: بدائع المسالك، 1/ 247.

(4) الونشريسي: المعيار، 7/ 70.

(5) مؤانس: المساجد، 216.

(6) القاسي: دور القرويين، 111.

(7) ينظر: الكتاتيب.

ما بين الثالثة عشرة أو الرابعة عشر من عمره⁽¹⁾، وقد تشمل حلقة الدرس شيخاً كبيراً في الوقت نفسه⁽²⁾.

أما المدة التي يقضيها الطالب في المسجد فالأمر يتوقف بالدرجة الرئيسية على المتعلم، قال: إن أحدهم كان يتردد إلى مجلس ابن راشد، فقبل له: «إلى متى وأنت تختلف إليه؟ فقال له عشرون سنة لي أحضر مجلسه لعلّي اسمع منه مسألة لم اسمعها فما سمعتها وأنا أرجو أن تكون»⁽³⁾، وقد ينقطع عن المسجد ويختار حلقة في مسجد آخر من أجل اكتساب علم آخر⁽⁴⁾، أو أنه ينقطع بعد أن يشعر بانعدام الفائدة من شيخه، ويروى عن أبي عبد الله محمد الوادي (توفي 772 هـ - 1370 م) أنه جلس في إحدى المساجد بمدينة سبتة فوجد المدرس قد اخطأ في نقل بعض المسائل عن كتاب التهذيب للبراذعي فقام على الفور فقبل له في ذلك فقال: «هذه غيبة ولا يحتاج إليه»⁽⁵⁾.

أما مواعيد الدروس فالأمر يتعلق فيما يرغب الأستاذ وظروفه⁽⁶⁾، وغالباً كان إعطاء العلوم في تلك المساجد بعد صلاة الفجر حتى المساء تتخلل ذلك أوقات للراحة والعبادة⁽⁷⁾، واشتهر الكثير من المساجد، وتنوعت علومه وفي مختلف الاختصاصات⁽⁸⁾.

(1) لوتورنو: فاس في عصر بني مرين، 172.

(2) حسين: الحياة العلمية في تلمنسية، 212.

(3) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 472-473.

(4) مجهول: بلغة الأمنية، 175.

(5) مجهول: بلغة الأمنية، 179-180.

(6) غنيم: تاريخ الجامعات، 274.

(7) مجهول: بلغة الأمنية، 175.

(8) المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، 303.

لقد عرف العصر المريني عددا من الفقهاء الذين كانوا يمارسون مهنة التدريس في مساجد اختاروها لأنفسهم أمكنة لإعطاء المحاضرات العلمية، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر أبو عبد الله بن هاني اللخمي (المتوفى سنة 733هـ - 1332م) الذي اختار مسجد القفال في سبتة وكان على حد تعبير مؤلف بلغة يدرس الفنون العلمية «دولة أثر دولة»⁽¹⁾ وكذلك أبو عبدالله الزرعي الجدموني السبتي الذي اختار مكانه في مسجد معبره زجلو في سباط الموشقين وكان مشتهرا بتاريخه الذي يتكون من أربعين سفرا والمتضمن أخبار العلماء والأدباء والتعريف بهم⁽²⁾.

واشتهر في فاس علي بن محمد بن عبد الحق الزوويلي المعروف بابي الحسن الصغير (المتوفى سنة 719هـ - 1319) وقد كان مجلسه في جامع الاصدع يحضره نحو مائة شخص، ويتميز مجلسه بالمناظرات والبحث⁽³⁾.

وكان أبو القاسم بن محمد الغماري يجلس في مسجد زنقة حجامة من فاس وعرف بتدريس المدونة بعد موت شيخه أبي إسحاق الغماري وقيل عنه أنه «من أحفظ أهل زمانه للمدونة وتحصيل مسائل المذهب»⁽⁴⁾ كما عرف عن عبد الرحمن الرجراجي (المتوفى سنة 718هـ - 1318م) أنه «كان يتكلم على المدونة بمسجد الصاغة»⁽⁵⁾ وعرف عن يحيى الدكاني السبتي الذي كان حيا بعد سنة (723هـ - 1323م) وأنه جلس في مسجد الكويشة من فاس قرب قنطرة أبي رؤوس يتكلم عن

(1) مرهون: 175.

(2) مجهول: بلغة الأمنية، 176.

(3) ابن فرحون: الديباج المذهب، 2 / 119 - 121.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1 / 109.

(5) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 401.

العمدة⁽¹⁾ فضلا عن مجالس أبي عبد الله بن عبد المنعم المهاجي (توفي 750 هـ - 1349م) في مسجد بجوار زقاق الفضل في سبتة و«كان يقرئ الطلبة في المجلس الواحد دولا في علوم شتى وآخر ذلك في الطب.. وكان له قيام على الأصول والنحو... وكان يحكم قراءة كتاب سيبويه.. وكان يقدم صحاح الجوهري على سواها من كتب اللغة.. ويقدم جواهر ابن شاس في الفقه⁽²⁾ أما مجلس أبي القاسم التجيبي (توفي سنة 730 هـ - 1329م) فقد كان لتدريس الحديث في مسجد بالقرب من زقاق ابن الشراك⁽³⁾.

وتواصلت المساجد الصغيرة في مهمتها العلمية ولم تنقطع أحيانا بوفاة شيخها، حيث نجد من يخلفه بعد وفاته من طلبته المتفوقين، فيستمر في تكملة رسالة شيخه في المسجد نفسه مثلما حصل مع عبد المؤمن بن محمد بن موسى الجاناتي (توفي 746 هـ - 1345م) الذي جلس في جامع الاصدع بعد وفاة شيخه أبي الحسن الصغير⁽⁴⁾.

ب - جامع القرويين والأندلس:

تواصلت جهود الدول التي تعاقبت على حكم المغرب الأقصى في تشييد وتوسيع جامعي القرويين والأندلس، الأمر الذي أهلها فيما بعد لتأدية دورها العلمي، فكانا مركزين علميين واسعين، والحديث هنا عن جامع القرويين الذي قال بعض الباحثين عنه: «ان أقدم كلية في العالم ليست في أوروبا ما كان يظن بل في إفريقيا في مدينة فاس عاصمة بلاد المغرب»⁽⁵⁾ ووصفه آخر بأنه «ثاني جامعة

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 543.

(2) مجهول: بلغة الأمنية، 175 - 176.

(3) مجهول: بلغة الأمنية، 177.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 447-448.

(5) ابن شقرون: القرويين بين الأمس واليوم، 122.

إسلامية في العالم في كثرة من تعلم بها وتخرج فيها من العلماء والأدباء والطلاب... بعد الأزهر»⁽¹⁾.

ازدهرت المكانة العلمية التي كان يتمتع بها جامع القرويين قبل عصر الدولة المرينية على عصرهم وذلك يعود إلى دورهم في إقامة المدارس حوله، فصار بذلك جامعة استقبلت العلماء، وازدهرت فيه العلوم، فذاع صيته، وقصده العلماء للتدريس وطالبي العلم للاستزادة⁽²⁾.

وكانت طبيعة الحياة العلمية في هذا المسجد الجامع تسير وفق نظام واضح إذ كان معظم مواعيد إلقاء المحاضرات العلمية يبتدئ بعد صلاة الفجر حتى شروق الشمس، أما في الصيف فكانت الدروس تلقى ليلاً أي منذ منتصف الليل وحتى الساعة الواحدة والنصف صباحاً⁽³⁾، كما تمتع طلابه خلال دراستهم بعطل رسمية⁽⁴⁾، في المناسبات ومن بينها المولد النبوي الشريف⁽⁵⁾.

وكانت الدراسة في داخله مخصصة للعلوم الدينية وعلوم العربية من نحو وصرف وبلاغة، أما بقية العلوم فقد كانت تدرس في المدارس المجاورة للمسجد⁽⁶⁾ ويضيف الوزان في حديثه عن الكراسي العلمية فيه قائلاً: «وتظهر في داخل الجامع، وعلى طور الجدران كراسي من مختلف الأنواع، وهي التي يلقي منها بضعة أساتذة دروساً على الشعب في أمور دينية وفي شريعته الروحية»⁽⁷⁾.

(1) غنيم: تاريخ الجامعات الإسلامية، 42.

(2) خالص: دور جامعة القرويين في حفظ تراثنا، 30-33.

(3) الوزان: وصف إفريقيا، 230.

(4) النازي: جامع القرويين، 2/ 436-437.

(5) المقرئ: روضة الأس العاطرة الأنفاس، 12-14.

(6) القاسمي: دور القرويين، 111.

(7) وصف إفريقيا: 230، وللمزيد ينظر: فاس عاصمة الإدارة، 55-56.

أما الكتب التي عرفت وكانت تقرأ على هذا العهد، كتاب تفسير الثعلبي (توفي 447هـ - 1055م) في زاوية منه، وحلية الأولياء لأبي نعيم (توفي 430هـ - 1038م) ومن بين كتب التصوف وحلية الأبرار⁽¹⁾، ورعاية المحاسبي⁽²⁾، حيث كان الناس يجلسون على شكل حلقات لاستماع فصول من هذه الكتب، ويذكر أن السلطان أبا الحسن أمر قارئها بالجلوس قرب المحراب، وأضيف إلى تلك الكتب الأحياء للغزالي وعلى عهد ولده أبي عنان درس كتاب الشفا للقاضي عياض⁽³⁾. كما تم تخصيص جناح من الجامع لتعليم التجويد وقد ابطل العمل به لوقوع بعض البدع⁽⁴⁾.

وكان من بين العلماء الذين درسوا في المسجد ابن رشد⁽⁵⁾ الذي خصص مجلسه الواقع في شرق القرويين للبخاري، وخلفه تلميذه أبو البركات بن الحاج⁽⁶⁾ الذي خصص مجلسه للموطأ⁽⁷⁾، أما مجلس الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد الرزاق الجوزي (توفي سنة 755هـ - 1354م) المعروف بعلم الأصول فقد كان يعقد في المسجد ولم يتخلف عنه أي من الفقهاء⁽⁸⁾.

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1 / 74.

(2) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 502.

(3) الجزنائي: جني زهرة الأس / 80.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس: 75، وللمزيد ينظر: 76-77.

(5) هو صاحب الرحلة المشهورة (بملء العيبة) اشتهر بعلم الحديث، وغيره من العلوم، (توفي 721هـ - 1321م). للمزيد ينظر موضوع الرحلات وعلم الحديث.

(6) ترجم له ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1 / 293-295. النباهي: المرقبة العليا، 164.

(7) ابن الحسني: جامع القرويين، 165.

(8) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 262-263.

وكان التعليم بالنسبة لطلبة الجامع مجانياً، أما الأساتذة فكانوا يتقاضون من الدولة كل ما يحتاجونه خلال السنة على شكل اجور عينية من مواد غذائية، أما سكنهم فكانت مجانياً بشرط أن يسكن المدرس في العاصمة فاس⁽¹⁾.

ولم يكن جامع الأندلس بعيداً عن الرعاية التي أغدقها المرينيون على العلم والعلماء وكانت منزلته العلمية تتميز أيضاً بعلو شأنها وإن نظامه كان يسير وفق النظام المعروف في جامع القرويين، حيث اتخذ الكثير من العلماء مواضع لهم فيه، وتميزوا بمكانتهم العلمية وقصدهم الطلاب من مختلف البلاد، كما كانت الحياة العلمية فيه تتميز بتنوعها، ففيه ركن اختص بالمبادئ الأولية لأي علم من العلوم. وفي مواضع أخرى منه أساتذة مختصون في علوم شتى بينما استقر آخرون فيه منقطعين للعبادة بعد أن عرفوا بمكانتهم العلمية، وكان الناس يقصدونهم بأمور متنوعة كالفتاوى أو الاستماع إلى فصول العلم والأدب، وربما قصدتهم العامة للتبرك والدعاء⁽²⁾.

وعلى الرغم من ندرة المعلومات عن المواد التي درست فيه أو الكراسي التي أوقفت عليه إلا أنه يمكن التعرف على بعضها، فقد ذكر أن سليمان الونشريسي (توفي سنة 705هـ - 1305م)⁽³⁾ كان يقوم بتدريس التفريع والمدونة⁽⁴⁾ ومما نجده قديماً على هذا العهد تخصيص كرسي خاص بالتفسير⁽⁵⁾، كما عرف عن العبسي⁽⁶⁾ (توفي

(1) ابن عبد الله: مؤسساتنا التعليمية بين جامعات العالم، 5.

(2) الجزنائي: جنى زهرة الأس، 94-95.

(3) ترجم له، الكتاني: سلوة الأنفاس، 3/ 316.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 515.

(5) الجزنائي: جنى زهرة الأس، 95.

(6) ابن القاضي: درة الحجال، 2/ 208.

965 هـ - 1577 م) أن له درس فيه فيما بعد الألفية بشرح المرادي ومختصر خليل والتفسير وكتاب الدر اللوامع في قراءة وكان نافع من طلبته المنجور⁽¹⁾.

وقد بلغت عناية السلاطين المرينيين حدا كبيرا بمكتبات الجامعات يزودونها بالمؤلفات النادرة وحسبك أن تعلم أن السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق قد وضع فيها سنة 684 هـ - 1285 م ثلاثة عشر حملا من الكتب العربية التي استدرها من ملك اشبيلية سانشو الرابع⁽²⁾. وقد سجل أحد الأوربيين في سنة 1023 هـ - 1613 م أن مكتبة القرويين تحتوي على (32) ألف مجلد⁽³⁾، وكان عددها آخر القرن الماضي نحو (30) ألف مجلد⁽⁴⁾.

3- المدارس:

منذ مطلع القرن الخامس الهجري - الحادي عشر الميلادي، كانت المدارس المغربية موجودة في عصر المرابطين⁽⁵⁾، غير أن توسيع ونشر حركة البناء على صعيد العصر المريني، يعد إيذانا ببدء مرحلة جديدة على صعيد التعليم في المغرب الأقصى، عندما أسس مؤسس دولتهم السلطان يعقوب ابن عبد الحق أول مدرسة لهم في فاس قرب جامع القرويين⁽⁶⁾، ثم تلتها إنجازاتهم في بنائها بالقرب من جامع القرويين فبنيت حوله مدرستان إضافة إلى الأولى وهما مدرسة العطارين

(1) المنجور: الفهرسة، 69.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 363.

(3) العمراني: جامعة القرويين، 174. وكذلك الكناي: فاس عاصمة الادارسة، 65-66.

(4) ابن عبد الله، مؤسسانا الجامعية، 5/276.

(5) Benchekeni. 5.

(6) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/339.

والمصباحية، بينما شيدت المدارس الباقية بجوار جامع الأندلس كالصهرنج والسبعين والوادي⁽¹⁾.

من مزايا تلك المدارس، اشتغالها على بيوتات خاصة للطلبة، وكانت تمتلك أوقافاً مخصصة عائداً لتسيير شؤونها، وتتقاضى الطالب فيها راتباً، أو يزود بالمؤن والثياب لمدة سبع سنين⁽²⁾. أما المدة التي يقضيها في تلك المدارس فقد ذكر ابن خلدون أنها «ست عشر سنة»⁽³⁾، والذي يهمنا من ذلك أن الفترة التي يقضيها الطالب تفي بالغرض إذا ما قيست بالمدة التي يقضيها في مدارس إفريقية وهي «خمس سنوات»⁽⁴⁾، وعلى أية حال فقد بلغ أمر الطلبة منزلة عظيمة في ذلك العهد⁽⁵⁾.

اشتملت المدرسة المرينية على هيئة إدارية تشرف عليها وغالباً ما كانت تتكون على الأقل من جهاز يضم إماماً ومؤذناً ومدرساً وأستاذاً وقيماً وبواباً⁽⁶⁾، أما سن الطالب الذي يحق له الانضمام إلى المدرسة فالعشرين وما فوقها⁽⁷⁾، أما الأستاذ فوفرت الدولة له كل ما يحتاج إليه⁽⁸⁾.

(1) ينظر المدارس: الفصل الخامس.

(2) الوزان: وصف إفريقيا، 233. وربما يتقاضى أكثر من راتب، الونشريسي: المعيار، 7/ 264-263.

(3) المقدمة، 432.

(4) ابن خلدون: المقدمة، 432.

(5) التنكتي: نيل الابتهاج، 260. ابن مريم: البستان، 170.

(6) الونشريسي: المعيار، 7/ 17.

(7) الونشريسي: المعيار، 7/ 17.

(8) الوزان: وصف إفريقيا، 143. وللمزيد ينظر: ابن عبد الله: مؤسساتنا الجامعية، 5/ 2769.

تنقسم مناهج الدراسة إلى قسمين الأول قراءة حزب من القرآن بعد صلاة الفجر والمغرب والثاني دروس العلماء وحضور الطالب إلى الدروس الزامي، ولم يكن يسمح له بالتخلف إلا في الحالات الضرورية كالمرض، أما إذا تبين أن الطالب قد انقطع عن العبادة وملازمة الدروس، فعقوبته طرده من المدرسة وحرمانه من السكن فيها⁽¹⁾. على أن المشرفين عليها كانوا لا يقبلون الطالب في مدارسهم أول الأمر ما لم يكن على اطلاع تام بمبادئ العلوم⁽²⁾.

يتم إلقاء الدروس في تلك المدارس بتوجيه أحد الطلبة بقراءة نص الدرس ثم يقوم الأستاذ بشرحه للتلاميذ، وإضافة آرائه عليه، كما كان يفسح المجال بعد ذلك للطلبة للمناقشة، وإثارة الأسئلة التي يقوم بالإجابة عنها⁽³⁾.

وعلى الرغم من ندرة المعلومات على المواد التي درست في تلك المدارس، إلا أننا نستطيع أن نلقي ضوءاً على بعضها من خلال تراجم بعض العلماء الذين عاشوا في تلك الفترة وخاصة في مدارس فاس.

1- مدرسة الصهريج:

درس القاضي إبراهيم بن عبد الرحمن التسولي التازي (توفي 747 هـ - 1346 م) كتابي التهذيب والرسالة⁽⁴⁾.

2- مدرسة العطارين:

اختصت بمادتين أساسيتين، الفقه والنحو، أما الفقه فيدرس صباحاً وأما النحو فيدرس بعد صلاة العصر⁽¹⁾، واشتهر من أساتذتها محمد بن محمد الفشتالي

(1) الونشريسي: المعيار، 7/ 7-8.

(2) الوزان: وصف إفريقيا، 144.

(3) الوزان: وصف إفريقيا، 233.

(4) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 85.

(توفي 777 هـ - 1375 م) الذي درس المدونة فيها⁽²⁾، وعينت مدرسة العطارين بتدريس الرياضيات والفلك من خلال المحاضرات التي ألقاها ابن البناء المراكشي (توفي 723 هـ - 1323 م) في أثناء تروده على فاس⁽³⁾ بين الحين والحين.

3- مدرسة الوادي:

عرفت مدرسة الوادي بأنها لا تسمح للطالب ان يدوام فيها ما لم يكن يحفظ صحيح مختصر الحاجبي⁽⁴⁾، وعلى هذا أساس، فإن كرسيتها كان مختصا بالفقهاء، ومن بين الذين درسوا فيها عبد الله الونغيلى الضرير، (توفي 779 هـ - 1377 م) وكان يقوم على كتابي ابن الحاجب في الفروع والأصول فيها، ودرس أيضاً المدونة⁽⁵⁾.

4- مدرسة فاس الجديد:

كان من بين أساتذتها المشهورين أحمد بن قاسم الجذامي الفاسي الشهير بالقباب⁽⁶⁾ (توفي 779 هـ - 1377 م)، واشتهر بتدريسه كتاب التهذيب، وله شرح على قواعد عياض وبيوع ابن جماعة.

(1) التازي: جامع القرويين، 2 / 387.

(2) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1 / 123. وللمزيد عنه ينظر: النباهي: المرقبة العليا، 170.

(3) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1 / 148. الونشريسي: الوفيات، 104.

(4) التازي: جامع القرويين، 2 / 362-363.

(5) ابن قنفذ: ابن الفقير، 68. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 424، نيل الابتهاج، 1 / 390.

(6) السراج: الفهرسة، ورقات مصورة من المنوي. ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1 / 123، وترجم له، ابن الخطيب: الإحاطة، 2 / 193. ابن فرحون: الديباج المذهب،

5- المدرسة المصباحية:

اشتهرت بالفقيه ابن الضياء مصباح بن عبدالله الباصولتي⁽¹⁾ (توفي 750 هـ - 1349م) وقيل عنه انه «حافظ وقته»⁽²⁾ وأنه «كان يستظهر في النقل بكراس سيرده في دولته كل غداة»⁽³⁾.

أما فيما يتعلق بالمدارس الأخرى التي حظيت برعاية المرينيين خارج مدينة فاس فالذي نراه أنها لم تأخذ طابع التخصص كما هي الحال في مدارس فاس. وعلى سبيل المثال المدرسة الجديدة في سبتة التي درس فيها أساتذة لهم اختصاصات متنوعة فمنهم الشاعر والفقيه والمحدث والإمام في العربية والأصول⁽⁴⁾.

ومما يلفت الانتباه ان انتشار المدارس الرسمية في تلك الفترة واجه انتقادا من قبل بعض العلماء وفي مقدمتهم محمد بن إبراهيم العبدري الابلي (توفي 757 هـ - 1356م) الذي قال: «إنما افسد العلم كثرة التواليف وبنیان المدارس، وأما البناء فإنه يجذب الطلبة لما فيه من الجرايات، فيقبل بهم على ما يعنيه أهل الرئاسة للأقرباء... ويصرفهم عن أهل العلم الذين لا يدعون إلى ذلك وان دعوا لم يجيبوا، وان أجابوا لم يوفوا لهم ما يطلبون من غيرهم»⁽⁵⁾.

(1) ترجم له، ابن القاضي: درة الحجال، 3/ 17.

(2) المقرئ: أزهار الرياض: 5/ 73.

(3) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 406.

(4) مجهول: بلغة الأمنية، 176، 178، 179.

(5) التنبكي: نيل الابتهاج، 744. ابن مريم: البستان، 216-217.

وقد استجاب بعض العلماء لرأيه فوجدنا تلميذه ابن خلدون يؤكد على قيمة الرحلة واللقاء مع أهل العلم مباشرة⁽¹⁾، في حين يشدد الفقيه أحمد بابا التنبكتي (توفي 1036 هـ - 1626م) الموافقة على حديثه قائلا: «ولعمري لقد صدق في ذلك، فقد أدى ذلك إلى ذهاب العلم بهذه المدن الغربية التي هي من بلاد العلم من قديم الزمان كفاس وغيرها، حتى صار يتعاطى الاقراء على كراسيها من لا يعرف «الرسالة» أصلا فضلا عن غيرها، بل من يفتح كتابا للقراء فقط فصار بذلك ضحكة، وسبب ذلك انها صارت بالتوارث والرياسات»⁽²⁾ ومما يجرد ذكره ان تلك المواقف التي أبداهها بعض العلماء إزاء قيام تلك المدارس، يرجع أسباب بعضها إلى ما لحق بعضهم من الضرر خاصة ان المدارس صارت محل استقطاب للطلبة، وشغلتهم عن التردد إلى مجالس العلماء.

4- مجالس العلماء:

تعد مجالس العلماء حلقة أخرى من حلقات التعليم في عهد الدولة المرينية، وعلى الرغم من تشابه خصائص هذه المجالس عن التي أقاموها في المساجد الصغيرة إلا إننا أثرنا ان نقردها فقرة خاصة وذلك لقيام العلماء بتدريس بعض العلوم التي لم يتعارف على تدريسها في المساجد كالعلوم العقلية في مختلف فروعها.

وعلى الرغم من ندرة المعلومات التي تشير إلى طبيعة هذه المجالس التي عقدها العلماء في أماكن مختلفة بعيدة عن المسجد، إلا إننا نستطيع ان نقدر طبيعة هذه المجالس، خاصة وإننا خلال دراستنا لتراجم العديد من العلماء لا نجد إشارة في العادة إلى الموضع الذي كان يدرس فيه ومما لا يشك فيه ان ذلك كان بعيدا عن المسجد وربما كانت في دور العلماء أنفسهم خاصة وان بعض العلوم قد درست في

(1) المقدمة: 541.

(2) نيل الابتهاج: 2/ 745.

المدارس وخاصة العلوم البحتة التي درست بعيدة عن القرويين وغيره من المساجد المنبثقة في مدن المغرب، وما يروى عن الابلبي (توفي 757 هـ - 1356 م) أنه «تصدى للاشغال فانها لعل عليه الطلبة وانتشر ذكره وأقام مدة بتونس يدرس ويفيد وأقام مدة ببجاية يشغل الناس ثم عاد إلى تلمسان»⁽¹⁾، بينما نجد عبدالرحمن اللجائي (توفي 773 هـ - 1371 م) قد رحل إلى مراكش ودرس عند ابن البناء، ولكن مع ذلك لم يشر إلى مجلس أستاذه⁽²⁾، ومن الحق ان نساءل ونحن نقرأ عن العالم البناء ابن انه «وصل... في علم الهيئة غاية لم يلحقها احد من أهل زمانه»⁽³⁾.

وعلى أية حال، يمكننا القول ان بعضهم لم يقيم مجلسه في المساجد كالأبلي الذي أقام مسجده في شطر من حياته في جبال الهسكرة عند علي بن محمد بن تاروميت واستفاد منه الطلبة وجمعوا مؤلفاته ودرسوها⁽⁴⁾، بينما أنتقل مجلسه بعدئذ في سبته⁽⁵⁾.

ومنازل العلماء كانت مجالس للعلم، ومن بينهم ابن مرزوق الخطيب (توفي 781 هـ - 1379 م) الذي قيل عنه بأنه: «غاص المنزل بالطلبة»⁽⁶⁾، وقد جلس آخر في داره لشيخوخته وظل على حاله ينتفع منه الطلبة حتى مات بعد ثلاث سنوات كما حصل لأبي عبد الله محمد بن محمد اللخمي⁽⁷⁾.

(1) ابن حجر: الدرر الكامنة، 3/ 375.

(2) ابن قنفذ: انس الفقير، 68.

(3) ابن إبراهيم: الأعلام بمن حل مراكش، 1/ 379.

(4) ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 57.

(5) السراج: الفهرسة، ورقات مصورة من مخطوطة المتوني.

(6) ابن الخطيب: الإحاطة، 3/ 104.

(7) السراج: الفهرسة، ورقات مصورة عن المتوني.

وعلى ما يبدو فإن العلماء خصصوا بيوتا غير بيوتهم للكتب وإعطاء الدروس لطلبتهم وعرف بـ (بيت الكتب)⁽¹⁾، وكانت حوانيت بعضهم مجلسا علميا، يقصدها طالب العلم، فينتفع بها، وقيل عنها أنها «تضم نخبة من المثقفين ثقافة فقهية وأدبية وفيهم العالم والأديب والمؤرخ والفرضي واليحيوي والنسابة والتعاليمي والمحاضر بالطرائف والفرائد والأخبار»⁽²⁾.

ولم تتوقف رسالة الحوانيت العلمية عن درها العلمي، حيث استفاد منها الكثير من العلماء أمثال المنجور⁽³⁾، الذي درس في حانوت النحوي علي بن عيسى الراشدي (توفي 961-962 هـ / 1553 - 1554 م)، وعلى ما يبدو فإن الحوانيت قد ازدادت أهميتها في مرحلة لاحقة فأصبحت مواضع عمل وعلم، وخاصة بعد أن اضطربت أوضاع الدولة وقلت العناية بالعلماء، فانصرف العالم للبحث عن وسائل للرزق يعوض فيها ما فقده من معطيات كانت تقدمها مؤسسات الدولة له وبصورة مجانية.

5- الزوايا:

عرفت المدن المغربية الكثير من الزوايا التي اشتهرت بأسماء الكثير من الأولياء وأصحاب الطرق الصوفية، وكانت تلك الزوايا تقوم بدورها التعليمي الخاص إضافة إلى واجباتها الدينية والاجتماعية.

ومهمة الزاوية في بلاد المغرب الأقصى واضحة فهي «محل تثقيف العقول دينيا وأدبيا»⁽⁴⁾، ولم تكن الزاوية المعروفة على هذا العهد نمطا واحدا، وإنما كانت على

(1) ابن قنفذ: انس الفقير، 84. ابن مريم: البستان، 174.

(2) زمامة: الوليد بن الأحمر، 140.

(3) الفهرسة، 68.

(4) البستاني: دائرة المعارف، م 9/ 161.

ثلاثة أنواع كما رآها بعض الباحثين المحدثين وهي البسيطة والزاوية التي تقوم حول ضريح والزاوية الطرقية التي تقوم على منهج صوفي معين⁽¹⁾، والذي يهمننا النوع الثالث الذي تميز بوصفه مركزا تعليميا خاصا.

ومن بين الزوايا التي اشتهرت في المغرب زاوية أبي داؤد في بلاد الريف⁽²⁾ حيث عرفت بزاوية اقبو، وقيل عنها انها من اكبر زوايا القطر الجزائري⁽³⁾، وزاوية أبي عبد الله الياهوري في سلا⁽⁴⁾ وزاوية الشيخ أبي زكريا الكاتنة قرب الجامع الأعظم في الجهة الأخرى من سلا⁽⁵⁾، ولعل أقدمها زاوية الشيخ أبي محمد صالح الماجرسي (توفي 631 هـ - 1233م) في مدينة أسفي وكان صاحبها قد نشر زواياه ما بين مصر وبلاد المغرب حتى بلغت ستا وأربعين زاوية⁽⁶⁾.

كان اهتمام المرينين بتزايد رعاية وإنشاء الزوايا، وبرز على عهدهم الزوايا الرسمية ولعل خير مثال على ذلك إنجازات أبي الحسن في هذا المضمار⁽⁷⁾ والزاوية المتوكلية التي بناها ولده السلطان أبو عنان في مدينة فاس والتي تكونت من غرف ثلاث إحداها للإمام والأخرى للمؤذن والثالثة للناظر في الأوقات، ويتصل بها داران الأولى للفقراء والغرباء والثاني للطبخ، كما اشتملت على صومعة وصهريج

(1) القاسبي: المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، 16. وللمزيد عن الزوايا في المغرب، ينظر: حسن: انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، 66-68.

(2) البادسي: المقصد الشريف، 53-55.

(3) الكتاني: فهرست الفهارس والإثبات، 2/ 1001.

(4) الحضرمي: السلسل العذب، 40.

(5) الحضرمي: السلسل العذب، 1/ 41. وقد اشتهرت في تلمسان زاوية أبي مدين، للمزيد عنها ينظر: ابن قنّذ: انس الفقير، 106.

(6) حجّي: الزاوية الدلائية، 25.

(7) ينظر الزوايا - الفصل الخامس.

ومسجد يقابلها⁽¹⁾، وعلى أية حال فقد اشتهرت الزوايا على عهد المرينيين بدار للضيوف⁽²⁾.

كانت الزوايا المنبثة في مدن المغرب الأقصى تجمع المريدين الذين كانوا يخضعون لوصايا وتوجيهات مؤسس الزاوية الذي عادة ما يطلق عليه مصطلح الشيخ أو لمن خلفه على رأس الزاوية، أما اعمار المريدين فقد كانت تتفاوت أحيانا ما بين الشباب إلى الشيخوخة⁽³⁾، أما الصبيان فقد استخدمت الزاوية أحيانا لغرض تعليمهم القرآن⁽⁴⁾.

والذي يهمننا من الزوايا دورها التعليمي، وللتعرف على طبيعة العلوم التي كانت تدرس فيها، وفي مقدمة ذلك القرآن الكريم⁽⁵⁾، إضافة إلى الحديث⁽⁶⁾، وقد درس فيها عدد من الكتب بشكل عام من بينها «قوت القلوب في معاملة المحبوب» ووصف الطريق المريد إلى مقام التوحيد» لأبي طالب بن محمد بن علي بن عطية الحارثي المكنى (توفي 386 هـ - 996م) وكتاب «النصائح» للمحاسبي (توفي 243 هـ - 857م) والرعاية له أيضاً وكتاب «الاحياء» للغزالي⁽⁷⁾ أما الأخير فقد حظي بمكانة طيبة من قبل أهل التصوف في المغرب، وروي عن أبي مدين الغوث أنه

(1) التميمي: فيض العباب 47-49، وللمزيد بنظر مقدمة المحقق، 95.

(2) حجي: الزاوية الدلائية، 25.

(3) الفردبيل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، 383-405. الونشريسي: المعيار، 11/118.

(4) الونشريسي: المعيار، 11/46.

(5) الجزناني: جني زهرة الأس، 77.

(6) الحضرمي: المسلسل العذب، 1/41.

(7) الحضرمي: المسلسل العذب، 1/42.

قال: «ونظرت في كتب التصوف فما رأيت مثل الأحياء للغزالي»⁽¹⁾. كما اهتموا برسالة القشيري لأبي القاسم عبد الكريم بن هوزان (توفي 386 هـ - 996م)⁽²⁾. وتعليقا على الكتب التي اهتم بها المتصوفة في المغرب يشير ابن عباد إلى «قصود القلوب» قائلا: «وهو المقدم على كتب التصوف من كل وجه وهو الذي انتهى إليه التقدم والإيثار لأنه ذكر أصل علوم المتصوفة وفروعهم... فكان كالمدينة في علم الفقه يقوم مقام غيره، ولا يقوم غيره مقامه»⁽³⁾، ولم تقف اهتمامات المتصوفة عند تلك العلوم بل درس بعضهم النحو والفلك والحساب⁽⁴⁾، وفي حين اهتمت فئة أخرى بالتهذيب والفرائض والحساب⁽⁵⁾، وفي ذلك أصبحت هذه الزوايا بديلاً عن المدارس في خدمة العلم، ونتج عن ذلك تنوع في علوم أربابها وتكوينهم الفكري، والفضل في ذلك يعود إلى مؤسس الزاوية الذي كان يتمتع بمنزلة وتأثير يتجاوز أتباعه إلى عامة الناس⁽⁶⁾.

6- المجلس العلمي للدولة:

لما كانت عناية المرينيين واضحة بالعلم ومنشأته فقد كان من الطبيعي أن يكون بلاطهم مجلساً مهماً من المجالس العلمية، فقد كانت نفوس سلاطينهم تشتاق إلى «مخالطة أهل العلم وترفيه مكانهم في مجالستهم ومفاوضتهم في الاقتداء بالشرعية والانقياد لإشاراتهم في الوقائع والأحكام»⁽⁷⁾، ولعل هذه الإشارة تكشف عن

(1) الناطلي: التشوف في معرفة رجال التصوف، 195.

(2) مفتاح: التيار الصوفي في الأندلس والمغرب، 1/ 119.

(3) مفتاح: التيار الصوفي، 1/ 122.

(4) الكتاني: فهرست الفهارس والإثبات، 2/ 1001.

(5) ابن قنفذ: انس الفقير وعز الحفير، 65.

(6) الحضرمي: السلسل العذب، 78.

(7) ابن خلدون: العبر، 6/ 105.

تفصيلات عديدة وتوضح لنا مدى التصاق السلاطين المرينيين بالعلماء ومخالطتهم، ويكفي لبيان طبيعة مجلس الدولة الأعلى في عهد أبي الحسن أن تشير إلى أنه أبان فتحه لإفريقيا قدم إليها في سنة 748 هـ - 1347م)، ومعه رجال العلم في مختلف فنونه حيث «كان يلزمهم شهود مجلس وينجمل بمكان فيه»⁽¹⁾. وقد شبه عثمان الكماك رحلة العلماء إلى تونس مع أبي الحسن برحلة العلماء الفرنسيين مع نابليون إلى مصر⁽²⁾.

وكان غرق أسطوله بمثابة انتكاسة علمية فذهب ضحيتها صفوة من خيرة علماء المغرب بلغ عددهم (400) عالم⁽³⁾ والواقع أن المجلس بقي مستمرا في مهامه العلمية في السلم والحرب ومواعيده تتوزع بين أوقات معلومة خلال اليوم الواحد حيث يتبدئ بعد صلاة الفجر، ثم يعود بعد صلاة العصر، وقد يستمر إلى فترات متأخرة من الليل أحيانا، وخاصة في الفترات التي تشهد استقرارا، ويكون البلاط غير منشغل بمهموم السياسة والحكم⁽⁴⁾.

أما فيما يتعلق بالمواد العلمية التي تقرأ فيه فنجد في مقدمتها القرآن الكريم والحديث، وغالبا ما كان يتم قراءة «خمس أحزاب من القرآن وربما قرئ أربعة في يوم واحد، أما الحديث فنجد أن المجلس اهتم بالبخاري الذي قرئ مرات والموطأ، إضافة إلى كتاب الفقه، وخاصة كتاب التهذيب البراذعي، وكتاب ابن الحاجب وكتاب الشفا للقاضي وما كتبه ابن الجوزي في معظم مؤلفاته وعلى وجه الخصوص كتاب المدهش وتفسير القرطبي، وتفسير الثعلبي». كما اهتم المجلس بدراسة عدد

(1) ابن خلدون: الرحلة، 20.

(2) المنوي: ورقات عن الحضارة المغربية، 324.

(3) ابن القاضي: لقط الفرائد، 203. المقرئ: نفح الطيب، 4/215. ابن عبد الله: تاريخ المغرب، 151/1.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 277، 139.

من الكتب مثل الاكتفاء لأبي الربيع، وسراج الملوك للطرطوشي والفرج بعد الشدة للتونجي وفتوح الشام للواقدي والحلية لأبي نعيم، إضافة إلى كتب أخرى في السير والتاريخ.

تمتع العلماء بمكانة مرموقة في عهد السلطان أبي الحسن ولعل الأمر الأول الذي يدل على ذلك أنه ما من عالم برع في علم ما أو ذكره علماء مجلسه إلا وشمله السلطان برعايته وضمه لمجلسه وقيل أنه «أستخلصهم لنفسه وجمعهم من سائر بلاده في حضرته، إذا سمع بمن له رسوخ قدم في العلم أقدمه على حضرته وجعله من خواص أهل مجلسه وأجرى عليهم الجرايات التي تكفيهم حضرا وسفرا، فاجتمع بحضرته أعلام»⁽¹⁾ وأول ما يستوقف المرء في تراجم العلماء أولئك الذين برعوا في علومهم، فتصدروا قائمة العلماء الذين ضمهم هذا المجلس ورعاهم السلطان وهياً لهم أن يكونوا زينة مجلسه العلمي⁽²⁾.

والأمر الثاني السماح لهم بارتداء الزي الأبيض وهو اللباس الخاص بالسلطان إضافة إلى كونه علم الدولة المرينية ورمزها، فقد ذكر العمري عن ذلك قائلاً: «ويختص سلطانهم بلبس البرنس الأبيض الرقيق، لا يلبسه ذو سيف سواه، فأما العلماء وأهل الإصلاح. فإنه لا حرج عليهم في لبسه»⁽³⁾، في حين يشير في موضع آخر: «وشعار هذه المملكة هو اللواء الأبيض.. وهو المسمى عندهم «العلم الأبيض»»⁽⁴⁾.

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 260.

(2) ابن خلدون: الرحلة، 20 وما بعدها.

(3) وصف المغرب: 305.

(4) وصف المغرب: 308. القلقشدي: صبح الاعشى، 206/5.

ومن العلماء الذين كانوا في طليعة هذا المجلس، عبد المهيم بن محمد الحضرمي (توفي 749 هـ - 1348 م) كاتب السلطان أبي الحسن⁽¹⁾، وعبد الله بن يوسف بن رضوان البخاري (توفي 783 هـ - 1381 م) الذي ذاع صيته في العربية والأدب⁽²⁾، وأبو عبد الله محمد بن النجار (توفي 750 هـ) من أهل تلمسان وكان إماماً في علوم النجامة وأحكامها⁽³⁾، والخطيب بن مرزوق التلمساني⁽⁴⁾ (توفي 781 هـ - 1379 م)، ومحمد بن عبد الله بن عبد النور (توفي 749 هـ - 1348 م) وكان بارزاً في علوم الفقه، واعطاه السلطان مهمة القضاء في جنده⁽⁵⁾، والفقيه محمد بن محمد الصباغ (مات غريقاً سنة 750 هـ - 1349 م) وقيل انه كان «مبرزاً في المنقول والمعقول، وعارفاً بالحديث ورجاله، إماماً في معرفة كتاب الموطأ وأقراءه»⁽⁶⁾، ومحمد بن علي بن سليمان السطحي (مات غريقاً سنة 750 هـ - 1349 م) وقيل عنه انه كان في الفقه لا يجارى حفظاً وفهماً⁽⁷⁾، وابنا الإمام أبو زيد عبد الرحمن وأبو موسى عيسى اللذان قال عنهما ابن خلدون «هم سباق الحلبة في مجالس السلطان ابن

(1) ابن الأحرر: مستودع العلامة، 50. المقرئ: نفح الطيب، 5/ 240. ابن الخطيب: أوصاف الناس، 99-100.

(2) ابن خلدون: الرحلة، 42. التنبكتي: نيل الابتهاج، 384-386. الناصري: الاستقصا، 1/ 111. ابن الأحرر: مستودع العلامة، 51-52.

(3) ابن خلدون: الرحلة، 48. الونشريسي: الوفيات، 118.

(4) ابن خلدون: الرحلة، 50-56. ترجم له ابن مريم: البستان، 184-190. وللمزيد ينظر: ابن شقرون: من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي، 128-140.

(5) ابن خلدون: الرحلة، 46-47.

(6) ابن خلدون: الرحلة، 46. الونشريسي: الوفيات، 117.

(7) ابن خلدون: الرحلة، 32-33. ابن مرزوق: المستند، 261. المقرئ: نفح الطيب، 5/ 240-241. الونشريسي: الوفيات، 117. القرافي: توشيح الديباج، ورقة 195.

الحسن، اصطفاهم لصحبته من بين أهل المغرب»⁽¹⁾. ومحمد بن إبراهيم الأيلي (توفي 756 هـ - 1356م) شيخ العلوم العقلية⁽²⁾. وأحمد الزواوي إمام المقرئين بالمغرب⁽³⁾. وأبو عبدالله الرندي الذي كان «إماماً في العربية، مقدماً في النظر»⁽⁴⁾، وإبراهيم بن أبي يحيى التسولي التازي «كان أجمل الفقهاء محاضرة واجمعهم مشاركة وأحسنهم في حسن المعاملة طريقة»⁽⁵⁾، والفقير القاضي أبو عبد الله محمد بن ولي الله علي بن عبد الرزاق الجزولي (توفي 755 هـ - 1354م) «نادرة وقته، وحيد عصره»⁽⁶⁾، والفقير عمران بن موسى المشذاني (توفي 745 هـ - 1344م)⁽⁷⁾، والفقير القاضي أبو عبدالله الفشتالي الذي قيل عنه «نخبة المغرب ونادرة فقهاء فاس علماً وأدباً»⁽⁸⁾، والفقير محمد بن أبي مدين وكان «عزيز الأدب، جم الحياء والأدب.. كتب في حضرة السلطان. فلم يزل بها... ثم كتب له العلامة بجبل هتانة»⁽⁹⁾.

وبلغ أعضاء هذا المجلس ما انتهوا إليه من درجة عالية في الرأي، نقل عن السلطان أبي الحسن أنه كان «يتحدث في الأمور في مجلسه ويفاوض فيه أهل حضرته

(1) الرحلة، 29-32. ترجم لهم، ابن مريم: البستان، 123-126.

(2) ابن خلدون: الرحلة، 21. وانظر ترجمته أيضاً في الصفحات 22-23، 33-39. ابن حجر: الدرر الكامنة، 3/ 375. المقرئ: نفح الطيب، 5/ 244-248. ابن مريم: البستان، 214-219. الوثريسي: الوفيات، 122.

(3) ابن خلدون: الرحلة، 23.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 261. يشير إلى أنه مات في الطاعون سنة 740 هـ. المقرئ: نفح الطيب، 5/ 241.

(5) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 262.

(6) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 262.

(7) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 268.

(8) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 268.

(9) ابن الأهر: مستودع العلامة ومستبدع العلامة، 46.

على قدر كبير الأمر وصغره وعلى حسن اختلاف المناصب والمراتب⁽¹⁾. وزيادة على ذلك فقد اضطلع المجلس بمهام تدريسية، ولعل من أبرز شواهد دور أولئك العلماء في رحلتهم إلى تونس مع السلطان أبي الحسن⁽²⁾، حيث درس السطحي ابن عرفة عندما طلب الأخير منه قراءة الحوفي فأجابه بأنه لا يمتلك وقتا إلا بين الظهر والعصر في باب جامع القصبة العلية، وأنشد ابن الصباغ الكناسي شرح المختصر الفقهي لابن الحاجب الذي كتبه ابن عبد السلام التونسي (توفي 750 هـ - 1349م)⁽³⁾، حيث ناقشه في أربع عشرة مسألة وهي من الاعتراضات التي ثبتها على شرحه دون أن يتمكن من تنفيذ إحداها⁽⁴⁾.

ولعل قصيدة أبي القاسم الرحوي خير تعبير عن هذا اللقاء العلمي ما بين المغاربة والتونسيين، ومطلعها:

هم القوم كل القوم أما حلومهم فارسخ من طوى ثبير وئهلان⁽⁵⁾

وباستثناء العالم التونسي ابن عبد السلام وتلميذه ابن عرفة، فقد أبرزت هذه المناظرات والمناقشات مكانة المغاربة على التونسيين خاصة في حفظهم لكتاب التهذيب عن ظهر قلب، فقد وصف ابن عبد السلام بأنه: «بحر تلاطمت أمواجه، فكان يقطعهم واحدا بعد آخر» حتى قال السطحي عنه للسلطان: «يا علي كذا يكون التحصيل وكذا يقرأ الفقه، ولو لم يكن بتونس إلا هذا الإمام لكان بها كل خير، من ملازمة هذا لهذا المجلس، حتى ينتفع به أصحابنا، وننتفع بطريقته»، فكان ذلك حثا للسلطان أبي الحسن في اختيار العلماء من أجل إلقاء دروس في اختصاصاتهم، وقد

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 353 وما بعدها.

(2) ابن خلدون: الرحلة، 20-21.

(3) النباهي: المرقبة العليا، 161-163.

(4) التبنكي: نيل الابتهاج، 736.

(5) ابن خلدون: الرحلة، 24-26.

شرع ابن عبد السلام بالقاء المحاضرات، فلم يكتب له الاستمرار بسبب مرضه، ونكبة أبي الحسن في القيروان⁽¹⁾.

وأخيراً فإن علماء تونس لم يكونوا بمعزل عن رعاية السلطان أبي الحسن. فقد ضم منهم إلى مجلسه علماء من أمثال قاضي الجماعة أبي علي عمر بن عبد الرقيق وأبي عبد الله محمد بن هارون الكتافي⁽²⁾.

7- تعليم المرأة:

على الرغم من العناية والاهتمام اللذين شهدهما التعليم على عهد المرينيين إلا أن حظ المرأة منه كان قليلاً كحالتها في العالم الإسلامي آنذاك وإن كنا لا نعدم بعض المظاهر التعليمية الخاصة بها في تلك المرحلة.

والواقع أن تعليم المرأة كان رهين أوضاع اجتماعية وأخلاقية قاسية لم يجزئ أحد من العلماء إصدار أحكامه فيه بصورة عامة ما لم يحكمه بضوابط دقيقة منعا للأخطاء الناجمة عنه في التطبيق، فظلت الأحكام توميء إلى ضرورة تعليمهن. ولكن ضمن أجواء ضيقة، قال ابن سحنون: «واكره للمعلم أن يعلم الجواري ولا يخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن»⁽³⁾، وأضاف القابسي: «ومن صلاحهم ومن حسن النظر لهم إلا يخلط بين الذكور والإناث»⁽⁴⁾، وعلى هذا الأساس كان بعض العلماء يهتمون بتعليمهن ولكن وفق هذه الضوابط، ويروى عن بعضهم وهو عيسى بن مسكين (توفي 295 هـ - 907 م)⁽⁵⁾، أنه: «إذا أصبح قرأ حزبه من القرآن، ثم جلس

(1) المتوني: ورقات عن الحضارة، 327-328.

(2) ابن بطوطة: الرحلة، 6656.

(3) آداب المعلمين، 117.

(4) الالهواني: التربية في الإسلام، 193.

(5) ترجم له عياض: ترتيب المدارك، 4/ 331-351.

للطلبة إلى العصر، فإذا كان بعد العصر دعا بنته وبنات أخيه، يعلمهن القرآن والعلم»⁽¹⁾.

وركز بعض المهتمين بشؤون التربية من علماء المسلمين على نوعية العلوم التي تحتاجها المرأة وحذروا من بعضها بالمعري كان يرى مثلاً أن تعليمها الغزل والنسيج خير لها من القراءة والكتابة وإن كان لا بد فالتلاوة على يد عجوز⁽²⁾، ويرى القاسبي في تعليمها: «ما يرجى لها صلاحه، ويؤمن عليها من فتنة وسلامتها من تعلم الخطأ انجى»⁽³⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن تعليم المرأة في العهد المريني كان يجري غالباً في دار يعرف «بدار الفقيهة»⁽⁴⁾، وكانت إدارة الدار تقع على نساء هن صلة بالحياة العلمية وخاصة في جامع القرويين، وعادة ما تخلف هذه السيدة بعد وفاتها إحدى بناتها، وكان من مشاهير النساء اللواتي مارسن تعليم البنات في المغرب السيدة سيدي بنت عبد الغني العبدولي (توفيت 647 هـ - 1249 م)⁽⁵⁾.

وعلى الرغم من أن التعليم كان يقتصر على عدد قليل من النساء ويتضمن تعليمهن على القرآن، إلا أن المرحلة اللاحقة شهدت تطوراً على صعيدهن، وخاصة في كثرة تردهن على الزوايا الدينية من أجل تعلم القرآن ودراسته⁽⁶⁾.

أما دور النساء في الحياة العلمية، فقد بلغ بعضهن منزلة عالية في العلوم والمعارف، ولعل خير من يمثل المرأة في هذا الميدان الشاعرة الأدبية سارة بنت

(1) عياض: ترتيب المدارك، 4 / 349.

(2) الجندي: الجامع في أخبار أبي العلا، 3 / 1548.

(3) الاهواني: التربية في الإسلام، 107.

(4) التازي: جامع القرويين، 2 / 443.

(5) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2 / 521 - 522. كحالة: أعلام النساء، 2 / 275.

(6) Jenohon., 73.

أحمد بن عثمان ابن الصلاح الحلبية (توفيت 750 هـ - 1349م) التي أجازت ابن سلمون (توفي 741 هـ - 1340م) وألبسته خرقة التصوف، وخاطبت على هذا العهد واتصلت بشخصيات مرموقة في المغرب الأقصى، وكانت قصائدها تتم عن شاعرية واضحة، ومكانة عالية في اللغة والأدب⁽¹⁾، واشتهرت أيضاً ست العرب بن عبد المهيمن الحضرمي التي أجازها الرحالة الأديب ابن رشيد (توفي 720 هـ - 1321م)⁽²⁾، وبرعت عائشة ابنة الشيخ أبي عبد الله بن الجيار بالطب، وقد درسته على يد أبي عبد الله الشربشي، وصارت عارفة بالعقاقير، وعرفها العامة والأمراء⁽³⁾، والأديبة أم الحسين بنت أحمد الطنجاني لوشه وقد وصفها ابن الخطيب قائلاً: «ثالثة حمدة وولادة، وفاضلة جمعت الأدب والمجادة، وتقلدت المحاسن قبل القلادة... ظهر في المعارف حراكها»⁽⁴⁾، وبرزت المرأة المغربية كذلك في ميدان التصوف من أمثال مؤمنة التلمسانية⁽⁵⁾.

ثانياً: مراكز الثقافة في الدول المرينية:

لم تكن مراكز الثقافة المغربية على عهد المرينيين في النصف الأول من القرن الثامن الهجري مقتصرة على مدينة دون أخرى كالعاصمة مثلاً. بل نمت وشملت المدن والأرياف، في السهول والجبال، حتى بات من السهل معرفة دور كل إقليم من أقاليمها بمساهمته في الحركة العلمية العامة ودور علمائه في ذلك.

والسمة التي يمكن للباحثين المحدثين مشاهدتها من خلال اطلاعهم على حركة التأليف وحلقات العلم والعلماء في تلك المدن، تخصص بعضها في علم من

(1) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 434، 522-529. كحالة: اعلام النساء 7/ 6.

(2) المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 355. ترجم له ابن الخطيب: أوصاف الناس، 110-112.

(3) مجهول: بلغة الأمنية، 187-188.

(4) أوصاف الناس، 111-112.

(5) ابن قنفذ: انس الفقير، 80-81.

العلوم، واشتهارها به، مما دفع بعض المؤرخين إلى تغليب صفتها العامة واتباعها واتجاهها العلمي على غيرها من المدن، وعلى هذا الأساس فمن الإنصاف أن نبين هذه الحقيقة العلمية لمدينة المغرب الأقصى إبان تلك الفترة ومن أبرز تلك المراكز:

1- فاس:

لم تزل هذه المدينة المغربية التي أنشأها الإمام إدريس الثاني، تلقى العناية من الدول التي قامت في المغرب الأقصى، وتوسع حتى باتت «دار فقه وعلم وصلاح ودين» وعاصمة للإدارة وبني بفرن ومعزاة وغيرهم من المماليك التي قامت⁽¹⁾.

أما في عصر المرابطين والموحدين، فعلى الرغم من اتخاذهما هؤلاء مراكش عاصمة لهم إلا أن فاس لم تكن بعيدة عن رعايتهم قبلت في عصرهما «من الغبطة والعمارة والرفاهية والدعة والأمن ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب»⁽²⁾.

وما زاد في مكانة فاس بهاء وعزة بناء جامعي القرويين والأندلس فيها، حيث كان بناء الأول على يد فاطمة بنت محمد بن عبد الله الفهري سنة 245 هـ - 859 م⁽³⁾، والثاني على يد أختها مريم بنت محمد بن عبد الله الفهري⁽⁴⁾.

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 32. الجزنائي: جني زهرة الأس، 4 وما بعدها. وقد أثنى عليها المراكشي في المعجب، 443-444، عندما قال: «ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا وموضع العلم منه، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة... وما زلت اسمع المشايخ يدعونها ببغداد المغرب»، وللمزيد ينظر: الفاسي: دور القرويين، الكتاب الذهبي، 114، وكذلك ابن عبد الله: الموسوعة المغربية، 327 وما بعدها.

(2) الجزنائي: جني زهرة الأس، 43-44.

(3) الجزنائي: جني زهرة الأس، 45-46. وللمزيد ينظر: ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 78-66.

(4) الجزنائي: جني زهرة الأس، 92. وللمزيد ينظر: ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 78-

والواقع ان بناء فاس الجديدة أو البيضاء من قبل السلطان يعقوب المريني كان دليلا جديدا على علو شأنها ومنزلتها في العصر المريني لاسيما وقد صارت عاصمة لهم⁽¹⁾.

وعلى أية حال، فإن الرعاية التي شملت مدينة فاس والتراث المتراكم الذي خلفته الدول التي قامت في بلاد المغرب الأقصى فيها حتى هذه الفترة وفي مختلف مظاهر الحياة كانت عاملا أساسيا في ذبوع صيتها، من بين مدن المغرب وفي اتجاه علمي خاص بها، حتى صارت مضربا للامثال في علومها بل قيل بحقها قديما «ان العلم ينبع من فاس، كما ينبع الماء من أرضها»⁽²⁾.

والأمر الذي يعنينا من كل ذلك، ما اشتهرت به خلال تلك الفترة، وان كان هذا الأمر يصدق على فاس خلال عصر المرينيين عموما، اما عرفت بدورها في الدراسات الدينية ومنها الفقهية التي كانت قد طبقت في شهرتها الأفاق، فقد نعتوا علماء فاس «بالمتميزين بمعرفة الفقه بالمغرب»⁽³⁾، ووصفها أبو القاسم التجيبي «بدار فقه المغرب»⁽⁴⁾، وسماها ابن أبي زرع بـ «دار فقه»⁽⁵⁾.

ومهما يكن من أمر، فإن غلبة الفقه على هذه المدينة يعزى إلى دور جامع القرويين وهمة علمائه في الدراسات الفقهية⁽⁶⁾.

(1) العمري: وصف المغرب، 292. وللمزيد ينظر: 293-298.

(2) الكتاني: فاس عاصمة الادارة، 52.

(3) ابن دراج: الامتاع والانتفاع، 130.

(4) البرنامج، نقلا عن المنوي: ورقات عن الحضارة، 201.

(5) الأنيس المطرب، 3.

(6) للتعرف على هذا الموضوع، ينظر: جامع القرويين في أماكن التعليم، وكذلك الدراسات الفقهية في العلوم.

والواقع ان شهرتها في الفقه كانت طاغية على اشتهاها بغيره من العلوم وان
اشتهر بعض علمائها في اتجاهات علمية متعددة، وتأكيدا لما نقوله توجه علماء
الأقطار الإسلامية المجاورة إليها للاستزادة والتعمق في فقه المذهب المالكي من
السودان⁽¹⁾، والأندلس⁽²⁾، وبلاد الشام⁽³⁾، والعراق⁽⁴⁾.

2- مراكش:

لم تكن المدينة التي بناها المرابطون سنة 454 هـ - 1062 م واتخذوها عاصمة
لهم⁽⁵⁾ والموحدون من بعدهم، بعيدة عن الرعاية المرينية، على الرغم من اتخاذهم
فاس عاصمة لهم، فقد أضافوا إلى بنائها مراكز للعلم، ومساجد للعبادة وقدموا لها
الخدمات الاجتماعية بما يتناسب ومكانتها من بين مدن المغرب الأقصى⁽⁶⁾.

والواقع ان مراكش لم تتأثر بالتحويلات السياسية التي طرأت على المغرب
الأقصى في عهد المرينيين، فكانت من المراكز الثقافية الحيوية على عهدهم وتميز
علمائها الذين حفظوا لها مكانتها، فتخصصت بفضل جهودهم بالعلوم العقلية
وخاصة في علمي الفلك والرياضيات.. ولعل في مقدمة هؤلاء العلماء عبد الرحمن
بن الهزميري (توفي 706 هـ - 1306 م)⁽⁷⁾، الذي بلغ مكانته ان درس على يديه
علمها ابن البناء المراكشي⁽⁸⁾.

(1) ينظر: علاقات الدولة المرينية في مملكة مالي.

(2) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 166-167، 1/ 305.

(3) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 296.

(4) ابن الأحرر: نثر فرائد الجمان، 222، 227.

(5) ابن عذارى: البيان المغرب، 4/ 19 وما بعدها.

(6) ينظر: الفصل الخامس، بناء المدارس.

(7) الكتاني: سلوة الأنفاس، 2/ 52.

(8) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 2/ 410.

وحسب المرء ان يعرف أيضاً انه ما من عالم اشتهر في العلوم العقلية إلا وقصد مراكش للدراسة على يد علمائها أمثال الابلي⁽¹⁾، وعبد الرحمن اللجاني⁽²⁾، وخاصة في علمي الفلك والرياضيات.

3- تلمسان:

لم يؤثر زوال سلطة آل زيان عند الاحتلال المؤقت لعاصمتهم تلمسان من قبل السلطان أبي الحسن على مكانتها العلمية، وأيضاً لم تغيب عن شمولها بالعناية في تأسيس وتجديد بعض المؤسسات الدينية والثقافية فيها، ولعل من الإنصاف في ذلك ان نشير إلى أن من بين مخلفات تلك العصور الأثرية آثار خالدة ترجع إلى الدولة المرينية في عهد أبي الحسن ابان ضم المغرب الأوسط إلى دولته⁽³⁾.

ولعل من أولى الجوانب التي اكتسبتها تلمسان في عهد السلطان أبي الحسن نماء حركتها العلمية انتقال جهابذة العلم في المغرب الأقصى إليها خلال استقرار السلطان أبي الحسن فيها⁽⁴⁾، وانضمام علمائها إلى مجلسه⁽⁵⁾، وقد نتج عن ذلك نشاط علمي، واختلاط كبير في نماء ثقافة علمائها الناشئين في ذلك العهد والتي كانت بطبيعة الحال حصيلة جهود علماء القطرين في آن واحد⁽⁶⁾.

(1) ابن خلدون: بغية الرواد، 57/1.

(2) ابن قنفذ: انس الفقير، 68.

(3) بنظر وصف تلمسان على عهد أبي الحسن في البلوى: تاج المشرق، 148-151، وللمزيد بنظر: ف 5- المدن - المساجد - المدارس.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 265.

(5) ابن خلدون: الرحلة، 48، 37. ابن مرزوق: المسند الصحيح، 260.

(6) ابن خلدون: الرحلة، 22، 62.

ومما يجدر ذكره ان مدينة تلمسان انتعشت من الناحية العلمية في تلك الفترة، حيث عاد بعض علمائها إليها بعد ان هربوا من سلطانها الزياني أبي حمو أمثال عبد الله الابل⁽¹⁾، وتقلد بعضهم وظائف مهمة في الدولة المرينية بسبب مكانتهم العلمية.

ومن خلال دراستنا للعلماء الذين اشتهروا في تلك الفترة، يتبين ان تلمسان لم تكن عاصمة للبلاد بحكم خصائصها الاقتصادية⁽²⁾، فحسب بل كانت أيضاً تمتلك زعامة مدن المغرب الأوسط في العلوم الدينية واللغوية، وبلغ تقدم علمائها في ميادين العلوم الدينية خاصة منزلة نافسوا فيها علماء المغرب الأقصى آنذاك. ويكفي ان تضم تلمسان بين جناحيها أساتذة كابني الإمام الذين قال عنهم ابن خلدون في بداية علاقاتهم بالسلطان أبي الحسن: «وأدنى منزلها وأشاد بتكريمهم، ورفع محلها على أهل طبقتها»⁽³⁾، ومحمد بن عبد الله بن عبد النور الذي «كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك»⁽⁴⁾، والعالم محمد بن النجار والخطيب ابن مرزوق الذائع الصيت⁽⁵⁾.

4- سببة:

ليس من قبيل المصادفة ان تتلون المدن المغربية على هذا العهد بفروع المعرفة، فقد كان ذلك نتيجة عوامل ذاتية وموضوعية، وسببة العربية⁽⁶⁾، من بين المدن

(1) ابن خلدون: الرحلة، 47، 50-52.

(2) ينظر: الفصل الأول تلمسان.

(3) الرحلة 47. ابن مرزوق: المسند الصحيح، 265-266.

(4) ابن خلدون: الرحلة، 46-47.

(5) المسند الصحيح، 267.

(6) احتلها البرتغاليون في سنة 818 هـ - 1415 م، ثم احتلها الإسبان ولا زالت خاضعة إلى استعمارهم.

المغربية التي تأثرت بظروف موقعها الجغرافي تأثيراً واضحاً في انتشار العلوم اللسانية فيها وخاصة بعلاقتها بالأندلس.

وسببته كما وصفها مؤلف الاستبصار «على ضفة البحر وهو بحر الرقاق والبحر قد أحاط بها شرقاً وجوفاً وقبلة، وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب»⁽¹⁾ وقد ساعدها هذا الموقع على الاتصال مع المسلمين في بلاد الأندلس، ولم تنزل على هذا الأساس نقطة انطلاق إلى العالم الإسلامي بالنسبة لهم يقول الإدريسي: «وينصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى»⁽²⁾، وعلى هذا الأساس، كانت ثقافة الأندلس رابحة في مدينة سبتة بسبب انتقال العلماء إليها، وذلك هو الأثر الثقافي الأندلسي الذي شمل المدن المغربية قاطبة⁽³⁾.

وعلى أية حال، فقد اشتهرت سبتة بمكانتها العلمية منذ الفتح العربي الإسلامي، قال المقرئ «وبقيت مدة آمنة من شرور الدنيا وأهوالها، واطلعت في سمائها نجومها، كانت علومها للمردة رجوعاً كميض.. وهؤلاء الشرفاء الذين لا يعتري في فضلهم ولا يرتاب، وبنى العز في المشاهير الذين تبرزوا في ميدان السبق على الخاصة والجمهير، وحازوا سياسة الدين والدنيا، وفازوا بالمكانة السامية والمرتبة العليا وغيرهم ممن لا يحصى كثرة»⁽⁴⁾.

أما فيما يتعلق بالعلوم التي عرف بها علماءها، فقد اشتهروا بعلوم العربية، ويكفي أن شهرتها وصلت إلى العهد الذي يصفها فيه ابن الخطيب قائلاً: «بصرة

(1) مجهول:

(2) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: ملحق في كتاب اختصار الأخبار، 63.

(3) ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، 37. ابن تاووت: الوافي بأدب المغرب العربي، 2/ 463.

(4) أزهار الرياض، 1/ 45.

علوم اللسان.. وخزانة كتب العلوم»⁽¹⁾، ويكفي في هذا العهد انها اشتملت على الكثير من المتصلعين باللغة العربية أمثال محمد بن أحمد الشريف الحسيني السبتي⁽²⁾، وأبي عبد الله بن عبد المنعم الصنهاجي السبتي وابن هاني اللخمي⁽³⁾، والشاعر عبد الله بن خميس الأنصاري صاحب الاعلام⁽⁴⁾ الذي ذاع صيته في المشرق⁽⁵⁾.

ولم يكتف السبتيون بعلو شأنهم في علوم العربية بل أتقنوا صناعة الطب وعرفوا بها أيضا⁽⁶⁾.

5- مكناس:

تعد مدينة مكناس من المراكز الثقافية المتميزة في هذا العهد، والواقع ان هذه المدينة القريبة من العاصمة فاس كانت مصدرا لاغناء الحركة العلمية في فاس وكان ذلك سببا في طغيان شهرة فاس عليها.

تمتعت المدينة على عصر المرينيين برعاية متميزة وعلى وجه الخصوص على عهد السلطان أبي الحسن الذي أنحفها بمدرسة جميلة وزاويتين⁽⁷⁾، وصفها في هذا العهد ابن الخطيب قائلا: «كثرت قصادها من الفضلاء وزوارها، وبها المدارس والفقهاء التمكين بهمة وبهاء»⁽⁸⁾، ووصفها مؤلف «دوحة العهد والمكين في وزارة

(1) معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، 146. مشاهدات ابن الخطيب، 102.

(2) السيوطي: بغية الوعاة، 1/ 39.

(3) مجهول: بلغة الأمنية، 175.

(4) مجهول: بلغة الأمنية، 176.

(5) المقرئ: أزهار الرياض، 2/ 322-323.

(6) مجهول: بلغة الأمنية، 186.

(7) ابن غازي: الروض الممتون، 14.

(8) معيار الاختيار، 156-166.

بني العشرين»⁽¹⁾، قائلا: «ومكناسة دار علم وفهم، كان بها علماء فضلاء وأئمة نبلاء فقهاء، ويدور سافرة، لا تريد إلا الدار الآخرة»⁽²⁾.

اشتهرت مكناس في هذا العهد بالعلوم الفقهية والحديث، وقد أنجبت الكثير من العلماء وفي مقدمتهم محمد بن الصباغ الخزرجي المكناسي (توفي 749 هـ - 1348م) الذي كان (مبرزاً في المنقول والمعقول، وعارفاً بالحديث وبرجاله وإمامة في معرفة كتاب الموطأ وأقرانه)⁽³⁾، ويكفي أن تعرف أنه كتب على حديث «يا أبا عمير ما فعل الغير» أربعمائة فائدة⁽⁴⁾.

وعلى أية حال لم تتوقف المدن المغربية الأخرى عن دورها الثقافي، أمثال تازا التي حظيت بإنشاء مدرسة على عهد السلطان أبي الحسن، وكان لعلمائها مكانتهم في علوم اللغة العربية، فعرفوا «بأهل اللسان»⁽⁵⁾، ورفدت بقية المدن المغربية التي انضوت تحت لواء الدولة المرينية في تلك الفترة برجال ساهموا في تنشيط الحركة العلمية في مدنها وبرزوا فيها بعد في البلاد عموماً، وخاصة تلك المدن التي انشأ فيها السلطان أبو الحسن مدارس⁽⁶⁾، ولدت بلا شك في سكانها نشاطاً علمياً مضافاً، ولعل جانباً من ذلك ما يمثله تنوع مدن المغرب الأقصى بجملة من العلوم التي نشطت في تلك الفترة.

(1) هو محمد الغالي بن محمد المحسني العمراني اللجائي.

(2) ابن زيدان: إنحاف اعلام الناس، 1 / 238. وللمزيد ينظر، بوجندار: مقدمة الفتح، 20.

(3) ابن خلدون: الرحلة، 46.

(4) ابن زيدان: إنحاف اعلام الناس، 3 / 581.

(5) المقرئ: أزهار الرياض، 3 / 33.

(6) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 406.

الفصل الخامس النهضة العمرانية في المغرب

أولاً: فن العمارة المريني:

تميزت الفترة التي سبقت حكم الدولة المرينية وعلى وجه الخصوص في عصر الموحدين بازدهار فن العمارة بفضل سلاطينهم الذين تمكنوا من تحقيق أول وحدة سياسية عرفها شمال إفريقيا والأندلس⁽¹⁾، وكان ذلك سبباً في انتشار آثارهم المعمارية التي دلت على قيمة ما وصل اليه فنهم من روعة حتى قيل: «ان عصرهم يعد من اخصب عصور الفن الأندلسي وأكثرها تمثلاً في الوقت نفسه للطرز الوافدة من شرقي البحر المتوسط»⁽²⁾.

وبعد انهيار الموحدين اعتلى المرينيون عرش المغرب الأقصى ليتمكنوا من تطوير هذا الفن، ويرجع ذلك إلى عاملين أولهما: قدرتهم على الاتصال والتفاعل مع بني نصر ورثة الحضارة في الأندلس وثانيهما: تمكنهم من مواكبة روح العصر واستلهمهم معطيات الفكر العربي الإسلامي⁽³⁾، ولعل الاستقرار السياسي الذي تميزت به دولتهم منذ قيامها حتى منتصف القرن الثامن للهجرة كان وراء همتهم في اضافة ونشر مظاهر العمران على مدتهم وعلى حد قول ابن خلدون: «إن المدن العظيمة

(1) أعشى: نماذج من الفن المعماري، 3.

(2) بالباس: الفن المرابطي والموحدي، 13.

(3) ابن عبد الله: الفن المغربي، 1/ 254.

والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير... فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك حشر الفعلة من اقطارها وجمعت ايديهم على عملها⁽¹⁾، وزيادة في هذا الأمر فقد نمت لدى عامة الناس حاسة الذوق الفني الرفيع فاندفعوا إلى الاعتناء بطرز حياتهم ومساكنهم حتى بلغ قيمة الدار في فاس على عهدهم ألف دينار من الذهب لما احتواه على نقوش وزخارف⁽²⁾.

ان العمارة المرينية كانت تعبيراً حيويًا عن انشطنتهم السياسية والعسكرية والعلمية والدينية وكل جانب من هذه الجوانب يمكن أن تجد له شاهدا واضحا المعالم حاليا في المغرب الأقصى، يذكرك بهذه الدولة⁽³⁾، وعلاوة على ذلك فقد حافظوا على طراز الفن المغربي الأندلسي لأن ما أنتجوه في هذا المضمار يعد من أمهات آثاره لاسيما ان الأندلس كانت قد احتلت الجزء الأكبر منها وان غرناطة لم تزل منهمكة في أعمالها التنظيمية والدفاعية⁽⁴⁾.

أما فيما يتعلق بميزات فنتهم فالملاحظ أنهم ادخلوا على الفن الموحدى الترميق والتزويق مع الاحتفاظ ببساطته المعروفة، حيث أضافوا بعض التشكيلات الجميلة من خلال منشآتهم التي أقاموها والتي هي على حد تعبير الفاسي قد «نشرت على مبانيهم حلة من البهاء الممزوج بالركة والعذوبة فصارت بذلك آثارهم عرائس المدن المغربية»⁽⁵⁾، ويضيف آخر إلى أنهم انتقائيون وتجميعيون قاموا باستخدام الأشكال الوردية والهندسية معا⁽⁶⁾، وادخلوا أسلوب إكساء الجدران الداخلية بقطع

(1) المقدمة، 344.

(2) ابن خلدون / المقدمة، 408-409.

(3) نيراس - الفن المغربي: 61.

(4) تيراس: الفن المعماري في المساجد المغربية، 62.

(5) نشأة الدولة المرينية، 30.

(6) يقول محمد عبد العزيز مرزوق عن مسجد أبي مدين «ويتخلل في هذا المسجد الصغير جمال

الحزف من الزليج المزين بالأشكال الهندسية والتي مازالت سمة بارزة لفن العمارة المغربي حتى الوقت الحاضر، أما فيما يتعلق بدواخل الابنية فقد قاموا بتغطيتها بمواد الجص المزخرف والخشب المحفور⁽¹⁾، وأخيرا فإن عصرهم يمثل إغالا في التوريق والتسطير والنقش⁽²⁾.

إن الفنان المعماري في عصر الدولة المرينية لم يكن همه البحث عن القوة والانطلاق بقدر ما كان يجتهد من أجل ان يحصل على اناقة أكثر هدوءا، فقد راعوا في تصاميم المنشآت الدينية دقة النسب والتجانس ما بين حجم البناء والفراغ، اما القباب فقد كشفت على انهم كانوا يمتلكون معماريين حقيقيين وهؤلاء لم يتركوا في تصاميمهم اشياء للمصادفة، فهم كانوا يعالجون منشاتهم الفنية بقدر متساو من الصراحة والسهولة والترتيب الصعب بين الأحجام غير المتساوية⁽³⁾.

من خلال ذلك يتبين ان العصر المريني كان حافلا بالإنجازات العمرانية وهو يمثل «ازهى عصور الفن الإسلامي في المغرب الأقصى»⁽⁴⁾ ولسنا بصدد دراسة منجزات الدولة المرينية على صعيد الحركة العمرانية بقدر ما أردنا ان نشير إلى طبيعة العصر نفسه كي يتسنى لنا دراسة الآثار العمرانية التي قامت في عهد السلطان أبي الحسن المريني والذي وصفه الناصري قائلا: «أضخمهم ملكا وأبعدهم صيتا

الزخرفة الهندسية المغربية وجمال الزخرفة النباتية وروعة الخيط الكوفي حيث نقرا عبارة «الحمد لله على نعمائه» قد نقشت فوق أرضية غنية بالزخارف النباتية الجميلة». الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، 90.

(1) Arker Richard: Islamic Monuments in Morocco, P 26.

(2) ابن عبد الله: شفشاون وآثارها المعمارية عبر التاريخ، 31.

(3) تيراس: الفن المعماري، 63.

(4) مرزوق: الفنون الزخرفية الإسلامية، 89.

واعظمهم ابهة واكثرهم اثارا بالمغربين والأندلس»⁽¹⁾. بل وقيل ان عصره يمثل «ذروة المجد والقوة والحضارة التي استطاع ان يصل إليها المرينيون»⁽²⁾.

ثانياً: المدارس:

شهدت المدن المرنية اهتماماً متزايداً على صعيد الاكثار من بناء المدارس، واكتسب عصر المرينيون أهمية في هذا الشأن مما حدا بأحد الباحثين المحدثين إلى تسميتهم «بعصر بناء المدارس»⁽³⁾، ومما يزيدهم مكانة أيضاً ان بناء المدارس جاء على ايدي الملوك لا الوزراء كما كان يحدث في المشرق الإسلامي.

وكانت المدارس التي انشئت في العصر المريني تعد بمثابة مساكن للطلبة ومراكز لدراساتهم وكانت بعض المدارس نفسها تحتوي على مسجد صغير بمحاربه ومنارته لاداء الفرائض الدينية⁽⁴⁾. ومن هنا كانت طبيعة الحياة الدينية قد فرضت في الوقت نفسه تصميماً واضحاً ينسجم ومقتضيات اداء الشعائر الدينية، لذلك وعلى سبيل المثال، لم تكن ثمة حاجة إلى أكثر من قاعة واحدة يدرس فيها المذهب المالكي من شتى جوانبه⁽⁵⁾، على عكس مدارس المشرق التي كانت تحتاج إلى قاعات أخرى لبقية المذاهب⁽⁶⁾.

وتصميم المدرسة المرينية، يعتمد على توفير لسكنى الطلبة، اما قاعاتها المبنية على شكل مربع أو مستطيل والمقامة على أحد الضلعين الأصغر من المحراب، فقد خصصت للدرس وأحياناً كانت تستخدم للصلاة، أما حوض الماء المخصص

(1) الاستقصا، 3/ 118 .

(2) إسماعيل: تاريخ شالة، 295 .

(3) إسماعيل: تاريخ شالة، 302 وما بعدها .

(4) ابن عبد الله: الفن المغربي، 254-255 .

(5) مرزوق: الفن الإسلامي تاريخه، 32 .

(6) عبد الجواد: تاريخ العمارة، 2/ 332 .

للوضوء فيتوسط صحن المدرسة المكشوف عادة، وفضلاً عن ذلك فقد اتصلت بعض المدارس بجوامع مجاورة لها⁽¹⁾.

وعلى أية حال فقد أسس السلطان يعقوب بن عبد الحق أول مدرسة في سنة 675هـ - 1276م، وعرفت بمدرسة الحلقاويين أو الصفارين وذلك - لقربها من سوق هذه المهنة⁽²⁾، وسار على هذا النهج السلاطين الذين تعاقبوا على حكم الدولة المرينية، فبنيت أيضاً مدرسة المدينة البيضاء التي شيدها السلطان أبو سعيد عثمان بن الحق في سنة 720هـ - 1320م⁽³⁾، ومدرسة العطارين الواقعة على مقربة من جامع القرويين والتي شيدها في شعبان سنة 723هـ - آب 1323م، ونعتها ابن أبي زرع بقوله: «آية من الدهر لم بين مثلها ملك قبله»⁽⁴⁾.

وعهد السلطان أبي الحسن يمثل مرحلة ازدهار في بناء المدارس، فقد أقامها في معظم مدن المغرب الأقصى والأوسط فأنشأ بتازا ومكناسة وسلا وطنجة وسبتة وانفا وازمور وآسفي واغمات ومراكش والقصر الكبير والعباد بتلمسان وكانت مدارسها: «مختلفة الأوضاع بحسب اخلاف المدن... وكان قد اشتمل على المباني العجيبة والصنائع الغربية والمصانع العديدة والاحتفال في البناء والنقش والجص والفرش على اختلاف انواعه من الزليجي البديع والرخام المجزع والخشب المحكم النقش والمياه، ما ينضم إلى ذلك من الاحباس التي تقام بها ويحفظ بها الوضع، مما يصلح به ويجرى في المرتبات على الطلبة والعونة والقيم والبواب والمؤذن والامام

(1) كونل: الفن الإسلامي، 123.

(2) الجزنائي: جنبي زهرة الاس، 81.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 411-412.

(4) الأنيس المطرب، 412-1413 الناصري: الاستقصا، 3/ 112.

والناظر والشهود والخدام... هذا مع ما حبس في جلها من اطلاق الكتب النفسية والمصنفات المقيمة⁽¹⁾.

وكان من أبرز المدارس التي شيدها السلطان أبو الحسن والتي عدت الآثار الرائعة ليس على صعيد عهده فحسب بل على طول العصر المريني بصورة عامة مايلي:

1- مدرسة الصهرريج:

الواقعة غربي جامع الأندلس فاس أسسها السلطان أبو الحسن في سنة 721هـ - 1321م في عهد ولايته، وقيل انه بنى حولها سقاية ودار وضوء وفندقا لسكنى الطلبة كما جلب إليها الماء من عين خارج باب الحديد⁽²⁾، وكان السلطان قد وجه عنايته بإنشائها فبلغت تكاليفها ما يزيد على مائة ألف دينار⁽³⁾.

ويتكون فناءها من جناحين حيث بيوت الطلبة، ودار الوضوء، اما القاعة المخصصة للدرس والعبادة، فتحتوي من جهة المحراب على الخزائن التي كانت توضع فيها الكتب التي وهبت للمدرسة، وهي تنفذ إلى الفناء بثلاثة منافذ، وتتميز هذه المدرسة بامتلاكها طابقا علويا ذا عدد من حجرات الطلاب، وتحتوي هذه الحجرات على نوافذ تطل على ساحة المدرسة⁽⁴⁾.

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 406-407.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 412.

(3) الناصري: الاستقصا، 3/ 11-112. غنيمه: تاريخ الجامعات الإسلامية، 11.

(4) التازي: جامع القرويين 2/ 362، ويضيف أيضاً أن هذه المدرسة تسمى أيضاً بالمدرسة،

بينما المعروف ان الكبرى هي مدرسة الوادي ينظر ابن مرزوق: المسند الصحيح، 406.

كما عرفت أيضاً باسم مدرسة الأندلس⁽¹⁾. وحملت أيضاً في الحوالات الوقفية اسم مدرسة اشتيخن باسم الزنقة القديم⁽²⁾، وبعد ترميمها حالياً شهادة للمغاربة المعاصرين لنا في قدرتهم على تقليد النماذج القديمة، حيث تطالعنا قدرة المربين الفنية في ترصيعها بالزليج واستخدام الخشب المحفور الذي يحتوي على أشكال زهرية وهندسية كما من خلالها كؤوس الورود بتقواعدها المدببة البديعة التصميم، ولعل من أبرز ما يبين ناظرها اللوائح الخشبية التي تتقابل في زوايا المدخل المؤدي إلى قاعة الصلاة⁽³⁾.

وأخيراً فقد ذكر ابن سودة المري في معرض حديثه عنها ان بعضها من المغاربة ألف كتاباً بعنوان «التبريج في بناء مدرسة الصهريج» وهو من رجال القرن الثامن الهجري الذين وقفوا على بناء المدرسة، ورتبه على عشرة فصول⁽⁴⁾.

2- المدرسة المصباحية:

تقع قرب جامع القرويين في فاس، أسسها السلطان أبو الحسن في سنة 745هـ - 1344م واقترنت باسم أول فقيه تولى التدريس فيها وهو مصباح بن عبدالله الباصولتي المعروف بابي الضياء المتوفى سنة 750هـ - 1349م⁽⁵⁾، كما عرفت أيضاً بمدرسة الرخام⁽⁶⁾، والخصبة⁽⁷⁾.

(1) المتوني: ورقات عن الحضارة المغربية 197.

(2) التازي: جامع القرويين، 2/ 362.

(3) Parker , P.144.

(4) دليل مؤرخ المغرب، 1/ 40-41.

(5) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 336. الكتاني: سلوة الانقاس 2/ 56.

(6) ابن القاضي: جذوة الاقتباس، 1/ 46.

(7) التازي: جامع القرويين، 2/ 359.

وكان السلطان أبو الحسن قد جلب إليها في سنة 725هـ - 1324م بيلة من المرمر الأبيض حيث يقدر وزنها بمائة قنطار وثلاثة وأربعين قنطاراً نقلها من مدينة المرية بالأندلس عن طريق البحر، ثم إلى العرائش، وقصر عبد الكريم، ثم إلى ضواحي فاس، حيث حملت على عجالات، تجرها القبائل إلى أن وصلت إلى مدرسة الصهريج ثم حولت بعد أعوام إليها، وهي الآن في وسط صحنها⁽¹⁾، ومع تقدم الزمن اشتملت المدرسة على (117) غرفة، كما اشتملت على ثلاث طبقات زيادة على السفلى ولها بابان الرئيسيان منها يواجه باب ساقية العين من جامع القرويين⁽²⁾، وعلى يسار الداخل إلى المدرسة طريق إلى دار الوضوء، كما يوجد مسجد صغير له محراب في وسط الدرج صار في وقت ما مركزاً لقاضي القضاة، أما الطابق الأرضي فيحتوي على عدد من بيوت الطلبة كما يوجد أمام المدخل باب قبة الدرس والصلاة، وتتوسطها سارية من رخام، أما القاعة فلا تشتمل على محراب⁽³⁾.

3- مدرسة الوادي:

تقع بالقرب من جامع الأندلس في فاس، وعلى الرغم من قلة المصادر التي تحدثت عنها، بسبب اختفاء معالمها، فقد ورد ذكرها عند ابن مرزوق حيث أشار إليها قائلاً: «ثم انشأ المدرسة الكبرى، مدرسة الوادي، وهي التي يشق في وسطها الوادي الأعظم بالعدوة»⁽⁴⁾.

(1) الجزناني: جني زهرة الآس، 37-38.

(2) حركات: المغرب عبر التاريخ، 2/158.

(3) التازي: جامع القرويين، 2/359.

(4) المسند الصحيح، 406.

ويذكر ان مدرسة الوادي كانت تضم على حد قول التازي سبعمائة استاذ وان كان هذا الرقم مبالغ فيه، وذلك لانها لم تكن أكثر أهمية من غيرها من المدارس، ولم يرد أيضاً إشارة إلى عدد الاساتذة فيهم، ويضيف التازي إلى أن بيوتها لا تعطي إلا لمن حفظ جميع المختصر الحاجي⁽¹⁾.

وقد بنيت المدرسة في سنة 771هـ-1321م، وانها غير مدرسة الصهريج كما تؤيده الحوالات الحبسية التي تفرق بين أوقاف المدرستين⁽²⁾.

4- مدرسة السبعين:

تقع هذه المدرسة شرق مدرسة الصهريج ويعود تاريخ تأسيسها إلى سنة 721هـ-1321م واختصت بطلبة القراءات السبع، وكذلك عرفت بمدرسة التجويد، وسميت أيضاً بمدرسة الاساتيد، وكذلك بالمدرسة الصغرى⁽³⁾.

وهي عبارة عن ملحق بمدرسة الصهريج كما جاء على رخامة التحجيس، اما وصفها فهي لا تعدو ان تكون ساحة محاطة بربع واجهات مسقفة، كما يوجد فيها بعض الغرف، وتمتلك طابقاً علوياً، أما قاعة الدرس والعبادة فهي حجرة كبيرة وفي قبلتها قوس عوض عن محرابها⁽⁴⁾.

(1) جامع القرويين، 2/ 362-363، يضيف المنوي إلى أن المدرسة تحولت إلى مسجد على عهد السلطان العلوي محمد الرابع لوقوع حادث قتل فيها، فهدمت بيوتها، ثم بنيت لها صومعة 1295هـ-1878م. ورفات عن الحضارة المغربية، 199.

(2) التازي - جامع القرويين، 2/ 363، واعتقد المنوي ان المدرسة المصباحية هي مدرسة الوادي، وهذا غير صحيح معتمدا في ذلك على رواية الجزنائي التي فسرنا بشكل مختلف، ينظر ورفات عن الحضارة المغربية: 198، الجزنائي: جنى زهرة الأس، 38.

(3) المنوي: ورفات عن الحضارة المغربية، 198.

(4) التازي: جامع القرويين، 2/ 362.

5- مدرسة الطالعة بسلا:

ذكر أن الفراغ من بناء هذه المدرسة كان في سنة 742هـ-1341م⁽¹⁾، وهي غير بعيدة عن المسجد الأعظم في سلا، وصقها الناصري بقوله:

«وقد بناها على هيئة بديعة وصنعة رفيعة، وأودع جوانبها النقش وضروب التخریم ما يحیر البصر ويدهش الفكر ووقف عليها عدة أوقاف، رصع أسماءها بالنقش والأصابع على رخامة عظيمة ثم نصب الرخامة بالخائط الجوفي منها»⁽²⁾، وكانت ومازالت آية في الجمال جسدت الفن المريني من حيث التصميم والزخرفة، أما مدخلها فهو متقن البناء يعلوه قوس مدبب تحيطه اقواس أخرى دقيقة مزخرفة بالخطوط الإسلامية وبدلاً من الزخارف النباتية والوردية تزينه الخطوط الدائرية وفي داخل كل دائرة مثلث تملؤه الخطوط الهندسية للخط الإسلامي وتعلوه النقوش المحفورة ويغطيه سقف مصبوغ باللون الأخضر يرتكز على دعائم مصنوعة من خشب السدر، ويؤدي إلى المدخل الداخلي عدد من الدرج وإلى يمين الباب سلم يؤدي إلى طابقين علويين حيث توجد حجرات للدراسة تحيط بجوانب الفناء الثلاثة أما الجانب الرابع فمخصص لأداء الصلاة. أما أعمدة الجدار المحيط بالفناء فمزخرفة بالزليج كما تلاحظ على الأعمدة الرباعية الزوايا نقوشاً غربية، أما الجدران فمغطاة بأشكال مرينية تتألف من الخطوط الوردية والأشكال الهندسية، ولعل أجمل هذه الأشكال ما هو موجود على ناصية الخطابة، وسقوف الطابق الأرضي من الخشب المحفور بالأشكال الهندسية وفي الفناء الصغير المواجه لمنصة الخطابة تلاحظ أن السقف قد تآكل وقد تمت إعادة صبغه بنفس الألوان الأصلية أما سقف قاعة

(1) الدكالي: الانحاف الوجيز، ورقة 23 و24. ومائت في لوحة تجيس المدرسة نفسها والتي

تحمل تاريخ نقشها في سنة 742هـ-1341م، ينظر اسماعيل: دراسات جديدة في الفنون

الإسلامية، 260.

(2) الاستقصا، 3/175.

الصلاة المؤلفة من قمة رباعية الجوانب فحديثة العهد غير أن المحراب قديم، وفي مقابل قاعة الصلاة يوجد مستطيل من الخطوط والزخارف بالخط النسخي وبإداة المرمر الملون بالأخضر في قاعدته، ويحيط هذا المستطيل إطار منقوش بالخط الكوفي في أعلاه أما في الطابق العلوي فنجد غرف الطلاب التي تنعدم فيها النوافذ وعلى كل حال فإن المدرسة تعد بأكملها نموذجا للفن المريني المتميز بالمبالغة المقرطة بالزخرفة والنقوش⁽¹⁾.

6- المدرسة الجديدة في مكناس:

وتعرف بالبوعنانية نسبة إلى أبي عنان ولد ابن الحسن وذكر ابن مرزوق أن السلطان أبا الحسن أنشأ في مدينة مكناسة مدرسة⁽²⁾، وأشار ابن زيدان إلى تأكيد بنائها من قبل أبي الحسن فقال «والحال إنما أنشأها والده أبو الحسن» وقد استند في ذلك إلى أمور ثلاثة أولها ما جاء على لسان ابن غازي في ذكر هذه المدرسة وثانيا بناؤها على يد قاضيه ابن أبي النعمر وثالثاً الزمن الذي بنيت فيه والذي يصادف حكم أبي الحسن وليس حكم ابنه وقد ورد ذكر إنشائها في البيت السابع من المقطعة المنقوشة على يمين وشمال المحراب⁽³⁾. ولا يفوتنا أيضاً ما ذكره ابن غازي عندما حضر أبو الحسن وأحضرت أمامه أرقام تكاليف البناء حيث كان جالسا على صهريجها فقال البيت المشهور:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما قرت به العين ثمن⁽⁴⁾

(1) Parker, P. 95 - 97.

(2) المسند الصحيح، 406.

(3) إتحاف اعلام الناس، 1/ 122-123.

(4) الروض المختون، ورقة 15؛ والمقري: نفح الطيب، 4/ 214، الناصري: الاستقصا، 3/

ويوجد في طابقي المدرسة أربعين حجرة حول فناء تحيطه الأقواس، وتفصل الممرات عن هذه الأقواس لوحات خشبية «مشبكات خشبية» أما قاعة الصلاة فتقع على الجهة اليمنى من مدخل الفناء، وتترك المدرسة انطباعاً مثيراً للدهشة لدى المشاهد وذلك بسبب النقوش الهائلة فالرواق المؤدي إلى قاعة الصلاة مزين بالزليج والقرميد المنقوش والزخارف، في حين يتميز المحراب الموجود داخل القاعة بزخارف من الخط الإسلامي⁽¹⁾.

7- المدرسة الحديدية بسبتة:

ذكر أن السلطان أبا الحسن أنشأ في مدينة سبتة مدرسة وكانت على قول البعض «غاية في الجمال»⁽²⁾، غير أن المصادر التي تحدثت عنها ووقعت بين أيدينا قليلة، وخير من يشير إلى هذه المدرسة مؤلف «اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار» فقد وصفها بقوله «العظيمة المتسعة الزوايا ذات الصنائع العجيبة وأعمدة الرخام والواحة المتعددة الغالية الثمن... الدالة على شياخة الملك وعلو المقدار»⁽³⁾، وأضاف لنا وصفاً دقيقاً لمبضآتها فقال «وتحتوي على بيوت ثمانية ومطهرة كبيرة وفي كل منها نقير من الرخام يصب فيها ميزاب من النحاس، وفرش الجميع الواح منحوتة من الصخر، وبوسطها صهريج مفروش بالزليج الملون، وقبتها مونقة ومن بعض صنائعها نور البابونج يخاله الناظر إليه خلقة من أحكام الصناعة، ويجلب الماء إلى ذلك كله بالدواليب»⁽⁴⁾.

(1) يقع ريتشارد باكر على الرغم من مشاهدته لها بنفس الخطأ فيقول أن الذي بناها هو أبو عنان على الرغم من أنه يشير إلى سنة 745 هـ - 1345 م، وهذه هي فترة حكم أبي الحسن وليست ولده، ينظر Parker, P. 108 :

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 406.

(3) الأنصاري، 28.

(4) الأنصاري، 41.

ومن الأساتذة الذين درسوا فيها آنذاك أبو عبدالله بن هارون المتوفى سنة 750 هـ - 1349م والقاضي أبو محمد الزكندري وأبو عبدالله عامر الأنصاري⁽¹⁾.

8- المدرسة العظمى بمراكش:

تعد هذه المدرسة أثرا معماريا خالدا في مدينة مراكش، وهي تقع بجوار جامع ابن يوسف، ذكرها ابن مرزوق بقوله: «فمدرسة سبته غاية، وأعجب منها مدرسة مراكش»⁽²⁾ وأضاف الناصري «من وقف على هذه المدرسة وتأمل تنجيدها وتنميقها قدر هذا السلطان وعلم عظم همته ومحبة للعلم وأهله»⁽³⁾، وما زالت هذه المدرسة تعد من الآثار المهمة في مراكش، سبق أن ذكرها ابن بطوطة عند مروره في مراكش فقال: «وبمراكش المدرسة العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة»⁽⁴⁾، حيث تحتوي على مائة غرفة لسكنى الطلبة⁽⁵⁾، على أنه من المفيد أن نذكر أن هذه المدرسة كانت تعرف قديما بالمربنية ثم سميت باليوسفية⁽⁶⁾. وذكر أن المولى عبدالله أمر بتجديد بنائها⁽⁷⁾. وعلى أية حال فهي ما زالت واحدة من أجمل المدارس الباقية في الوقت الحاضر⁽⁸⁾.

9- مدرسة تازا:

جاء في شأن هذه المدرسة على لسان ابن مرزوق ما نصه: «وانشأ بمدينة تازا

(1) مجهول: بلغة الأمنية، 176، 178، 179.

(2) المسند الصحيح، 406.

(3) الاستقصا، 3 / 175.

(4) تحفة النظار

(5) ابن عبدالله: الفن المغربي، 262.

(6) ابن المؤقت: السعادة الأبدية، 10.

(7) الافراي: نزهة الحادي، 51. الناصري: الاستقصا، 5 / 39.

(8) Parker, P. 56-58.

قديماً مدرستها الحسنة⁽¹⁾، وتدل الكتابة التي وردت على رخامة الوقف الخاصة بمدرسة الصهريرج أنها بنيت أيام ولايته للعهد⁽²⁾، وقيل أنها بنيت في سنة 721 هـ - 1321 م⁽³⁾.

10- مدرسة ضريح أبي مدين:

قام السلطان أبو الحسن بيناء هذه المدرسة بجانب المسجد أي في منطقة العباد من تلمسان في سنة 747 هـ - 1346 م⁽⁴⁾.

وتعد من الآثار المهمة التي بقيت، وأول ما يطالعك بابها الذي احتفظ بزخرفته الأجرية المبرقة وبطنف قائم على مناضد مزخرفة صغيرة ومزدوجة، يؤدي إلى ساحة مربعة تقريباً تفتح عليها غرف صغيرة لسكنى الطلاب. حيث تجدد باباً ينقلك من الساحة إلى قاعة الدرس والصلاة، زالت معالم زخرفتها ولم تحتفظ إلا بالقليل منها، ومتحف تلمسان حالياً يحتفظ منها بقطعتين⁽⁵⁾.

ثالثاً: المساجد:

لم يدخر المربونيون جهداً في رعاية الجانب الديني، ويظهر ذلك منذ قيام دولتهم من خلال نشاطاتهم المختلفة الأوجه، ففي الوقت الذي دأب سلاطينهم فيه على استنساخ المصحف الشريف وإهدائه إلى الأماكن الدينية المقدسة في المشرق. توسع بعضهم بالاحتفالات الدينية بمناسبة المولد النبوي الشريف، وأسس له تقاليداً الرسمية والشعبية في المغرب الأقصى، كما أولوا الصلحاء والصوفية اهتماماً كبيراً، وشجعوا

(1) المسند الصحيح، 4-6.

(2) المنوني: ورقات عن الحضارة المغربية، 199.

(3) Parker, P. 155.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 406. حركات: المغرب عبر التاريخ، 2/ 159.

(5) وزارة الثقافة: متاحف الجزائر، صور من الماضي، 196.

الدراسات الدينية وكرموا الفقهاء والقضاة، أما جهادهم في بلاد الأندلس فقد كان مظهرها واضحا لسياسة دولتهم في وجه مطامع الممالك النصرانية التي كانت امتدادا طبيعيا للحروب الصليبية التي سبق وإن اجتاحت اجزاء مهمة من الوطن العربي⁽¹⁾.

أما المساجد، فقد لقيت رعاية متزايدة من قبل سلاطينهم، ولعل فاتحة منجزاتهم في هذا المضمار، بناء جامع فاس الجديد الذي شيده السلطان يعقوب بن عبد الحق في سنة 677هـ - 1278م، وأنفق عليه الأموال الطائلة، حتى قيل إن الثريا التي علقت فيه كانت زنتها تسعة قناطير وخمسة عشر رطلا، وعدد كؤوسها مئة وثمانون كأسا⁽²⁾.

ويمثل عهد السلطان أبي الحسن مرحلة مزدهرة لهذه المنشآت الدينية المهمة، إذ أن آثاره في هذا الميدان كانت كثيرة بحيث شملت معظم المدن المغربية ومنها فاس وسبتة وطنجة وسلا وشالة وتازا ومكناسة ومراكش وتلمسان⁽³⁾.

ومن بين هذه المساجد التي ما زالت تحتفظ بمعالمها وترجع إلى عهده هي:

1- مسجد أبي مدين في العباد:

شيده السلطان في سنة 740 هـ - 1339م بجانب ضريح أبي مدين⁽⁴⁾، ويذكر أن السلطان أبو الحسن كان قد خصص أبا عبدالله محمد بن محمد بن أبي

(1) حركات: الحياة الدينية في العهد المريني، 209.

(2) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 162.

(3) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 401 - 402.

(4) شعيب بن حسين الأندلسي: ولد قرب قرية صغيرة في اشبيلية ثم درس وتفقه بالاخيرة، وانتقل إلى فاس، ثم مال إلى الزهد والتصوف، فحج وساح وتعب، حتى توفى في قرية العباد سنة 594هـ - 1197م وما زال مرقده يعد من أجل المراقدين والذي يحظى بمكانة دينية مهمة. ترجم له ابن قنفذ: انس الفقير: 104 ابن مريم: البستان، 108-114. ابن منصور- اعلام المغرب العربي، 2/ 15-19.

بكر بن مرزوق ووزيره ابن مرزوق للأشراف على بنائه، وقدم الأخير وصفا له حيث قال: «اشتمل على الوضع الغريب، وهو أن سقفه كلها أشكال منضبطة بخواتم وصناعات نجارة كل جهة تخالف الجهة الأخرى في الوضع قد رقت على نحو ما يرقم عليه أشكال النجارة... هي كلها مبنية بالآجر والفضة واشتمل على المنبر العجيب، المؤلف من الصندل والعاج والابنوس المذهب... وأما الباب الجوفي الذي يفتح على المدرج الذي ينزل فيه إلى قبل قبر الشيخ... وإلى الشارع وهو باب النحاس، المشتمل على مصراعين، كل مصراع منهما مصفح بالنحاس المخرم، المنقوش بالخواتم المستوفاة المشتركة العمل وتخريمه على أشكال من نحاس ملونة... على مدرجة قبة، من عمل المقربص، غريبة الشكل، قليلة المثل. وصومعته كذلك في غاية الحسن والانتقان، كل جهة من جهاتها الأربع تخالف الأخرى في النوع والاحكام»⁽¹⁾، وما زالت معالم المسجد تلفت نظر الزوار: المدخل وبابه البرونزي، المحراب والقبة والسقوف، زخرفة الحيطان والأقواس والمثدنة⁽²⁾، حيث تجدد فيه «خمسة أجنحة بالعمق، ثلاثة منها تفتح على الصحن والاثنتان الآخران يعتدان بشكل أروقة جانبية وتحمل المصطبة في مركزها القبة التي تسبق المحراب وهي مغطاة بسطح بشكل جملون ويقع المدخل الرئيسي في محور الواجهة»⁽³⁾.

أما روضة المسجد التي بناها أبو الحسن فقد كانت على حد تعبير مؤنس عملا معماريا بديعا رغم صغر حجمها، فأنت تدخل إليها من بوابة أندلسية تظللها شمساة مغطاة بالقرميد ثم تهبط السلام المزينة بالزليج وتنتهي إلى مكان القبر في قاعة مزينة كلها بالزجاج أيضا»⁽⁴⁾.

(1) المستند الصحيح، 403-404.

(2) وزارة: تلمسان، 99.

(3) مارسية: الفن الإسلامي، 211.

(4) المساجد، 238-239. للمزيد ينظر عنه: Julien, Pp. 199-200.

2- جامع القصبة بتلمسان:

وهو من المساجد التي بناها السلطان أبو الحسن في تلمسان وقد تميز بجمال شكله، وتنظيم رواقاته المتعددة، وصحنه وحسن ستاره، ووفرة مياهه، واتساع مساحته، وحلاه أيضاً بثريات فضية ونحاسية، وأخيراً كان لمزايا منبره سمة بارزة ميزته عن غيره من المنابر⁽¹⁾.

3- الجامع الكبير بتلمسان:

وشيد بناؤها الأصلي في عهد علي بن يوسف سنة 530 هـ - 1135م، ثم رمم في عهد عبد المؤمن الذي أراد أن ينسبه لنفسه⁽²⁾، وأشار ابن مرزوق إلى هذا الجامع بقوله: «ولا شك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها»⁽³⁾، ووصف أيضاً قبره بأنه «لم يعمل مثله في المعمورة»⁽⁴⁾، وعده مارسية تطورا ملحوظا في تخطيط المساجد الموحدية، ففيه تقابل ثلاثة عشر جناحا بالعمق مع ثلاثة أجنحة معترضة، وهذا التقابل يشكل ثلاثة مصليات حيث تنتهي الأجنحة المركزية الثلاثة بفراغ مربع بسقف هرمي أو قبة تسبق المحراب، وعلى امتداد كل الجدران الجانبية تمتد الأجنحة الثلاثة المتطرفة في الحرم حيث تؤطر الصحن المصمم على شكل مربع تماما⁽⁵⁾.

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 402.

(2) حركات: المغرب عبر التاريخ، 1/ 160.

(3) المسند الصحيح 403.

(4) المسند الصحيح، 402.

(5) الفن الإسلامي، 210-211. كحالة: الفنون الجميلة، 7. وللمزيد ينظر:

4- مساجد أخرى:

لم تتوقف اهتمامات أبي الحسن عند تلك المساجد، فانشأ في مراكش مسجد الشيخ محمد بن صالح في أثناء ولاية عهده في سنة 718 هـ-1318م، إضافة إلى صومعته الشهيرة كما أمر ببناء مسجد محمد الجزولي في سنة 715 هـ-1315م⁽¹⁾.

أما فاس فقد حظيت باهتمام متزايد من قبله فأمر ببناء مسجد الصفارين فيها وهو يعرف حالياً بالشرابليين ومسجد حلق النعام وكانا على حد تعبير ابن مرزوق «كل واحد منهما غاية في الكبر والضحامة، وصومعة كل واحد منهما غاية في الارتفاع والحسن»⁽²⁾، ويضيف باركر أن مسجد الحمراء من بنائه أيضاً وقد بناه في سنة 740 هـ-1339م.

وأمر ببناء الكثير من المساجد من بينها مسجد باب الحجاز وباب هنين وباب فاس، كما بنى في مدينة هنين أيضاً⁽³⁾، وعندما حضرت المنية والدته وهو محاصر تلمسان أمر ببناء مسجد في كل موضع يكون المبيت فيه من تلمسان إلى مقبرتهم في شالة⁽⁴⁾.

رابعاً: الزوايا:

اهتمت الدولة المرينية بوجه عام بالزوايا⁽⁵⁾، التي بدأت تنتشر في مدنهم، ولتمتعها بمنزلة دينية مقدسة وذلك لأنها غالباً ما كانت تؤسس قرب ضريح أحد

(1) ابن المؤقت: السعادة الأبدية، 8، 9، 52.

(2) المسند الصحيح، 401.

(3) Parker, pp. 132-149.

(4) ابن مرزوق: السند الصحيح، 403-431. للمزيد عن شالة «المقبرة الملكية للمرينيين» ينظر بو جندار: مقدمة الفتح، 31 وما بعدها. ينظر: إسماعيل: تاريخ شالة 310 وما بعدها.

(5) ويطلق عليها في المشرق الخوانق.

الأولياء المتصوفة الذين يتمتعون بمكانة في نفوس المغاربة⁽¹⁾. فصارت مع الزمن محلا لاستقبال الغرباء الذين يقصدون البلاد، بل انها صارت مساكن للمحتاجين والفقراء من سكان البلاد⁽²⁾، على ان هذه الزوايا أحيانا كانت مراكز لتدريس بعض العلوم الدينية أيضا⁽³⁾.

ومن آثار السلطان أبي الحسن البارزة في هذا المضمار وذاع صيتها في بلاد المغرب الأقصى الزاويتان القديمة والجديدة في مدينة مكناسة حيث بنى الأولى في عهد أبيه والثانية في عهده⁽⁴⁾، وقد وصفها ابن الخطيب بقوله: «ومثلت بازائها الزاوية القدمى المعدة للوارد، ذات البركة النامية، والمثذنة السامية والمرافق المتيسرة...تقابلها غربا الزاوية الحديثة المزينة برونق الشبية ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال»⁽⁵⁾.

وقد عرفت إحدى هاتين باسم زاوية القورجة، والأخرى بزاوية باب المشاوريين وهي التي تقع بدرب سيدي غريب بالقرب من ضريح سيدي سلامة⁽⁶⁾.
خامساً: المدن:

وحفل تراث الدولة المرينية قبل عهد السلطان أبي الحسن بإنشاء المدن، ولعل أبرز من قام بهذا العمل جده السلطان يعقوب بن عبد الحق عندما أمر ببناء المدينة

(1) ينظر الفصل الرابع، الزوايا.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 411.

(3) زكي: فنون الإسلام، 113. ابن عبد الله: الفن المغربي، 255.

(4) الناصري: الاستقصا، 3/ 176.

(5) نفاضة الجراب، 2/ 271-272. المقرئ: نفع الطبيب، 4/ 214.

(6) ابن غازي: الروض الممتون، ورقة 14 ظ. ابن زيدان: إنحاف اعلام الناس، 1/ 117، 120،

البيضاء «فاس الجديدة» وكذلك مدينة البنية في الجزيرة الخضراء⁽¹⁾، إضافة إلى بناء قصبة مكناسة⁽²⁾.

وأضاف ولده السلطان يوسف بن يعقوب عملاً آخر هو بناء قصبة تطوان في سنة 685 هـ - 1286 م من أجل تسهيل مهمة السيطرة والاستيلاء على سبتة⁽³⁾، ولعل من المفيد أن نذكر أن هذا العمل الذي قام به يوسف بن يعقوب كان أسلوباً عسكرياً اتبعه المرينيون في حصار المدن والسيطرة عليها⁽⁴⁾.

أما فيما يتعلق بالسلطان أبي الحسن، فقد اهتم ببناء المدن وكان يطلق عليها عادة «المنصورة»⁽⁵⁾، ولما كان بناء هذه المدن يقترن عادة بطابع الحياة العسكرية، فقد كان مصيرها معرض إلى الزوال، فلم يحالفها الحظ كبعض المنشآت الأخرى التي ما زالت باقية وذلك لتعرضها إلى التخريب والدمار من قبل أعداء الدولة المرينية كما حصل للمدينة التي بناها السلطان يوسف بن يعقوب غربي تلمسان حيث خربت على أيدي بني عموماتهم بني عبدالواد⁽⁶⁾.

أما المدن التي بناها السلطان أبو الحسن فهي:

1- المنصورة في تلمسان:

لما تطاول بنو عبد الواد كما أسلفنا على ممتلكات الدولة الحفصية سعى السلطان أبو الحسن وقبله والده إلى تحقيق الصلح والسلام بين الدولتين المتحاربتين،

(1) ابن الأحرر: روضة السرين، 19. الناصري: الاستقصا، 3/ 42.

(2) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 161 وما بعدها.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 392، اخطأ أبو جندار حيث أشار إلى أنها بنيت سنة 730 هـ بو جندار، مقدمة الفتح، 22.

(4) ابن خلدون: بغية الرواد، 1/ 141.

(5) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 447. ابن الخطيب: رقم الحلل، ورقة 287.

(6) الناصري: الاستقصا، 3/ 124.

وقدر لهذه المساعي الفشل، بسبب تعنت بني عبد الواد الذين ازدادوا ايذاً ومشاكسة، فأمر السلطان أبو الحسن بالتوجه إلى عاصمتهم «تلمسان» بقواته، وفرض حصاره عليها⁽¹⁾، وأمر ببناء مدينة على الغرب منها، أطلق عليها اسم المنصورة وهي في المنطقة التي أمر ببنائها عمه يوسف قبله⁽²⁾.

ومن المنشآت التي اشتملت عليها هذه المدينة- المعسكر- على حد تعبير مارسيه⁽³⁾، الجوامع والحمامات والقنادق، غير أننا لم نحظ بمعالم هذه المدينة لما أصابها من دمار وخراب بعد انسحاب المرينين عنها، وقد ذكرها الوزان بحديث عابر وربما تكون هذه المدينة قد هجرت تماماً فاكتفى قائلا: «... وبعد أربعين عاماً - أي من حصار السلطان يوسف بن يعقوب - بنى أبو الحسن مدينة على مسافة ميلين غربي تلمسان»⁽⁴⁾.

وبقيت من هذه المدينة آثار مهجورة كانت شاخصة في أواخر القرن التاسع عشر، لاسيما المسجد وقيل انها مدينة مستطيلة تبلغ 1300م طولاً وعرضها 750م، تحيط بأركانها أبراج، عرض جدارها أكثر من متر، وفي شمالها ستة ابواب، ويعتقد ان عدد ابوابها أيضاً ستة في الجانب المقابل، وما زالت بوابتها تعد إحدى أشكال البناء المغربي ورائعة من روائع فن العمارة⁽⁵⁾.

وعلى كل حال فإن الفترة المرينية في تلمسان التي استمرت ما يقارب إحدى عشر سنة اعطت المنصورة الآثار التذكارية التاريخية، ومن المفيد أن نذكر أن مهندساً فرنسيا يدعى «ديتوا» قام بأعمال الترميم في سنة (1289هـ-1872م) وقال: ان

(1) ينظر العلاقة مع بني عبد الواد في الفصل الاول.

(2) ابن خلدون: العبر، 7 / 207.

(3) الفن الإسلامي: 219.

(4) وصف إفريقيا: 389.

(5) Parker, P. 161.

كثيراً من الرخام الثمين قد انتهب وبيع في الاسواق، كما لا ننسى ان متحف تلمسان ومتاحف الجزائر ما تزال تحتفظ بأعمدة كثيرة وتيجان أعمدة⁽¹⁾، ويمكن مشاهدة بعض الآثار في هذه المتاحف عائدة إلى المنصورة ومن ضمنها الساعة الشمسية في متحف تلمسان⁽²⁾.

2- المنصورة في سبتة:

ومن آثار أبي الحسن أيضاً المنصورة في سبتة وكانت بمثابة المدينة - المعسكر، اقامها لتنظيم عملياته العسكرية وتجهيز قواته وارسالها إلى الأندلس عن طريق البحر، وعلى الرغم من ندرة المعلومات التي نمتلكها عنها، فقد ورد ذكرها في بعض المصادر⁽³⁾، فقد كانت مثل سابقتها تشتمل على منشآت معمارية كثيرة كالجوامع والحمامات والفنادق إضافة إلى قصره، وقد وصفها بعض المعاصرين بشيء من الإيجاز قائلاً: «ولم ير الراؤون مثلها ولا وصف الواصفون مثل وصفها»⁽⁴⁾.

سادساً: القصور:

اتسمت الحياة المرينية وبشكل خاص على عهد السلطان أبي الحسن بالرخاء، والاستقرار الداخلي، وكان هذا الأمر يعني إضافة إلى ما ذكره ابن خلدون حول طبيعة الفرد المغربي واهتماماته الذوقية في اختيار مسكنه⁽⁵⁾، حافزاً للدولة المرينية على بناء القصور الفخمة التي تليق بسلاطين الدولة على أقل تقدير لاسيما انهم ما تركوا جانباً في العمران إلا وطرقوه، يضاف إلى ذلك ان الفترة نفسها شهدت عملاً معمارياً

(1) وزارة الثقافة: تلمسان: 25.

(2) وزارة الثقافة: متاحف الجزائر، 98.

(3) الناصري: الاستقصا، 3/ 135.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 447.

(5) المقدمة: 408، 409.

كبيراً في هذا المضمار متمثلاً بقصور بني نصر «الحمراء»⁽¹⁾، ومن غير المعقول أن لا تكون هذه حافزاً لجيرانهم المرينيين.

إن هذا الميدان المعماري الذي طرقة المرينيون في القرن الثالث عشر - الثامن الهجري، لم ينل حظه في البقاء، باستثناء بعض الآثار القليلة والمعلومات التي يعثر عليها بين الحين والآخر وهي تعطينا فكرة عن هذا الجانب، وما شيده السلطان أبو الحسن في عهده الذي اتسم بحركة دؤوبة في العمران قد نال مما قلنا الشيء الكثير.

ومهما يكن من أمر، فقد وصف لنا ابن مرزوق الإمكانية الفنية والعلمية التي توفرت في عهد أبي الحسن، عندما عزم على بناء قصر في فترة قصيرة، وأراد أن يضمته كل ما تتسم به القصور من روعة وجمال، حيث أمر بجمع أرباب الصناعات من البنائين والتجارين والجباة والزليجين والرخامين والقنوين والدهانين والحدادين والصفارين، فحضروا بين يديه وقال لهم: «أريد داراً تشتمل على أربع قباب مختلفة ودويرتين متصلان بها منقوشة الجدران بالصناعات المختلفة» إلى غير ذلك من الأوصاف التي أرادها في قصره، ولما انقضت الفترة المحددة لذلك كان القصر في غاية الضخامة والجمال.

وعلى ذكر القصور التي ابتناها السلطان أبو الحسن يضيف ابن مرزوق عن قصري المنصورة في سبتة وتلمسان ما نصه: «وأما قصرها ومسكن الامام بها... فقد رأيت كثيراً ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق ومباني مصر والشام

(1) يرجع تاريخ بناء قصور بني نصر إلى مؤسس دولتهم محمد الأحمر عندما اختار مقره على تل «السيكة» فأقام البناء والأسوار والأبراج، ثم جاء محمد الثاني ليكمل عمل أبيه وتبع محمد الثالث فبنى المسجد الملكي، واستمرت الحمراء تخضع للتعديلات حتى جاء يوسف الأول ثم ابنه اللذان اكملها، فرحات: غرناطة في ظل بني الأحمر، 222. وايضاً ينظر مارسيه: الفن الإسلامي، 214 والصفحات التي تليها.

والمباني القديمة في الأندلس ومراكش، اجمعوا على ان الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره» وهو المعروف بالقصر السعيد⁽¹⁾.

يضاف إلى ذلك ما ورد ذكره عن دار الفتح والسبقة والمشور وهي من منجزات السلطان أبي الحسن في هذا المضمار، وقد أشير أيضاً إلى أنها قد خربت في فترة ليست بالبعيدة عن عهد السلطان أبي الحسن⁽²⁾، اما فيما يتعلق بدار الفتح التي شيدها في الرباط فقد عثر على موضعي حوضين للماء في مراكش كانا تابعين لهذا القصر الذي شيده في سنة 745هـ-1344م⁽³⁾ كما توصلت حفريات سنة 1303هـ-1885م إلى وجود قصر بالعباد أي قرب ضريح أبي مدين يحتوي على ثلاث مجموعات بتائية مرتبة حول ساحات، حفر في الساحة الكبرى والمستطيلة حوض صغير، وأحيطت هذه الساحة بأربع حجرات مطولة مغطاة بقنطرة نصف اسطوانية، ويتقدم الحجرتين اللتين تفتحان على الجهات الصغيرة رواق، ومن الساحة الثانية المحاطة بثلاث غرف ينطلق سلمان يؤدي الأول إلى الطابق الأول والثاني إلى الحمامات، اما الساحة الثالثة فهي مربعة ولا نجد فيها إلا غرفة واحدة⁽⁴⁾.

ومن الجدير بالذكر ان قصر المنصورة لم يبق منه غير السواري وتيجان الاعمدة المعروفة في متحف تلمسان، حيث وجد على احد تيجان الاعمدة نقش بحروف أندلسية على ضربين، وقد كتب على اوجه التاج الأربعة وثيقة تشيد قصر المنصورة من قبل أبي الحسن بما نصه: «أمر ببناء هذا المسكن السعيد، قصر النصر،

(1) المسند الصحيح، 401، 447-449. ابن عبد الله: مظاهر الحياة المغربية، 20 / 57.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 447.

(3) كوتل: الفن الإسلامي، 128.

(4) وزارة: متاحف الجزائر، 96، بن عبد الله: الفن المغربي، 26.

عبدالله علي، أمير المؤمنين، ابن مولانا أمير المؤمنين، أبي سعيد بن يعقوب بن عبد الحق، انتهى بناؤه في سنة 745هـ⁽¹⁾. 1344م.

سابعاً: المحارس والأبراج:

اهتم السلطان أبو الحسن بالاكتثار من المنشآت العسكرية الضرورية له بشقيها الهجومى والدفاعى، ولعل طبيعة المعارك التي خاضها دفعته إلى الاكتثار من هذه المحارس حتى قيل بأن ما أنشأه «لم يعهد مثله في عصر من الأعصار... وحسبك ان مدينة اسفي... إلى بلد الجزائر... أول بلاد إفريقية محارس ومناظر، إذا وقعت النيران في أعلاها تتصل في الليلة الواحدة أو في بعض الليلة، وذلك في مسافة تسير فيها القوافل نحو شهرين، وفي كل محرس منها رجال مرتبون، نظار وطلانغ، يكشفون البحر، فلا تظهر في البحر قطعة تقصد ساحل بلاد المسلمين، إلا والتنير يبدو في المحارس يتحذر أهل كل ساحل من السواحل ساحلهم فأمنت السواحل في أيامه السعيدة»⁽²⁾.

على أن أبرز الأعمال العمرانية في هذا المضمار ما أنشأه من أبراج منها برج الماء الذي شيده ببحر بسول من ساحل سبتة في مقدمة مرساها، إضافة إلى البرج الذي يلي منطقة المشحن آنذاك من المدينة نفسها⁽³⁾.

ولما تمكن من إعادة جبل طارق إلى نقوده، واسترجعه من أيدي القشتاليين في سنة 734هـ-1333م، أقام تحصينات عسكرية مهمة فيه، منها ما ذكره ابن بطوطة

(1) وزارة: متاحف الجزائر، 94.

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 398.

(3) ابن مرزوق: السند الصحيح، 398-399.

في أثناء رحلته بقوله: «فبنى المأثرة العظيمة بأعلى الحصن، وكانت قبل ذلك برجا صغيرا تهدم بأحجار المجانيق، فبناها مكانه»⁽¹⁾.

ثامناً: الأسوار:

ينسب إلى السلطان أبي الحسن في هذا المضمار الكثير من الأسوار التي أمر ببنائها أو إصلاح بعضها، ولعل أبرز ما ذكر عنه السور الذي قام بتشبيده في شالة وما زالت معالمه واضحة، فهو سور خماسي بني من مادة الجص وطلا باللون الأبيض وعليه عشرون برجا أما بوابته الرئيسية فيوجد إلى جانبها حوض شبه ثماني⁽²⁾.

وأنجز السلطان أبو الحسن بعد استرجاعه لجبل طارق السور الأعظم الممتد فيه من دار الصنعة إلى المقرمه⁽³⁾. وقد تحدث ابن مرزوق عن كيفية اتمامه بقوله: «فرأى... أن يحصن سفح جبل الفتح... بسور يحيطه به من كل جانب... فأخرج الأموال وعين العمال وتحير الثقات والأمناء... فاحاط بمجموعة وهو مقدار بامثال ذوات عدد سور ممشى وابرار، قد اتخذ فيها محارس ومساكن من البحر إلى البحر»⁽⁴⁾.

يضاف إلى ذلك قيامه بالإصلاحات والتحسينات على ثغور إفريقية، وعد له ذلك من الأعمال الجليلة التي قام بها في عاصمة الخفصيين بعد أن ضمها لدولته⁽⁵⁾.

ولعل من الضروري أن نشير إلى أنه قام بإنشاء الكثير من الآثار ضمن هذا المضمار كباب فاس في افراك سبتة، وقد صمم على غرار باب السبع⁽¹⁾، في العاصمة

(1) تحفة النظر، 666.

(2) يبلغ السور 262×985 قدم، أيضاً ينظر 117-119 Hogo, pp, 200, Julien :

(3) ابن بطوطة: تحفة النظر، 666.

(4) المسند الصحيح: 391-392.

(5) ابن خلدون: العبر، 7 / 279. الناصري: الاستقصا، 3 / 157.

فاس الجديدة⁽²⁾، يضاف إلى ذلك قيامه بإنجاز العديد من المنشآت في جزيرة رندة من معاقل محصنة وأبراج شامخة وزوايا وخانات وغيرها من المدن الأندلسية الأخرى التي كانت خاضعة لنفوذه⁽³⁾.

تاسعاً: دور الصناعة:

اهتم السلطان أبو الحسن ببناء المنشآت العسكرية البحرية وكانت دور الصناعة من بين المرافق التي حظيت باهتمام واضح من قبله، ذلك أن الأخطار النصرانية البحرية كانت متواصلة على ثغور الدولة المرينية من جهة البحر⁽⁴⁾، وعليه فقد أمر المختصين من أهل دولته ببناء دار الصناعة في جبل طارق⁽⁵⁾، مسخراً في ذلك مختلف الإمكانيات الضرورية لمواجهة الأخطار القادمة من جهة إسبانيا⁽⁶⁾. واهتم أيضاً بدور الصناعة في مدينة سلا⁽⁷⁾، إضافة إلى رعايته وتحسينه لدار الصناعة في سبتة⁽⁸⁾.

عاشرًا: القناطر والسقايات:

اهتمت الدولة المرينية بشؤون الأرض وعلى وجه الخصوص في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، وهو العهد الذي عد كما هو معروف فترة استقرار الدولة وانتعاشها، ويكفي أن تعرف في هذا المضمار ما فعله السلطان أبو الحسن حين أمر

(1) باب السبع: الواقع ما بين باب الدكاكين وباب السماكة من فاس الجديدة.

(2) الأنصاري: اختصار الأخبار، 45.

(3) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 393.

(4) ينظر الفصل الثاني، علاقته مع بني الأحمر.

(5) ابن بطوطة: تحفة النظار، 666.

(6) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 394.

(7) ابن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية، 59.

(8) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 119.

بتوزيع الاراضي على الايتام في سائر القبائل مقدار «محراث زوجين ومجباها في كل وطن بحسب خراجه وجبائه وفيه كفاية»⁽¹⁾.

ومما يفيد ان نذكر ان تحسين احوال البلاد لاسيما اهتمام الدولة بالجوانب الاقتصادية وفي مقدمتها الزراعة كان له ابلغ الأثر في تحقيق الرفاه الاقتصادي⁽²⁾، ويمكن ان تسجل ذلك على عهد أبي الحسن حين قال ابن بطوطة بعد عودته من رحلته الأولى «ودارهم المغرب صغيرة وفوائدها كثيرة، وإذا تأملت أسعاره مع أسعار ديار مصر والشام ظهر لك الحق في ذلك ولاح فضل بلاد المغرب...»⁽³⁾.

وقد سبق عهد أبي الحسن العديد من الإنجازات المربنية، فقد بنى جده يعقوب بن عبد الحق الكثير من القناطر بالطرقات وابرزها قنطرتا وادي النجاومارين⁽⁴⁾، والقنطرة الكبرى التي بناها والده أبو سعيد عثمان في سنة 725هـ- 1325م، والقنطرة التي تقع آخر سوق الصباغين في فاس سنة 726هـ- 1325م⁽⁵⁾.

ودأب السلطان أبو الحسن على الاكثار من بناء القناطر في مدن دولته وكان من أهمها قنطرة وادي ودات وبني بسيل والوادي، بداخل فاس وكذلك قنطرة

(1) أي ما قيمته 16 هكتار

(2) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 420.

(3) تحفة النظار، 657-658، كما يمكنك أيضاً ان ترى المقارنة التي وضعها على سبيل المثال آنذاك فيما يتعلق بالسلع والمتوجات الزراعية بين المغرب وبلاد مصر في الصفحة 658-659.

(4) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، 90.

(5) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، 414.

الرصيف وقنطرة وادي سطفسييف في تلمسان وكذلك قنطرة باب الجياد وسد سيرات وقنطرة الميناء⁽¹⁾.

ولعل آثار أبي الحسن لم تنحصر في هذا الميدان فحسب بل شملت أيضاً السقايات وقيل نقلا عن احدهم لابن مرزوق ما نصه «ما مررت في بلاد المغرب بسقاية ولا مصنع من المصانع التي يعسر فيها تناول المياه للشرب والوضوء، فسألت عنها إلا وجدت منها من انشاء السلطان»⁽²⁾، وقام أيضاً بتوفير المياه الصالحة للشرب وكذلك للوضوء داخل فاس بوجه خاص ومدن دولته على وجه العموم ومن اعماله في هذا المضمار على وجه التخصيص جلبه للماء إلى سلا من الموضع المعروف ببرج حمام الذي ذكره الوزان في رحلته وكان على شكل أحواض⁽³⁾، وسميت بسور الاقواس حيث وصفها الناصري بقوله: «وهذا السور مسوق من عيون البركة خارج مدينة سلا على أميال كثيرة ممتدا من القبلة إلى الجوف على أضخم بناء واحكمه، موزون سطحه بالميزان الهندسي ليتأتى جريا الماء فوقه على استواء ولذلك ينخفض إلى الأرض متى ارتفعت ويعلو عنها إذا انخفضت ويجري على متنه من الماء مقدار النهر الصغير في ساقية قد اتخذ له، ولما شارف البلد عظم ارتفاعه جدا لاجل انخفاض الأرض عنه، وكلما مر في سيره بطريق مسلوكة فتحت له في اقواس»⁽⁴⁾، كما جلب الماء في منشع الجلد وسويقة إسماعيل بتلمسان، إضافة إلى عمله في تونس

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 418.

(2) المسند الصحيح، 417.

(3) وصف إفريقيّا، 214.

(4) الاستقصا، 3/ 176. وحاليا في الطريق الواصل ما بين المدن الثلاث سلا والقنيطرة وطنجة، وتوجد بوابة مؤلفة من ثلاثة اقواس تعلوها قنطرة... وتند بقايا القنطرة إلى مسافة 2.5 كم من الشمال الشرقي من مدينة سلا إلى الغرب من باب الشفا إلى مسافة بضعة مئات من الأمتار إلى الشرق من الطريق المؤدي إلى القنيطرة: ينظر. Parker, P. 98 :

بعد ضمها إلى دولته منها إيصاله الماء إلى جامع الزيتونة⁽¹⁾ وكذلك إصلاحاته الأرواثية في مدينة مكناسة⁽²⁾.

ويبقى بعد كل ما ذكر من المنشآت والمآثر التي اهتم بإنشائها السلطان أبو الحسن منشآت العدل، حيث حرص على الاطلاع على القضايا التي تخص الجمهور والبت فيها⁽³⁾. وعرف عنه انه كان يجلس يومي الاثنين والخميس من كل اسبوع في المدينة التي يقيم فيها، وعلى هذا الاساس انشأ قبة العدل في منصوري تلمسان وسبته⁽⁴⁾.

أما الجانب الصحي، فقد عني به أيضاً، واهتم بامكانه، وعلى الرغم من انه لم يقم ببناء منشآت صحية، إلا ان ذلك لا يعني عدم الاهتمام بها⁽⁵⁾، فقد قام على حد قول ابن مرزوق بتجديد «رسم المارستان بمدينة فاس وغيرها»⁽⁶⁾.

أما فيما يتعلق بالطرق الخارجية وتوفير المستلزمات الضرورية للمسافرين فقد ذكر ابن مرزوق ما نصه: «فرأى ان يعمر طرق المسافرين من حضرته بفاس إلى مراكش وإلى تلمسان وإلى سبته وغيرها من البلاد بالرتب»⁽⁷⁾، يامر بسكناها على مقدار اثني عشر ميلا يسكنها أهل الوطن ويجري لهم على ذلك اقطاع من الأرض

(1) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 418.

(2) ابن غازي: الروض المتهون، ورقة 14 ظ ابن زيدان: إتحاف اعلام الناس، 1 / 117.

(3) العمري: وصف المغرب، 360-367.

(4) ابن مرزوق: المسند الصحيح، 173.

(5) ورد ذكر العديد من المارستانات في مدينة فاس على حد ذكر الوزان، وصف إفريقيا، 233-234.

(6) ولعله يقصد بها مارستان سيدي فرج الذي كان موقعه قرب سوق العطارين. للمزيد ينظر - عيسى بك: تاريخ البيمارستانات في الإسلام، 284 و287.

(7) أي الخيام.

يعمرونها على قدر الكفاية على سكن المواضع المذكورة، يلزمون فيها ببيع الشعير والطعام وما يحتاج اليه المسافرين من الادم على اختلافها والمرافق التي يضطرونها اليها، هم وبهائمهم ويحرسون ويحوظون امتعتهم»⁽¹⁾.

وأخيرا فقد اهتم بالرعاية الاجتماعية وبشكل خاص بالشيوخ حيث قام ببناء دور تشبه «الربط» لسكنائهم إضافة إلى الرواتب التي كانت تصرف لهم⁽²⁾.

(1) المسند الصحيح، 415، 429.

(2) أبْنِ مَرْزُوق، المسند الصحيح، 427.

ثبت المصادر والمراجع والدوريات

أولاً: المخطوطات:

- ابن الأحمر / أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن محمد، المتوفى 810 هـ / 1407م

1- النفحة الشريفة واللمحة المربنية، مخطوطة الاسكوريال، مدريد، تحت رقم 1773

- ابن الأزرق / محمد بن علي بن محمد بن مسعود أبو عبدالله، المتوفى 896 هـ / 1490م

2- روضة الإعلام بما للعربية من مكانه في علم الإسلام، مخطوطة محفوظة لدى المجمع العلمي العراقي، تحت رقم 1330

- البزيوي / محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالله

3- دول الإسلام في المغرب الأقصى، مخطوطة محفوظة لدى المجمع العلمي العراقي، بغداد، تحت رقم 1313م.

- ابن الخطيب / لسان الدين بن محمد بن عبدالله بن سعيد السلماي، المتوفى 776 هـ / 1374م

4- رقم الحلل في نظم الدول، مخطوطة محفوظة لدى الخزانة العامة، الرباط، تحت رقم 1299د.

- الدكالي / محمد بن علي السللاوي، المتوفى 1363هـ / 1945م
- 5- الإنحاف الوجيز بأخبار العدوتين لمولانا عبد العزيز، مخطوطة محفوظة لدى الخزنة العامة، الرباط، تحت رقم 1320د.
- السراج / يحيى بن أحمد بن محمد، المتوفى 805هـ / 1402م.
- 6- تراجم من فهرسة السراج، نسخة الأستاذ محمد المتوني، غير مرقمة.
- 7- فهرسة السراج، مخطوطة محفوظة لدى الخزنة العامة، الرباط، تحت رقم 1242ك.
- ابن السكاك / محمد بن أبي غالب بن أحمد المكناسي، المتوفى سنة 818هـ / 1415م.
- 8- نصيح ملوك الإسلام بالتعريف بما يجب عليهم من حقوق آل البيت الكرام، مخطوطة محفوظة لدى الخزنة العامة، الرباط تحت رقم 772د.
- القرافي / بدر الدين بن يحيى بن عمر الأنصاري، المتوفى 1008هـ / 1599م.
- 9- توشيح الديباج وحلية الابتهاج، مخطوطة مصورة لدى معهد المخطوطات العربية، القاهرة، تحت رقم 1547 تاريخ.
- ابن غازي / محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي، المتوفى 919هـ / 1513م.
- 10- الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، نسخة مصورة بخط المؤلف محفوظة لدى الدكتور ناطق صالح مطلوب.

ثانياً: المصادر المطبوعة:

- ابن الآبار / أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الله القضاعي، المتوفى 658هـ / 1260م.

11- الحلة السراء، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى، نشر لجنة التأليف والنشر، (القاهرة، 1963).

- ابن الأثير / عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم، المتوفى 630هـ / 1232م.

12- الكامل في التاريخ، نشر دار بيروت للطباعة والنشر، (بيروت، 1966).

- ابن الأحرر / أبو الوليد إسماعيل بن يوسف بن محمد، المتوفى 810هـ / 1407م.

13- بيوتات فاس الكبرى، نشر دار المنصور للطباعة، (الرباط، 1972).

14- روضة النسرين في دولة بني مرين، الطبعة الثانية، مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الملكية (الرباط، 1962).

15- مستودع العلامة ومستبدع العلامة، تحقيق وتعليق محمد التركي التونسي ومحمد بن تاويت الطنجي، نشر كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، بمساهمة معهد مولاي الحسن، (تطوان، 1964).

16- نشر فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر، (بيروت، 1967).

- ابن الأزرقي / محمد بن علي بن محمد بن مسعود بن عبدالله، المتوفى 896هـ / 1490م.

17- بدائع السلك في طبائع الملك، تحقيق وتعليق علي سامي النشار، دار الحرية للطباعة، (بغداد، 1978).

- الافراقي / محمد الصغير بن محمد السوسي المراكشي، المتوفى 1140هـ / 1728م.

18- نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي، تصحيح هوراسي، منشورات بروي، الطبعة الثانية مكتبة الطالب، (الرباط، بلا).

- الأنصاري / محمد بن القاسم السبتى، كان حيا سنة 825هـ / 1441م

19- اختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الطبعة الثانية، (الرباط، 1983).

- البادسي / عبد الحق بن إسماعيل بن أحمد الخزرجي، المتوفى بعد سنة 722هـ / 1322م.

20- المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أحمد اعراب، المطبعة الملكية، (الرباط، 1982)

- ابن بطوطة / محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي، المتوفى 779هـ / 1377م.

21- تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأقطار، دار صادر، دار بيروت، (بيروت، 1964).

- البغدادي / إسماعيل باشا.

22- هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين الطبقة الثالثة، المكتبة الإسلامية، (طهران، 1957).

- البكري / عبد الله بن عبد العزيز المرسي، المتوفى 487هـ / 1097م.

23- المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب نشر دى سلان، (الجزائر، 1857م).

- البلاذري / أحمد بن يحيى البغدادي، المتوفى 239هـ / 892م.

24- فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، الطبعة الأولى، المطبعة المصرية بالأزهر، (القاهرة، 1962).

- البلوي / خالد بن عيسى، المتوفى قبل سنة 780هـ / 1378م.

25- تاج الفرق في تحلية علماء المشرق، مقدمة وتحقيق الحسن بن محمد السائح، نشر اللجنة المشتركة لنشر التراث، (المحمدية، بلا).

- البيذق / أبو بكر بن علي الصنهاجي، المتوفى 555هـ / 1160م.

26- المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، (الرباط، 1971).

- التادلي / أبو يعقوب بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن، المعروف بابن الزيات، المتوفى 627هـ / 1229م.

27- التشوف إلى رجال التصوف، عني بنشره وتصحيحه ادولف فور، مطبوعات إفريقيا الشمالية الفنية، معهد الأبحاث العليا المغربية، (الرباط، 1958).

- التجاني / عبد الله محمد بن أحمد، المتوفى حوالي 717هـ / 1317م.

28- رحلة التجاني، قدم لها حسن حسني، المطبعة الرسمية، (تونس، 1958).

- ابن تغري بردي / جمال يوسف الاتابكي القاهري، المتوفى 874هـ / 1470م.

29- المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق يوسف فجاتي، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتاب المصرية، (القاهرة، 1956)

30- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة العامة للتأليف والنشر، (القاهرة، بلا).

- التنبكتي / أحمد بن أحمد بن عمر بن محمد، المتوفى 1036هـ / 1636م.

31- نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تحقيق ناطق صالح مطلوب، رسالة ماجستير غير منشورة، (القاهرة، 1973).

- ابن الجزري / شمس الدين بن محمد بن محمد الدمشقي، المتوفى 833هـ / 1429م.

32- غاية النهاية في طبقات القراء، عني بنشره برجستراسر، (القاهرة، 1932-1933)

- الجزنائي / علي الجزنائي، المتوفى بعد سنة 766هـ / 1364م.

33- جنى زهرة الآس في بناء مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، (الرباط، 1967).

- ابن جماعة / بدر الدين بن إسحاق، المتوفى 733هـ / 1332م.

34- تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم، تحقيق محمد هاشم، (حيدر آباد، 1353هـ).

- الجمل / أبي قاسم عبد الرحمن بن إسحاق، المتوفى بعد 377هـ.

35- الزجاجي، تحقيق محمد بن أبي شنب، الطبعة الثانية، وزارة المعارف الوطنية، (الجزائر، 1957).

- حاجي خليفة / مصطفى بن عبد الله التركي، المتوفى 1067هـ / 1657م.
- 36- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، الطبعة الثالثة، (طهران، 1958).
- ابن حجر / شهاب الدين بن أبي الفضل العسقلاني، المتوفى 852هـ / 1448م
- 37- أنباء الغمر بأبناء العصر، تحقيق حسن الحبشي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، (القاهرة، 1969)
- 38- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سيد جاد الحق، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، (القاهرة، 1962)
- ابن حزم / علي بن أحمد بن حزم الأندلسي، المتوفى 456هـ / 1064م
- 39- جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق محمد عبد السلام هارون، نشر دار المعارف، (القاهرة، 1962)
- الحضرمي / أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، كان حيا بعد سنة 750هـ / 1349م
- 40- السلسل العذب والمنهل الأحلى، تحقيق محمد الفاسي، مستل من مجلة معهد المخطوطات، مجلد العاشر، ج 1، (القاهرة، 1964)
- الحكيم / علي بن يوسف، المتوفى 750هـ / 1349م
- 41- الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، الطبعة الأولى، نشر معهد الدراسات الإسلامية، (مريد، 1960)
- الحموي / شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت البغدادي، المتوفى 626هـ / 1229م

- 42- معجم البلدان، دار صادر، دار بيروت، (بيروت، 1957)
- ابن حوقل / أبو قاسم محمد بن علي البغدادي النصيبي، المتوفى 380هـ / 990م.
- 43- صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، بلا)
- الحميري / محمد عبد المنعم، المتوفى 710هـ / 1310م
- 44- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، دار القلم، (بيروت، 1975)
- 45- صفة جزيرة العرب، منتخبة من الروض المعطار، نشره ليقي بروفنسال، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، 1937)
- ابن خرداذبة / عبد الله بن عبد الله، المتوفى 300هـ / 912م
- 46- المسالك والممالك، تحقيق دي غويه، (ليدن، 1889)
- ابن الخطيب / لسان الدين بن محمد بن عبد الله بن سعيد التلمساني، المتوفى 776هـ / 1374م
- 47- اعمال الاعلام في من بوع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية، تحقيق ليقي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار المكشوف، (بيروت، 1956)
- 48- أوصاف الناس في التاريخ والصلوات تليها الزواجر والعظات، تحقيق ودراسة محمد كامل شبانه، طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث، (المحمدية، 1977)
- 49- الاحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، دار المعارف، (القاهرة، 1976).

- 50- ریحانة الكتاب ونجعة المتاب، تحقیق محمد بن عبد الله عنان، نشر مكتبة الخانجي، (القاهرة، 1981).
- 51- الكتيبة الكامنة في من لقيناه من شعراء المائة الثامنة، تحقیق إحسان عباس، نشر دار الثقافة، مطبعة عيتاني الجديدة، (بيروت، بلا)
- 52- اللوحة البدرية في الدولة النصرية، الطبعة الثانية، نشر دار الأفاق الجديدة، (بيروت، 1978)
- 53- مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب من بلاد المغرب والأندلس «مجموعة من رسائله»، نشر و تحقیق أحمد مختار العبادي، مطبعة دار الإسكندرية، (الإسكندرية، 1958)
- 54- معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقیق محمد كامل شبانه، طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث (المحمدية، 1977)
- 55- نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، تحقیق محمد مختار العبادي، مراجعة عبد العزيز الاهواني، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، (القاهرة، بلا).
- ابن خلدون / عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، المتوفى 808هـ / 1405م
- 56- التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، نشر دار الكتاب اللبناني، دار الكتاب المصري، (بيروت، 1979)
- 57- العبر وديوان المبتدأ والخبر، مؤسسة الاعلمي، (بيروت، 1959)
- 58- المقدمة، الطبعة الرابعة، دار إحياء التراث العربي، (بيروت، بلا)
- ابن خلدون / يحيى بن أبي بكر محمد، المتوفى 780هـ / 1378م
- 59- بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبدالواد، تحقیق الفرد بل، طبع بمطبعة بئر موطانا الشرقية، (الجزائر، 1903)

- ابن خلكان / أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر، المتوفى 680هـ / 1282م

60- وفيات الأعيان وانباء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، (بيروت، بلا)

- ابن الدراج / السبتي

61- الإمتاع والانتفاع بمسالة سماع الإسماع، تحقيق محمد بن شقرون، الطبعة الأولى، مطبعة الأندلس، (الرباط، 1982)

- ابن أبي دينار / محمد بن أبي قاسم القيرواني، المتوفى 1110هـ / 1699م

62- المؤنس في ذكر بلاد إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، الطبعة الثالثة، المكتبة العتيقة، (تونس، 1967)

- الذهبي / شمس الدين محمد بن أحمد، المتوفى 748هـ / 1347م

63- الذيل على العبر، تحقيق محمد رشاد عبدالمطلب، نشر وزارة الإرشاد الأنباء، (الكويت، بلا)

- ابن رشيد / محب الدين محمد بن عمر بن محمد ألسبتي، المتوفى 721هـ / 1321م

64- إفادة النصيح في التعريف بسند الجامع الصحيح، تحقيق محمد الحبيب ابن الخونجة، الدار التونسية للنشر، (تونس، بلا).

- ابن أبي زرع / أبو الحسن علي بن عبد الله، المتوفى 741هـ / 1340م

65- الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة، (الرباط، 1972)

66- الأنيس المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة، (الرباط، 1973)

- الزركشي / أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي، المتوفى 894هـ / 1488م

67- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، الطبعة الثانية، نشر المكتبة العتيقة، (تونس، 1966)

- الزياتي / أبو قاسم بن أحمد الزياتي، المتوفى 1249هـ / 1833م

68- الترجانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا، جمع وتعليق عبد الكريم الغيلالي، نشر وزارة الأنباء، مطبعة فضالة، (المحمدية، 1961)

- ابن سحنون / أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد، المتوفى 258هـ / 869م

69- آداب المعلمين، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، نشر محمد العروسي المطوي، الطبعة الثانية، دار الكتاب، (تونس، 1970)

- السراج / محمد بن محمد الأندلسي، المتوفى 1149هـ / 1736م

70- الحلل السندية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية، (تونس، 1970).

- السعدي / عبد الرحمن بن عبد الله بن عمران، كان حيا سنة 1065هـ / 1655م

71- تاريخ السودان، نشر هوداس، (باريس، 1964)

- ابن سعيد / علي بن سعيد بن موسى المغربي، المتوفى 685هـ / 1289م

72- بسط الأرض في الطول والعرض، تحقيق خوان قرنيط خينيس، معهد مولاي حسن، (تطوان، 1958).

- 73- كتاب الجغرافية، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، الطبعة الأولى، نشر الكتب التجاري للطباعة، (بيروت، 1970)
- السيوطي / جلال الدين عبد الرحمن، المتوفى 911هـ / 1505م
- 74- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، مطبعة عيسى ألبابي الحلبي، (القاهرة، 1964)
- 75- حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، 1968)
- الشيزري / عبد الرحمن بن نصر، المتوفى حوالي سنة 589هـ / 1193م
- 76- نهاية الرتبة في طلب الحسبة، نشر السيد ألباز العربي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، 1964)
- ابن صاحب الصلاة / عبد الملك بن محمد، المتوفى 595هـ / 1198م
- 77- المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين، تحقيق عبد الهادي التازي، دار الأندلس، (بيروت، 1965)
- ابن أبي الضياف / أحمد، المتوفى 1291هـ / 1874م
- 78- إتحاف أهل الزمان بأخبار تونس وعهد الأمان، نشر كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، المطبعة الرسمية، (تونس، 1963)
- طاش كبرى زاده / عصام الدين أحمد العريف، المتوفى 968هـ / 1560م
- 79- مفتاح السعادة ومصباح السيادة، مراجعة وتحقيق كامل بكري، وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة بعبدين.
- الطبري / محمد بن جرير الطبري، المتوفى 310هـ / 922م

80- تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، نشر دار المعارف، (القاهرة، 1960).

- العبدري / أبو عبد الله محمد بن أحمد، كان حيا سنة 688هـ / 1289م.

81- الرحلة المغربية، تحقيق وتقديم محمد الفاسي، نشر وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية، جامعة محمد الخامس، (الرباط، 1968).

- ابن عبد الحكم / عبد الرحمن بن حبيب، المتوفى 257هـ / 871م.

82- فتوح مصر والمغرب، تحقيق عبد المنعم عامر، لجنة البيان العربي، (القاهرة، 1961).

- ابن عذاري / أبو العباس أحمد بن محمد، كان حيا سنة 712هـ / 1312م.

83- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج. س. كولان، وليفي بروفنسال، الطبعة الثانية، دار الثقافة، (بيروت، 1980).

84- البيان المغرب في اختصار ملوك الأندلس والمغرب، عني بنشره امبروسي هويسي مراندة بمساهمة محمد بن تاويت ومحمد إبراهيم الكناني، القسم الثالث، نشر مولاي الحسن، (تطوان، 1964).

- العقباني / أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد، المتوفى 871هـ / 1467م.

85- تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشريعة وتغيير المناكر، تحقيق علي الشنوني، (فرنسا، 1967).

- ابن العماد / أبو الفتح عبد الحي الحنبلي، المتوفى 1089هـ / 1678م.

86- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، بلا).

- العمري / شهاب الدين بن فضل الله، المتوفى 749هـ / 1348م.
- 87- التعريف بالمصطلح الشريف، (القاهرة، 1312هـ).
- 88- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أحمد زكي باشا، دار الكتب المصرية، (القاهرة، 1942).
- 89- وصف المغرب أيام أبي الحسن، شذرات من مسالك الأبصار، ملحق بكتاب ورقات عن الحضارة المغربية، تحقيق محمد المنوني، (الرباط، 1979).
- عياض / أبو الفضل بن موسى، المتوفى 544هـ / 1149م.
- 90- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، (الرباط، 1970).
- ابن غازي / محمد بن أحمد بن محمد العثماني المكناسي، المتوفى 919هـ / 1513م.
- 91- فهرس التعلل برسوم الإسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد، تحقيق محمد الزاهي التونسي، مطبعة الدار البيضاء، (المغرب، 1979).
- الغبريني / أبو العباس أحمد بن محمد البجاني، المتوفى 714هـ / 1315م.
- 92- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة بجاية، تحقيق عادل نويهض، الطبعة الأولى، (بيروت، 1969).
- الغزالي / أبو حامد، المتوفى 505هـ / 1111م.
- 93- إحياء علوم الدين، مطبعة المصطفى البابي الحلبي، (القاهرة، 1939).
- ابن فرحون / إبراهيم بن علي بن محمد اليعمرى المدني، المتوفى 799هـ / 1397م.

94- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تحقيق محمد الاحدي أبو النور، مكتبة دار التراث العربي للطباعة، (القاهرة، 1972)

- الفشتالي / عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم الفاسي، المتوفى 1031هـ / 1621م

95- مناهل الصفا في أخبار ملوك الشرفاء، تحقيق عبد الله كنون، منشورات جامعة محمد الخامس بمساهمة المركز الجامعي، (الرباط، 1964)

- ابن الفقيه / أبو بكر أحمد بن محمد الحمداني، المتوفى 310هـ / 922م

96- مختصر كتاب البلدان، نشر دي غوية، (لندن، 1885).

- ابن القاضي / أحمد بن محمد المكناسي، المتوفى 1025هـ / 1613م

97- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الاعلام مدينة فاس، نشر دار المنصور للطباعة والوراقة، (الرباط، 1973)

98- درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق أحمد الاحدي أبو النور، دار التراث المكتبة العتيقة

99- لقط الفرائد من لفاظة الفوائد، ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، تحقيق محمد حجي، دار المغرب للتأليف، (الرباط، 1976)

- القرطاجني / أبو الحسن حازم، المتوفى 684هـ / 1285م

100- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الكتب الشرقية، (الرباط، 1966).

- القزويني / زكريا بن محمد بن محمود، المتوفى 628هـ / 1283م

101- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، (بيروت، 1960)

- القلقشندي / أحمد بن علي، المتوفى 821هـ / 1418م.

102-صبح الأعشى في صناعة الانشار، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، (القاهرة، بلا).

-ابن قنفذ / أحمد بن حسين بن علي القسنطيني، المتوفى 810هـ / 1407م

103-أنس الفقير وعز الحقير، اعتنى بنشره وتصحيحه محمد القاسي، وادولف فور، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، (الرباط، 1965)

104-الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر، (تونس، 1968)

105-الوفيات، تحقيق عادل نويهض، المكتب التجاري للطباعة والنشر، (بيروت، 1971)

-الكانوني / أبو عبد الله محمد بن أحمد العبدري

106-جواهر الكمال في تراجم الرجال، القسم الثاني من تاريخ آسفي وما اليه، الطبعة الاولى، (المغرب، 1356هـ)

- ابن كثير القرشي / عماد الدين أبي الفدا اسماعيل بن عمر الدمشقي، المتوفى 774هـ / 1373م.

107-البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة السعادة، (القاهرة، 1358هـ).

- كعت / محمود كعت بن الحاج المتوكل كعت، المتوفى 1002هـ / 1593م

108-تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس وذكري وقائع التكرور وعظائم الامور وتفريق أنساب العبيد من الاحرار، نشر هوداس ورائوس، (باريس، 1964).

- مجهول / مؤلف، كان حيا في القرن السادس الهجري.

109- الاستبصار في عجائب الامصار، نشر سعد عبد الحميد، (السكندرية، 1958)

- مجهول / مؤلف

110- بلغة الأمنية ومقصد اللبيب فيمن كان بسبته من استاذ ومدرس وطبيب، تحقيق محمد بن تاويت، مطبعة تطوان، العدد (9)، (الرباط، 1964)

- مجهول / مؤلف، المتوفى 713هـ / 1312م

111- نبذة تاريخية في اخبار البربر في القرون الوسطى مستخبة من مفاخر البربر، نشر ليفي بروقنسال، معهد العلوم العليا، المطبعة الجديدة، (الرباط، 1934)

- مجهول / مؤلف، عاش في القرن الثامن الهجري

112- الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار، عبد القادر زمامة، الطبعة الاولى، دار الرشيد، (الدار البيضاء، 1979)

- مجهول / مؤلف

113- نصوص عن الممالك، تحقيق زير سبتن، (ليدن، 1919)

- المراكشي / عبد الواحد بن علي، المتوفى 647هـ / 1249م

114- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، الكتاب الثالث، لجنة احياء التراث، (القاهرة، 1963).

- ابن مرزوق / محمد بن أحمد بن محمد التلمساني، المتوفى 781هـ / 1379م

115-المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق ماريّا خيسوس بينيرا، مراجعة محمود بوعباد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر، 1981)

- ابن مريم / أبو عبدالله محمد بن محمد بن أحمد التلمساني، المتوفى 1014هـ / 1605م

116-البستان في ذكر الاولياء والعلماء في تلمسان، تحقيق محمد بن أبي شنب، المطبعة الشعلبية، (الجزائر، 1908)

-المسعودي / أبو الحسن علي بن الحسن، المتوفى 345هـ / 959م

117-أخبار الزمان ومن ابادته الحدثان وعجائب البلدان، دار الأندلس، (بيروت، 1966).

-المغراوي / أحمد بن أبي جمعة، المتوفى 920هـ / 1514م

118-جامع جوامع الاختصار والبيان فيما يعرض للمعلمين واباء الصبيان، تحقيق وتعليق أحمد جلولي البدوي ورائح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، (الجزائر، بلا).

- المقرئ / شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، المتوفى 1041هـ / 1631م

119-أزهار الرياض في اخبار عياض، تحقيق مصطفى السقا وآخرون، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، (الرباط، 1978)

120-روضة الاس العاطرة الانفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس، مطبوعات القصر الملكي، المطبعة الملكية، (الرباط، 1964)

121- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق احسان عباس، دار صادر وبيروت، (بيروت، 1986)

- المقرئ / أحمد بن علي تقي الدين بن الصابي، المتوفى 845هـ / 1441م

122- الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك، تحقيق جمال الدين الشيال، نشر مكتبة الخانجي، (القاهرة، 1955)

123- السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والنشر، (القاهرة، 941 - 1942)

124- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط المقرئية) الطبعة الثانية، مطبعة المثنى، (بغداد، 1970).

- المكناسي / محمد عثمان

125- الاكسير في فكاك الاسير، تحقيق محمد الفاسي، (الرباط، 1965).

- المكي / تقي الدين ابن الفضل محمد بن محمد المتوفى 871هـ / 1466م.

126- لحظ الألفاظ بذييل طبقات الحفاظ دار احياء التراث العربي، (بيروت، بلا).

- الملزوزي / أبو فارس عبد العزيز بن عبد الواحد المتوفى 697هـ / 1297م.

127- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك، مطبوعات القصر الملكي، (الرباط، 1972م).

- المنجور / أحمد بن علي المنجور المكناسي المتوفى 995هـ / 1587م

128- فهرس أحمد المنجور، تحقيق محمد حجي، مطبعة دار المغرب، (الرباط، 1972)

- ابن ناجي / عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الدباغ المتوفى 696 هـ، 129.
- 129 - معالم الايمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق محمد الاحمد أبو النور ومحمد منصور، نشر مكتبة الخانجي والعتيقة، (القاهرة، تونس، 1972م).
- الناصري / أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي، المتوفى 1325 هـ / 1897م.
- 130 - الاستقصا لآخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، الدار البيضاء، (954-1959).
- النباهي / أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن الملقى، كان حيا في سنة 793 هـ / 1390م.
- 131 - المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا او تاريخ قضاة الأندلس، نشر ليفي بروفنسال، دار الكتاب العربي، (القاهرة، 1948).
- النميري / إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم، توفي بعد 774 هـ / 1372م.
- 132 - فيض العباب وافاضة قداح الاداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دراسة واعداد محمد بن شقرون، (الرباط، 1984).
- الواد آشي / محمد بن جابر بن محمد القيسي، المتوفى 749 هـ / 1348.
- 133 - برنامج الوادي آشي، تحقيق محمد محفوظ، الطبعة الثالثة، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- ابن الوردي / عمر بن مظفر عمر الكندي، المتوفى 749 هـ / 1349م.
- 134 - تمة المختصر في اخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)، المطبعة الحيدرية، (النجف، 1969).

-الوزان/ الحسن بن محمد الزياتي القاسي، المتوفى 959-960 هـ/ 1552م.

135- وصف إفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، مراجعة على عبد الواحد، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، (السعودية، 1978م).

-الونشريسي، أحمد بن يحيى، المتوفى 914 هـ/ 1508م.

136- المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب، بأشراف محمد حجي، نشر وزارة الاوقاف المغربية، الطبعة الثالثة، دار المغرب الإسلامي، (بيروت، 1981م).

137- وفيات الونشريسي، تحقيق محمد حجي، منشور ضمن كتاب ألف سنة من الوفيات، نشر دار المغرب، (الرباط، 1976).

-اليافعي/ عبد الله بن اسعد بن علي اليمني المكي، المتوفى 768 هـ/ 1366م

138- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، منشورات مؤسسة الاعلمي، (بيروت، 1970م).

ثالثاً: المراجع العربية والمعرّبة:

- ابن إبراهيم/ عباس التعارجي السملالي المراكشي المتوفى 1378 هـ/ 1959م

139- الاعلام بمن حل مراكش واغيات من الاعلام، الطبعة الأولى، المطبعة الجديدة، (فاس، 936-1939م).

-أحمد / نفيس.

140- الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، ترجمة فتحى عثمان، (الكويت، 1978م).

-أرسلان/ شكيب

141- الحلل الستدسية في الأخبار والاثار الأندلسية، الطبعة الأولى، (بيروت، 1936).

- إسماعيل / عثمان عثمان

142- تاريخ شالة الإسلامية، دار الثقافة، (بيروت، 1975).

143- دراسات جديدة في الفنون الإسلامية والنقوش العربية في المغرب الأقصى، دار الثقافة، (بيروت، بلا).

- اعشى / مصطفى

144- نماذج من الفن المعماري الموحدى بالمغرب، مطبعة فضالة (المحمدية، بلا).

- أمين / احمد.

145- ظهر الإسلام، (القاهرة، 1962)

- الاهواني / أحمد فؤاد

146- التربية في الإسلام، دار المعارف، (القاهرة، 1968)

- بالباس / تورييس وليوبولد

147- الفن المرباطي والموحدى، ترجمة سيد غازي، نشر منشاة المعارف، (الاسكندرية، 1976).

- بالنشيا / انخل جنتال

148- تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، (القاهرة، 1955م).

- بروفنسال / ليفي

149- مؤرخو الشرفا، تعريب عبد القادر الخلاوي، دار المغرب للتأليف والترجمة، (الرباط، 1977م).

-بروكلمان/ كارل

150- تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومثير البعلبكي، الطبعة السابعة، دار العلم للملايين، (بيروت، 1977م).

-التازي/ عبد الهادي

151- اوقاف المغاربة في القدس، مطبعة فضالة، (المحمدية، 1981).

152- جامع القرويين، المسجد والجامعة بمدينة فاس، الطبعة الأولى، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1973).

-ابن تاويت/ محمد الطنجي

153- تاريخ سبتة، نشر الجمعية المغربية للتأليف، الطبعة الأولى، دار الثقافة، (الدار البيضاء، 1982).

154- الوافي بالادب العربي في المغرب الأقصى، دار الثقافة، (الدار البيضاء، 1983).

-جاسم/ خليل إبراهيم

155- امبراطورية مالي الإسلامية، رسالة ماجستير غير منشورة، (الموصل، 1977).

-الجراري/ عباس

156- أثر الأندلس على أوربا في مجال النغم والايقاع، نشر مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، (الرباط، 1982م).

157- الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها، نشر مكتبة المعارف، الطبعة الثانية، (الرباط، 1979م).

- جغلول/ عبد القادر

158- مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيلة الحكيم، نشر دار الحداثة، الطبعة الأولى، (بيروت، 1982م).

- بوجندار/ محمود

159- مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح، مطبعة الجريدة الرسمية، (الرباط، 1345هـ).

- الجندي/ محمد سليم.

160- الجامع في اخبار أبي العلاء المعري واثاره، علق عليه عبد الهادي هاشم، مطبوعات المجمع العلمي العربي، (دمشق، 1964م).

- جوليان/ اندرية

161- تاريخ إفريقيا الشمالية، تعريب محمد مزالي، البشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، (تونس، 1969م).

- الجوهري/ يسرى عبد الرزاق

162- شمال إفريقيا، دراسة في الجغرافية التاريخية، دار الجامعات المصرية، الطبعة الأولى، مطبعة خميس عثمان، (القاهرة، 1970م).

- الجيلاني، عبد الرحمن بن محمد.

163- تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، (بيروت، 1980).

- حتي/ فيليب

164- تاريخ العرب (مطول) نقله إلى العربية مبروك نافع، نشر دار المعلمين العالية، مطبعة النجاح، (بغداد، 1945-1946م).

- الحججي / عبد الرحمن علي.

165- التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة - ساعدت جامعة بغداد على نشره - الطبعة الأولى، دار القلم، (دمشق، 1976م).

- الحججي / محمد

166- الزاوية الدلائلية ودورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، (الرباط، 1964م).

- حركات / إبراهيم

167- المغرب عبر التاريخ، الطبعة الأولى، نشر دار الرشاد الحديثة، ج 2، (الدار البيضاء، 1978م).

- حسن / إبراهيم حسن

168- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، (القاهرة، 1967م).

169- انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى، نشر معهد الدراسات العربية العالية، (القاهرة، 1957م).

170- انتشار الإسلام في القارة الإفريقية، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة، 1964م).

- الحسيسن / عبد الهادي احمد.

171- مظاهر النهضة الحديثة في عهد يعقوب المنصور الموحي، نشر اللجنة المشتركة لاهياء التراث الإسلامي، مطابع الشويخ، (تطوان، 1982).

- حسين / كريم عجيل

172- الحياة العلمية في بلنسية، نشر جامعة بغداد، مؤسسة الرسالة، (بيروت، 1976).

- حقي / احسان.

173- المغرب العربي، دار اليقظة العربية، (بيروت، بلا).

- دروزة / محمد عزة.

174- العرب والعروبة في القرن الثالث حتى القرن الرابع الهجري في حقبة التغلب التركي، مطبعة فتي العرب، (دمشق، 1962م).

- رولند / اوليفر، جون فييج.

175- موجز تاريخ إفريقيا، ترجمة دولت صادق، ومحمد السيد غلاب، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة.

- رياض / زاهر

176- الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا واثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى، معهد الدراسات الإفريقية، مكتبة الانكلو المصرية، (القاهرة، 1968).

- الزركلي / خير الدين

177- الاعلام، قاموس تراجم، الطبعة الثالثة، (بيروت، 1969).

- زقلمة / انور

178- الممالك في مصر، مطبعة المجلة الجديدة، (القاهرة، بلا).

- زكي / عبد الرحمن

179- تاريخ الدول الإسلامية السوداني بإفريقية الغربية، نشر المؤسسة المصرية للطباعة، (القاهرة، 1961م).

- زكي / محمد حسن

180- فنون الإسلام، الطبعة الأولى، لجنة التأليف والنشر والترجمة، (القاهرة، 1948).

- زمامة / عبد القادر

181- الوليد بن الأحمر، نشر دار المغرب للتأليف والترجمة، (الدار البيضاء، 1979).

- زامباور

182- معجم الأنساب والاسرات الحاكمة، أخرجته: زكي محمد حسن بك وحسن أحمد محمود، مطبعة جامعة فراد الأول، (القاهرة، 1951).

- ابن زيدان / عبد الرحمن

183- إتحاف اعلام الناس بجمال اخبار خاضرة مكناس، المطبعة المغربية الاهلية، (المغرب، 1929م).

- السائح / الحسن

184- الحضارة المغربية عبر التاريخ، الطبعة الأولى، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، (الدار البيضاء، 1975).

- سالم / عبد العزيز

185- تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي حتى الفتح العثماني، الطبعة الأولى، دار المعارف، (القاهرة، 1961).

- سرور / محمد جمال الدين.

186 - دولة بني قلاوون في مصر، مطبعة الاعتماد، (القاهرة، بلا).

- ابن سودة / عبد السلام بن عبد القادر المري.

187 - دليل مؤرخ المغرب الأقصى، الطبعة الثانية، نشر دار الكتاب، (الدار البيضاء، 1960م).

- شبانة / محمد كامل.

188 - يوسف الأول ابن الأحمر، لجنة البيان العربي، مطبعة الرسالة، (الرباط، 1969م).

- شقرون / محمد بن احمد.

189 - مظاهر الثقافة المغربية من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، مطبعة الرسالة، (الرباط، 1982م).

- الشعكة / مصطفى

190 - الادب في موكب الحضارة الإسلامية، الطبعة الثانية، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1974م).

- شلبي / احمد.

191 - تاريخ التربية الإسلامية، الطبعة الثالثة، (القاهرة، 1966م).

- الشبال / جمال الدين

192 - تاريخ مدينة الاسكندرية، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، (القاهرة، 1967م).

- الصياد / محمد محمود.

193- من الوجهة الجغرافية، دراسة التراث العربي، الطبعة الأولى، جامعة بيروت العربية، (بيروت، 1971م).

- ضيف / شوقي.

194- المدارس النحوية، الطبعة الثانية، دار المعارف، (القاهرة، 1972م).

- أبو ضيف / مصطفى احمد.

195- أثر القبائل العربية في الحياة المغربية خلال عصري الموحدين وبنو مرين، دار النشر المغربية، (الدار البيضاء، 1982م).

- طرخان / إبراهيم علي.

196- إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، مطابع الهيئة المصرية، القاهرة، (1970م).

197- دولة مالي الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1973م).

- طوقان / قدرى حافظ.

198- تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، دار الشروق، (بيروت، بلا).

- الطيار / هاشم أحمد ويحيى عبد سعيد

199- موجز تاريخ الرياضيات، نشر مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، (الموصل، 1977م).

- عاشور / سعيد عبد الفتاح.

200- الأيوبون والمالوك في مصر والشام، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، (القاهرة، 1970م).

- العامري / محمد الهادي

201- تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول، الشركة التونسية للتوزيع، (تونس، 1974م).

- العبادي / أحمد مختار، عبد العزيز سالم.

202- تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام، جامعة بيروت العربية، (بيروت، 1972م).

203- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى، نشر محمد أحمد بسيوني، (الإسكندرية، 1968).

204- في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، (الإسكندرية، بلا).

- عبد الجواد / توفيق أحمد

205- تاريخ العمارة، العصور المتوسطة والاوربية والإسلامية، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة، 1969م).

- عبد الحميد / سعد زغلول.

206- تاريخ المغرب العربي، نشر منشأة المعارف، (الإسكندرية، 1969م).

- ابن عبد الله / عبد العزيز

207- تاريخ المغرب، نشر مكتبة السلام والمعارف، الدار البيضاء، (الرباط، بلا).

- 208- تطور الفكر واللغة في المغرب الحديث، معهد البحوث والدراسات العربية، مطبعة الرسالة، (الرباط، 1969).
- 209- الطب والاطباء في المغرب، الطبعة الأولى، المطبعة الاقتصادية، (الرباط، 1960).
- 210- مظاهر الحضارة المغربية، الطبعة الأولى، دار السلمي، (المغرب، 1958-957).
- 211- الموسوعة المغربية للاعلام البشرية والحضارية، الطبعة الأولى، مطبوعات وزارة الاوقاف المغربية، (المغرب، 1975م).
- العفيفي / محمد الصادق.
- 212- تطور الفكر العلمي عند المسلمين، دار نافع للطباعة (القاهرة، 976-1977م).
- عنان / محمد عبد الله.
- 213- الاثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، نشر مؤسسة الخانجي للتأليف والترجمة، مطبعة لجنة البيان، (القاهرة، 1961).
- 214- تاريخ الجامع الازهر، الطبعة الثانية، مؤسسة الخانجي، (القاهرة، 1958م).
- 215- عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، وهو القسم الثاني من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة، 1964م).

216- نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، وهو القسم الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس، الطبعة الثانية، (القاهرة، 1958)، وطبعة أخرى (القاهرة، 1966م).

- عتاني / محمد زكريا.

217- الموشحات الأندلسية، اصدار المجلس الوطني للثقافة، سلسلة عالم المعرفة، (الكويت، 1980م).

- عيسى بك / احمد.

218- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، الطبعة الأولى، جمعية التمدن الإسلامية، المطبعة الهاشمية، (دمشق، 1939).

- عيسى / محمد عبد الحميد

219- تاريخ التعليم في الأندلس، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، (القاهرة، 1982م).

- الغري / محمد

220- بداية الحكم المغربي في السودان الغربي، دار الرشيد للنشر، (بغداد، 1982م).

- غنيمه، محمد عبد الرحيم.

221- تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى، معهد مولاي حسن، (تطوان، 1953م).

- الفاسي / محمد

222- التعريف بالمغرب، وهو مقدمة لتاريخ الادب العربي في المغرب الأقصى، معهد الدراسات العربية العالية، مطبعة لجان البيان العربي، (القاهرة، 1961م).

223- وحي البيئة، الطبعة الأولى، دار الكتاب، (الدار البيضاء، 1970م).

- فرحات / يوسف شكري

224- غرناطة في ظل بني الأحمر، الطبعة الأولى، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (بيروت، 1982).

- الفرد بيل

225- الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار ليبيا للنشر والتوزيع، (بنغازي، 1969).

- فروخ / عمر

226- العرب والإسلام في الحوض العربي في البحر الأبيض المتوسط، الطبعة الأولى، منشورات المكتب التجاري، (بيروت، 1959).

- الكتاني / عبد الحي بن عبد الكبير

227- التراتيب الإدارية، (بيروت، 1346هـ).

228- فهرس الفهارس والاثبات والمعاجم والمشیخات والمسلسلات، باعثناء احسان عباس، دار الغرب الإسلامي، (بيروت، بلا).

- الكتاني / محمد بن جعفر الكتاني الحسني المتوفى 1345هـ / 1926م

229- سلوة الانفاس ومحادثة الاكياس بمن اقبر من العلماء والصلحاء بفاس، المطبعة الاجرية، (فاس، 1900).

- الكتاني / محمد المتصر

230 - فاس عاصمة الادارسة، الطبعة الثانية، (بيروت، 1972م).

- كحالة / عمر رضا

231 - العلوم البحتة في العصور الإسلامية، الطبعة الثانية، المطبعة الهاشمية، (دمشق، 1972م).

232 - الفنون الجميلة في العصور الإسلامية، الطبعة الأولى، المطبعة التعاونية، (دمشق، 1972م).

233 - معجم المؤلفين، (دمشق، 1957).

- كراتشوفسكي / اغناطيوس يوليا نوفتش

234 - تاريخ الادب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان، موسكو، (لنغراد، 1957).

- كريم / عبد الكريم

235 - المغرب في عهد الدولة السعدية، الطبعة الثانية، شركة الطبع والنشر، (الدار البيضاء، 1977م).

- كنون / عبد الله

236 - ذكريات مشاهير رجال المغرب، مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، الحلقة 8، 9، 20، 29، 31، (بيروت، 1961).

237 - النبوغ المغربي، الطبعة الثالثة، دار الكتاب اللبناني، (بيروت، 1975م).

- كوتل / ارنست

- 238- الفن الإسلامي، ترجمة أحمد موسى، دار صادر، (بيروت، 1966م).
- لوبون/ غوستاف.
- 239- حضارة العرب، ترجمة عادل زعير، دار احياء الكتاب، (القاهرة، 1956).
- لوتورنو/ روجيه
- 240- فاس في عصر بني مرين، ترجمة نقولا زيادة، الطبعة الأولى، مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، (بيروت، 1967).
- مارسيه/ جورج
- 241- الفن الإسلامي، ترجمة عفيف بهنسي، منشورات وزارة الاوقاف والسياحة والارشاد، (دمشق، 1962).
- مبارك/ علي باشا
- 242- الخطط الجديدة التوفيقية لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، الطبعة الأولى، المطبعة الكبرى الأميرية بولاق، (القاهرة، 1305هـ).
- مرزوق/ محمد عبد العزيز
- 243- الفنون الزخرفية الإسلامية في المغرب والأندلس، نشر دار الثقافة، (بيروت، بلا).
- 244- الفن الإسلامي تاريخه وخصائصه، نشر جامعة بغداد، مطبعة اسعد، (بغداد، 1965).
- مفتاح/ محمد.

245- التيار الصوفي والمجتمع في القرن الثامن الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة، (الرباط، 1981م).

- ملين / محمد الرشيد

246- عصر المنصور الموحد، مطبعة الشمال الإفريقي، (الرباط، بلا).

- المنجد / صلاح الدين.

247- مملكة مالي عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، (بيروت، 1963).

- بن منصور / عبد الوهاب

248- اعلام المغرب العربي، المطبعة الملكية، (الرباط، 1979).

249- قبائل المغرب، المطبعة الملكية، (الرباط، 1968).

- المتنوي / محمد.

250- العلوم والاداب والفنون على عهد الموحدين، الطبعة الثانية مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة (الرباط، 1977).

251- المصادر العربية لتاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب، جامعة محمد الخامس، (الرباط، 1983).

252- ورقات عن الحضارة المغربية في عصر بني مرين، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية، مطابع الاطلس، (الرباط، 1979).

- مورينو / مانويل جوميث.

253- الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة لطفي عبد البديع، والسيد محمود عبد العزيز، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة، 1977).

- موسى / عز الدين محمد.

254-النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، الطبعة الأولى، دار الشروق، (بيروت، 1983).

- ابن المؤقت / محمد بن محمد بن عبد الله.

255-السعادة الابدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية، الطبعة الثانية، (فاس، 1336م).

- مخلوف / محمد بن محمد.

256-شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الطبعة الثانية، نشر دار الكتاب العربي، (بيروت، بلا).

- مؤنس / حسين.

257-المساجد، الطبعة الأولى، نشر المجلس الوطني للثقافة سلسلة عالم المعرفة (37)، (الكويت، 1981).

- ثلينو / كرلو.

258-علم الفلك، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى، (روما، 1911).

- النميش / أحمد.

259-تاريخ الشعر والشعراء بفاس، (فاس، 1343هـ).

-نوري / دريد عبد القادر.

260-انتشار الإسلام في السودان الغربي، رسالة دكتوراه غير منشورة، (بغداد، 1981).

-نويهض / عادل.

261-معجم اعلام الجزائر، الطبعة الثانية، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والنشر، (بيروت، 1980).

-وزارة الاعلام والثقافة.

262-متاحف الجزائر، صور من الماضي، مطبعة التاميرا، (مدريد، 1971).

263-تلمسان، مطبعة التاميرا، (مدريد، 1971).

-اليوزيكي / توفيق سلطان.

264-تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المماليكي، نشر مؤسسة دار الكتب للطباعة، (الموصل، 1975).

رابعاً: الدوريات والمقالات العربية والمعرّبة:

-بالاو / ماريانو أريباس

265-بنو مريس في الاتفاقيات المبرمة بين اراغون وخرناطة، مجلة تطوان، عدد (8)، (الرباط، 1963).

-البستاني / بطرس.

266-مادة الزاوية، دائرة المعارف، الترجمة العربية، مجلد (9)، (بيروت، 1887).

-التازي / عبد الهادي.

267-رواق المغاربة بالازهر الشريف، مجلة دعوة الحق، عدد (229)، (المحمدية، 1983).

268-المغاربة والقدس، مجلة دعوة الحق، عدد (5)، (المحمدية، 1981).

-تيراس / هنري.

269- الفن المعماري في المساجد المغربية عبر العصور، ترجمة عبد اللطيف ملين، مجلة دعوة الحق، (المحمدية، 1962).

- الجليدي / عمر.

270- دعوة إلى نبذ المختصرات في عهد الدولة العلوية، مجلة دعوة الحق، العدد (2)، (المحمدية، 1982).

- حركات / إبراهيم.

271- الحياة الدينية في العهد المريني، مجلة البحث العلمي، عدد (29-30)، (الرباط، 1979).

- ابن الحسني / عبد الكريم.

272- جامع القرويين، ضمن الكتاب الذهبي (جامعة القرويين في ذكرائها الالف بعد المائة)، نشر وزارة التربية الوطنية، (المحمدية، 1960).

- خالص / عبد اللطيف.

273- دور جامعة القرويين في حفظ تراثنا الإسلامي، مجلة المغرب، عدد (3)، (الرباط، 1965).

- دغفوس / راضي.

274- العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم، مجلة اوراق، المعهد الإسباني العربي للثقافة، العدد (4)، (مدريد، 1981).

- روزنثال / فرائز.

275- ابن خلدون، سلسلة تراث الإسلام، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة حسين مؤنس، ق2، (الكويت، 1978).

-السائح / الحسن.

276-المناهج الدراسية بالمعاهد الاصلية، ضمن الكتاب الذهبي.

-سحنون / احمد.

277-ابن زيد القيرواني ورسائله مستل عن كتاب ندوة الامام مالك نشر

وزارة الاوقاف والشؤون الإسلامية، (فاس، 1980).

-سوتر / ومحمد بن أبي شنب.

278-مادة البناء، دائرة المعارف الإسلامية، ترجمة محمد ثابت افندي وآخرون،

مجلد (1)، (طهران، 1933).

-السوسي / محمد المختار.

279-علماء لامعون من سوس اخذوا من القرويين ضمن الكتاب الذهبي.

-شبانة / محمد كمال.

280-السياسة الخارجية لمملكة غرناطة، مجلة البحث العلمي، عدد (11)-

(12)، (الرباط، 1967م).

-ابن شقرون / احمد.

281-القرويين بين الامل واليوم، ضمن كتاب الذهبي.

-ابن شقرون / محمد.

282-من مظاهر وحدة الثقافة بين دول المغرب العربي، الخطيب بن

مرزوق، مجلة المناهل، عدد (2)، السنة الثانية، (الرباط، 1975).

-الشيال/ جمال الدين.

283-الصلات الثقافية بين المغرب والأندلس، ضمن كتاب الذهبي.

- ابن عبد الله / عبد العزيز.

284- تاريخ التعليم الإسلامي بالمغرب، ضمن كتاب الذهبي.

285- شفشاون واثارها المعمارية عبر التاريخ، مجلة

(المناهل)، عدد (8)، السنة العاشرة، (الرباط، 1983).

286- علماءنا والتبادل الفكري بين المغرب والمشرق، مجلة دعوة الحق، عدد

(3)، (المحمدية، 1960).

287- الفن المغربي تعبير رائع عن مدارك الاجيال، مجلة اللسان العربي، المجلد

9، الجزء 1، (الرباط، بلا).

288- مؤسساتنا الجامعية بين جامعات العالم، جريدة العلم اليومية، عدد

(2759 و 2760)، (الرباط، 1975).

- عبد الجليل / عبد العزيز.

289- الموسيقى المغربية على عهد المرينيين وبني وطاس، مجلة المناهل، عدد

(20)، السنة الثامنة، (الرباط، 1981).

- العربي / العمروي.

290- من علاقات الحفصيين والمرينيين، مجلة المغرب، عدد (3)، (الرباط،

1965).

- العمراني / عبد الله.

291- جامعة القرويين، مجلة لبحث العلمي، عدد (11-12)، (الرباط،

1967).

- الغافية / عبد الرحمن.

292- صمود المذهب المالكي واستمراره، مجلة دعوة الحق، عدد (2)، (المحمدية، 1982).

- الفاسي / محمد.

293- ابن البناء العددي المراكشي، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، مجلد (6)، عدد (2-1)، (مدريد، 1985).

294- تاريخ الدراسات اللغوية بالمغرب الأقصى، مجلة دعوة الحق، عدد (10)، (المحمدية، 1960).

295- دور القرويين في جعل فاس من بين العواصم الإسلامية الكبرى، ضمن كتاب الذهبي.

296- نشأة الدولة المرينية ومميزات العصر المريني الأدبية، مجلة البيئة، السنة الأولى، العدد (8)، (الرباط، 1962).

- الفرد / بل.

297- مادة تلمسان، دائرة المعارف الإسلامية، مجلد (5)، (طهران، 1933).

- القاسبي / نجاح.

298- المعاهد والمؤسسات التعليمية في العالم الإسلامي، مجلة المؤرخ العربي، العدد (19)، (بغداد، 1981).

- الكتاني / محمد إبراهيم.

299- مؤلفات ابن حزم ورسائله بين انتصاره وخصومه، مجلة الثقافة المغربية، عدد (1)، (الرباط، 1970).

- كنون / عبد الله.

- 300- ابن أبي زرع، مجلة تطوان، عدد (2)، (الرباط، 1975).
- 301- احمد بن شعيب الجزنائي، مجلة المناهل، عدد (2)، (الرباط، 1975).
- المنوني / محمد.
- 302- تاريخ المصحف الشريف بالمغرب، مجلة دعوة الحق، عدد (4)، (المحمدية، 1981).
- 303- كراسي الاساتذة بجامعة القرويين، مجلة دعوة الحق، عدد (4)، (المحمدية، 1966).
- 304- المولديات في الادب المغربي، مجلة دعوة الحق، عدد (4)، (المحمدية، 1969).
- النشار / علي سامي.
- 305- ابو الحسن الششتري الصوفي الأندلسي الزجال واثره في العالم الإسلامي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، السنة الاولى، عدد (1)، (القاهرة، 1953).

BIBLIOGARPHY

- Alarcon Y Santon, Aximiliano A. Y, Garcia de -306
- Liars, Ramon. Los Documentos Arabes Diplomaticos Del Archive De La Corona De Aragon. Padrid. Imprenta De Estanislao, Maestre. 1940.
- Bovill, E. W. The Golden Trade of the Moors, 2en ed. -307
- London: OUP, 1968.

- Ben Chekreuh , Mohamed B. A. Lavie intellectuelle -308**
morocaine Sous les merindes et les Wattasides, Rabat, 1974.
- Charles- Ander, Julien, History of north Africa, -309**
London: Routledge and Kegan Pauls, 1970.
- Du Fourcq, Charles-Emmanuel L'espace Catalane le -310**
maghrib. Aux X III et iV Siecles, Unversite le Bord etux et casa
de Velazquez. P. U. F. Paris. Sana date.
- Greenberg, J. The Influence of Islam on Sandanese -311**
Press, 1966.-Religion, 2nd, ed. Washington: Washington Univ
- Henri Terrasse, Histoire du Maroc. Edit. Ahantides- -312**
Casablanca, 1949.
- John B. Itago Islamic Architectuce. New York: -313**
Harry N. Arbams, Inc. Publishers. 1977.
- Jamil M. Abun-Nasr, A History of the Maghrib. 2nd -314**
ed. Cambridge Univ- press, 1978.
- Trimingharn, J. S. The influence of Islam Upon -315**
Africa, London, Green, 1968.

السلطين الذين تعاقبوا على حكم الدولة المرينية منذ قيامها
حتى عهد السلطان أبي الحسن «علي بن عثمان»⁽¹⁾

- 1- يعقوب بن عبد الحق: (656-685هـ) - (1258-1286م).
- 2- يوسف بن يعقوب: (685-706هـ) - (1286-1306م).
- 3- أبو ثابت: (706-708هـ) - (1306-1308م).
- 4- أبو الربيع: (708-710هـ) - (1308-1310م).
- 5- عثمان بن يعقوب: (710⁽²⁾ - 731هـ) - (1310-1331م).
- 6- علي بن عثمان: (731-752هـ) - (1331-1351م).

(1) أخذت التواريخ من المصادر التاريخية المباشرة للدولة المرينية، من أمثال ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، الذخيرة السنية، روضة النسر بن لابن الأحمر، والحلل الموشية لمؤلف مجهول.

(2) ينفرد زامباور في ذكر وفاة السلطان عثمان بن يعقوب بأنه توفي في محرم 732هـ - 1331م وهذا غير صحيح، بنظر معجم الأنساب والأشراف الحاكمة 1/ 122.

